

فكريّة فصليّة محكّمة

العـدد

55

ربيع 2022

لمناسبة "يوم الأرض"

يافا 1979، للفنان الفلسطيني سليمان منصور
زيتية 140x120 سم

« اتجاه» فكريّة فصليّة محكّمة،

المدير المسؤول: د. أنور خطار

رئيس التحرير: د. علي حمية

العنوان: فرات للنشر، رأس بيروت، بيروت، لبنان. ت:750053 1 00961 – 543166 70 00961

البريد الإلكتروني: editor@ittijah.info

www.ittijah.info

Ittijah: revue culturelle trimestrielle, Rédacteur en chef: Dr. Ali Hamiyeh.
Adresse: C/O Furat Publishers, Ras Beyrouth, Beyrouth, Liban,
tel: 00961 70 543166.

إتجاه

فكريّة فصليّة محكّمة
العدد 55
ربيع 2022

محتويات العدد

مئوية فرح أنطون
2022-1922

تعدّ مجلة «اتجاه» بالتعاون مع دار نلسن والجمعية الفلسفية اللبنانية والإتحاد الفلسفي العربي (بيروت) ومجلة أوراق فلسفية (القاهرة) وملتقى الفلاسفة العرب (تونس) عدداً خاصاً عن المفكر الإجتماعي فرح أنطون، صاحب مجلة «الجامعة»، احتفاءً بالذكرى المئوية الأولى لوفاته (1922–2022)، وتُنظّم، باسم الجمعيات أعلاه، وبالتزامن مع صدورها في النصف الثاني من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 2022، ندوة فكرية حول أنطون وكتاباته ودوره في بعث النهضة الفكرية التي شهدتها بلاد الشام ومصر، بين منتصف القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين (1850–1925).

وتتوجّه، بهذه المناسبة، إلى الراغبين في الكتابة أو المشاركة في الندوة أو في كلتيهما الإتصال بـ:

د. علي حمية	a_hamyeh@hotmail.com
د. عفيف عثمان	afifo@hotmail.com
أ. سليمان بختي	darnelson@hotmail.com
د. أحمد عبد الحليم عطية	aorakphalsaphia@gmail.com

الحقائق الأربع يا شعبنا العظيم في الوطن وعبر الحدود،

علي حمية

أستاذ جامعي

منذ أن فرضت الدول الإستعمارية الكبرى، في غفلة منك، بعد الحرب العالمية الثانية، الكيان الصهيوني الغريب في فلسطين، هذا الجزء الثمين من وطنك، وأنت– أيها الشعب الأبي– تدفع غالياً، على الصعد كافة، ضريبة رفضك لهذه المؤامرة الدولية السافرة على كيانك ومصيرك ومستقبلك ومقاومتك العنيدة لهذا الكيان الدخيل ومن يقف وراءه من قوى ومصالح دولية كبرى.

إن هذه الضريبة الباهظة التي أديتها ولا تزال تؤديها بسخاء، منذ عقود، فداءً للأمة والوطن اللذين تنتسب إليهما، لم تبذلها فقط في مواجهة الكيان الصهيوني الغاصب والقوى التي تدعمه، بل تبذلها أيضاً في مواجهة أنظمة سياسية، أبوية، متخلفة ابتُليتَ بها– أيها الشعب النبيل– منذ أن وضعت تلك الحرب أوزارها، أنظمة أساسها: إما البيوتات والعائلات الإقطاعية الكبيرة المهووسة بالمجد العائلي أو الإنتقام المذهبي والعنصري، وإما الطغمة العسكرية أو شبه العسكرية ذات النزعة الإنقلابية الجامحة، الناشئة من تزاحم القضايا الفئوية والغايات الخصوصية للأفراد والتكتلات، ومن تضارب الأطماع والمصالح للدول الأجنبية ذات النفوذ في المنطقة. أنظمة قامت على الإستبداد السياسي والقهر الإجتماعي والإفقار الإقتصادي في الداخل، وعلى التبعية شبه الكاملة للأجنبي في الخارج!. وقد جرّت هذه الأنظمة العتيقة والمتواطئة، منذ نشوئها، الويل تلو الويل! فما إن كنتَ تُخرج نفسك– أيها الشعب الحيّ– من ضيق إلا لتوقعك هذه الأنظمة العتيقة في ضيق، وما إن كنت تنقذ نفسك من دبّ إلا لتوقعك في جبّ!.

لقد كرّست هذه الأنظمة الفاسدة والحكومات الصورية المتعاقبة المنبثقة عنها والمؤسسات الناشئة في كنفها التجزئة السياسية الكيانية (القطرية) التي كان المستعمرون الفرنسيون والبريطانيون قد فرضوها فرضاً على البلاد منذ" تفاهمات سايكس– بيكو" المجرمة عام 1916، فأصبحت النزعة الكيانية مفخرة يتباهى بها دعاتها، وتحوّلت الكيانات السياسية– صنيعة الأجنبي– إلى" أوطان نهائية" لحاملي معدوديتها يُتهم كل من يخرج عليها أو يرفض أن يتشرنق في داخلها أو يستجيب لدعوة قومية وحدوية، بالخيانة والمروق!

وقد ابتدعت هذه الأنظمة، ذات المنشأ الإقطاعي أو الإنقلابي، أو الإثنين معاً، البائدة منها والحاضرة، صداقات وتحالفات خارجية غرضها تأمين استقرارها الداخلي، ولو أدى ذلك الإستقرار إلى الإضرار بمصالح الأمة. ولطالما استقوت هذه الأنظمة، بعضها على بعض، بهذه التحالفات، في غير مرة!

لقد أرست هذه الأنظمة الحواجز السياسية والإقتصادية والإدارية بين دول الأمة الواحدة، والشعب الواحد، ورفعت تلك الحواجز جدراناً للكراهية والفصل الطائفي والجهوي، على جوانب الحدود السياسية المفتعلة، فتحوّلت هذه الكيانات إلى سجون كبيرة للشعب، في وقت كان فيه العالم قد بدأ يتحرّر، تدريجياً، من سجونه وسجّانيه!

أيها الشعب الحيّ،

إن الحرب العالمية المفروضة على الأمة، عبر بوابة الشام، والتي يقودها تنين الإجرام الوهابي والصهيوني والعثماني، مدعوماً من الوحش الغربي الكاسر، هي إحدى حلقات هذه المواجهة المتواصلة منذ عقود، بينك وبين قوى الإقطاع الدولي المتمثل، اليوم، بالولايات المتحدة الأميركية ومخفرها المتقدّم" إسرائيل" وقوى الإقطاع المحلّي الخاضعة للأجنبي والمستمرة في الحكم بقوة حرابه. وإذ أفشل انتصار المقاومة في لبنان وفلسطين والشام والعراق المشروع التدميري المعدّ للمنطقة والمتنكر بلبوس الديموقراطية والتعددية والإصلاح، فهذا لا يعني أن هذا المشروع قد انكفأ، نهائياً، أو أن أصحابه سلّموا بالهزيمة التي حصدوها من جراء عدوانهم الفاشل على لبنان وغزة، وفشلهم النهائي المنتظر، اليوم، في الشام. فالولايات المتحدة مهندسة هذه الهجمة الشرسة على بلادنا بنت عليها استراتيجيتها الجديدة للهيمنة على الشرق الأوسط — وبلادنا في موقع القلب منه– كما أن قاعدتها المتقدّمة" إسرائيل" تدرك، من جانبها، أن" استمرار" اغتصابها فلسطين مرهون بنجاح هذا المشروع الذي يستهدف، في شقه الصهيوني، إخضاع محيط فلسطين كله لهيمنة الدولة اليهودية الإستيطانية التوسعية الغازية، بعد تمزيقه وتفتيته وإغراقه في فوضى عارمة، كما كان يحصل في العراق وكما كان يؤمل حصوله في الشام.

هذا المشروع التدميري الذي يستهدف، في المقام الأول، منابع النفط في منطقة الخليج

الشرقي(العربي) وشرق المتوسط، وحماية أمن" إسرائيل" وضمان هيمنتها وتفوقها العسكري، يبقى قائماً على الرغم من الإنتكاسات الكبرى التي يتعرّض لها جراء المقاومة الشرسة التي تبديها- أيها الشعب الأبي- في فلسطين والشام والعراق، هذه المقاومة التي- بإنجازاتها وتضحيات أبطالها- تطوي صفحة الماضي المخزي - إلى غير رجعة- وتصنع الغد المجيد!

أيها الشعب الأبي،

ثمّة حقائق ارتبطت، تاريخياً، بهذا الصراع العنيف الذي تخوضه، بلا هوادة، ضد الهيمنة الغربية وحليفها المشروع الصهيوني، والذي ابتدأ بالتكالب الغربي على اقتسام تركة "الرجل المريض"(الأمبراطورية العثمانية) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. غير أن هذه الحقائق التي ترسّخت في وجداننا تتعرّض، اليوم، لحملة تشكيك واسعة، داخلية وخارجية، لم تتعرّض لها أمة في التاريخ، في ظلّ عجز رسمي، قومي وعربي، عن مواجهة المشككين بها وحملات التشكيك المغرضة.

فثمة، اليوم، عندنا، من يعتقد، واهماً، أن العالم أصبح" قرية كونية" لا مجال فيها لنزاعات أو حروب" جانبية"(يقصد، هنا، حربنا نحن مع عدونا الصهيوني وحلفائه)، لاهثاً وراء سراب تسوية مع هذا العدو، بمباركة عربية(مصرية خليجية)- دولية، تقضي بإقفال ملف هذا الصراع الذي أصبح، برأيه،"عبثياً" متناسياً أن" المجتمع الدولي" المزعوم، بكل هيئاته ومؤسساته ولجانه، قد أُعطي، دون جدوى، أكثر من نصف قرن للتعبير عن" نزاهته" والتزامه بقيم الحق والعدالة الإنسانيين المنتهكين في فلسطين، غير أنه سقط في هذا الإختبار بعدما تاكد انحيازه الأعمى لدولة الإغتصاب الصهيوني .

وثمّة، اليوم، من يُشكك بقدرتك، أيها الشعب النبيل، على الإنتصار في هذه المواجهة الدامية والباهظة الأثمان ضدّ إسرائيل وقوى الإقطاع الدولي والعربي والإقليمي، وذلك على الرغم من الإنتصارات الكبرى التي حققتها وتحققها بالمقاومة ضدّ هذا المربّع المعادي، والصمود الأسطوري الذي تبديه في فلسطين. مع ذلك، يصرّ هؤلاء المشككون على ضرورة" القبول" بالكيان الصهيوني الغاصب كـ" أمر واقع" والتسليم بوجوده والإعتراف به كما فعل ويفعل بعض الأعراب، وطيّ صفحة ما عُرف دائماً بـ" الصراع العربي- الصهيوني".

إنك، أيها الشعب العظيم، بأبنائك المقيمين والمهاجرين، مدعو إلى وجوب التاكيد، من جديد، على تلك الحقائق التي رافقت تلك المسيرة الكفاحية التي عزّ نظيرها في العالم أجمع والتمسك بها واعتبارها جزءاً من عدّتنا وعتادنا في معركة الحياة أو الموت ضدّ الصهاينة الغزاة ومن يدعمهم من قوى الطغيان العالمي والإقليمي.

أولى هذه الحقائق أن " إسرائيل" هي في أساس مشكلاتنا الكبرى، فالويل الذي لحق

بشعبنا وبلادنا ولازمهما، كظلهما، في المئة سنة الأخيرة، فضلاً عن الفقر والجهل والأمية والتخلف الإقتصادي والثقافي وانعدام التنمية والتوزيع غير العادل للثروة والهدر الداخلي، على كل الصعد، والتبعية للأجنبي التي صبغت حياتنا السياسية والإقتصادية والإجتماعية، في دولنا كلها دون استثناء.. ما كان لها، جميعها، أن تحصل وتصبح سمة خاصة بدولنا وحكوماتنا ومؤسساتنا وجمعياتنا لولا وجود" إسرائيل" بين ظهرانينا وما يمثله وجودها السرطاني من تهديد دائم لأمننا وحياتنا ومصيرنا.. وجود تذرّعت به الأنظمة السياسية الحاكمة لتُمعن، على امتداد الفترة الماضية، في كمّ الأفواه، وخنق الحريات، وتبديد الثروات العامة، ودفع الناس، بالضغط والإكراه، إلى المهاجرة، فأقفرت البلاد وأُفرغت مؤسساتها إلا من المرتزقة والأوشاب وباعة الله والأرواح، حتى أمسينا، في عيون الخارج، بقايا شعوب متخلفة، منحطة، لاهوية لها، ولا كيان، ولا اعتبار!.

الحقيقة الثانية، أيها الشعب الأبي، في الوطن والمهاجر، أنك بدأت تسمع، منذ فترة غير قصيرة، من يقول لك: أن لبنان واللبنانيين وأن الأردن والأردنيين وأن العراق والعراقيين.. الخ، قد ملّوا هذا الصراع" العبثي" وأنهم تحمّلوا كثيراً تبعاته المضنية وأنهم قد"أوفوا" بالتزاماتهم كاملة في سبيله، ولذلك آن لهم أن يستريحوا وأن يأخذ" أشقاؤهم" بنصيبهم منه، لكأن تقاعس البعض عن الجهاد أو تأخره عن ركبه، لسبب أو لآخر، أصبح حجة للآخرين لأن يعلنوا، هم أيضاً، استعفائهم من الجهاد، وبالتالي تنصّلهم من التزاماتهم القومية، بهذا الخصوص. وهذا خطأ لن يغفر التاريخ يوماً لدعاته فساد رأيهم وتهافت منطقهم!

الحقيقة الثالثة، أيها الشعب الأبي، إن الجهاد فرض، بل واجب قومي على كل من استطاع إليه سبيلاً : فرداً كان أم جماعة أم دولة أم كياناً سياسياً، ولا يبرّر تخلف البعض عن سبيله، لحين، أرتداد البعض الآخر عنه وقد كان لهذا الآخر السبق فيه. كما أنه— وفي السياق نفسه— لا مبرّر لأحد، كائناً من كان، النكوص بالعهود أو التهرب من الإلتزامات وإلقاء الحمل على الآخر، أياً تكن الظروف!

الحقيقة الرابعة، أن الخطر الصهيوني هو خاطر دائم طالما لم نتمكن من اقتلاعه كلياً، فلا يظننّ أحد في لبنان أو في الشام أو في العراق أو في فلسطين أو في الأردن، أو حتى في أقاصي العالم العربي، أنه في منأى من هذا الخطر، أو أن الدولة اليهودية التي ما تزال قائمة في بلادنا تميّز بين لبناني وشامي أو بين أردني وفلسطيني أو بين عراقي وكويتي..الخ. فهؤلاء، جميعاً، يهددّهم الإستيطان اليهودي بالطرد والإقتلاع من بلادهم، دونما تمييز بين هذا أو ذاك!.

عن معنى فائض القيمة بعد موت العمل*

زينب نصّار

أستاذة في الجامعة اللبنانية

*** مشاركة قدّمت في احتفالية المئوية الثانية لماركس/تونس 21 أوكتوبر 2018

في البدء كان العمل

بدأ التفكر الاقتصادي في ظلال العلوم الطبيعية، منضبطا ضمن مفاعيلها وتوازنات قوانينها، بالسؤال حول ثروة المجتمع، من ينتجها؟ ما هي الخاصية المشتركة لكل المنتجات؟ ما هو مقياسها الموحد؟ وجوابه انه العمل البشري، به تُنتج القيم، وهو يشكل مقياساً لها، به تُقاس القيم وتعوض بعضها بعضاً بتعادله بها. ليشير ذلك الى واقع انطلاقة الرأسمالية ونضجها به، وبه شق الفكر الاقتصادي اولى بداياته، مع أولئك، الذين لذلك أسماهم ماركس بالكلاسيك، لأنهم اقاموا أولى لبنات علم الاقتصاد، تقدموا ومن ثم تراجعوا، عندما أحجموا عن الاجابة عما يقيس المقياس نفسه؟ فما هي قيمة العمل نفسه، وكيف يُكافىء بما يتعادل به؟ فتولى ماركس ذلك، بكشف لغز القيمة في الانتاج الرأسمالي، ليبين، ان الرأسمالي ما كان لينتج سلعاً، لو ان كان عليه ان يبيعها بقيمتها، التي تتساوى معها فيها، بقيمة العمل نفسه، ليكشف في بحثه عن سر اشتغال النظام الانتاجي، حيث كان على الرأسمالي ايجاد تلك البضاعة، الي يشتريها، دون ان يدفع ثمنها، يُشغلّها، تنتج قيمة أعلى من كلفتها، ومن ثم يدفع أقل من قيمتها...ليكشف معها عن فائض القيمة، الذي يصادره الرأسمالي بالقوة، ليعيد رسملته، ويتشكل به النظام الرأسمالي القائم.

اذن، في البدء كان العمل، اعتبر ماركس ان العمل خلق الانسان، وان تقسيم العمل هو مقولة مقولات الاقتصاد السياسي، به رسمت الرأسمالية خريطة العالم، وبالسيطرة على نتائجه تموقعت كل الدول في منظومة التقسيم الدولي للعمل.

«النمو او الموت» هو دأب رأس المال مذ رصده ماركس، وهي نفسها حكاية الطبقة العاملة التي خلقت الرأسمالية الصناعية الصلبة والدولة القومية الحديثة. فماذا تبقى منها اليوم؟ بعدما ازاحتها الصناعة المعرفية وتفوق رأس المال البشري في الانتاج الرأسمالي؟
لذا لا بد من رصد المرحلة الراهنة من التطور الرأسمالي، أي النيوليبرالية، وتجسدها العولمة .

مهمة العولمة ثلاثية: مسح ومسح وتفتيت

تتمثل الجزئية الأولى في مهمة العولمة الثلاثية، بالمسح الجيوسياسي—اقتصادي1 الذي يسمح للعولمة بكشف واقع المجتمعات، للتمكن من تحقيق الجزئية الثانية، أي اجراء مسح تدريجي، بازالة المعوقات امام انسيابية رأس المال، وصولا الى اكتمال مهمتها، بالجزئية الثالثة، وهي تفتيت عناصر تكوين هذه المجتمعات، (تفتيت:الجبال والمدن، والمباني القديمة، تعّجل بتفتيت الذاكرة والاقتصاد، والاجتماع، والتاريخ).
هكذا يخوضُ التطورالانساني اليوم، واحدة من تحولاته المعرفية المبهمة. بعدما هزت العولمة منظومة الحداثة، وجُل مفاهيمها: الوحدة، الدولة—الامة، السيادة، الوطن والمجتمع. في واحدة من مراحل «التفتيت الخلّاق» استقطاباً لرأس المال وبشروطه القصوى، تتنحى دولة الرعاية، ليعاد تشكيلها وموقعتها ضمن منظومة العولمة، بتحويلها لأجهزة بخدمة رأس المال، تحت عناوين تحرير التجارة العالمية، إعادة الهيكلة، والتكيف، والخصخصة. إنها لحظة انكشاف العالم منشطراً مجمعاً، منمطاً ومنضبطاً في معسكر العولمة. كان من الطبيعي، تحت وطأة تفتيت الدولة الراعية، ان يتم الارتداد عن التسويات التاريخية، التي امكن تحصيلها، بفعل النضال الطبقي، لصالح العمل. ان تكييف الأجور في هذه المرحلة، اي «تحرير»2 سوق العمل، اقتضى الغاء الشرعية القانونية للحد الأدنى للأجور. أي نزع الصفة الاجتماعية عن الأجر.
فهل يمكن بعد للعمل المشظى النديفي، ان يتنكّب المهام التي أولاه اياها ماركس، بما يتجاوز انتاج القيم المادية، وفوائضها؟ الى تبؤ الخصومة مع رأس المال، ليشكل رافعة في صراع طبقات، تغيب معالمها، وبعد، هل يمكن للعمل الصراع و/أوالدفاع عن مصالح المجتمع؟

من هنا نشأ موضوع البحث وسؤاله: عن معنى فائض القيمة بعد موت العمل؟
ان هذا التفتيت الذي عايناه أعلاه، ويمثل الصورة المرئية اليوم، ما هو الا هزات ارتدادية للحدث الأصل، الذي تفجر في سبعينيات القرن العشرين، حيث كانت صيغة التراكم الرأسمالي السائدة انذاك، تلزم الرأسمالية في البلدان الصناعية الكبرى بضمان العمل واستقراره. ولكن ما ان بدأت الرأسمالية تستنفذ، امكانيات تطور رأس المال، بنتيجة فعل ميل معدل الربح للانخفاض وأثاره، (أحد اشباح ماركس الدائمة الحضور في وعي

الرأسمالي)، حتى بدأ راس المال، وكدأبه، الضغط على كتلة الأجور، لتحميل الطبقة العاملة عبء ونتائج أزمة الرأسمالية البنيوية، لكنه فوجىء بردة فعل المجتمعات واحدة تلو الأخرى، حيث تعاضد حراك طلاب 1968 الراديكاليين ونضج وعي الطبقة العاملة، الذي شد آزر حركات التحرر من الاستعمار، بانتصار فيتنام على امريكا، لتتفجر تباعا اشكال الرفض المجتمعي. أُبتدعت هنا وهناك اشكالاً للتعبيرعن الحق بالحياة، برفض عسكرة المجتمع وانضباطه، وانتاجه الوجودي بما يتلاءم ومصلحة رأس المال، بتجاوز موضوع تخفيض الأجور، لرفض ما عُرف انذاك بالفوردية والتايلورية3، التي حكمت العملية الانتاجية.
ان زلزال 68 كان عالميًا بحق، عبّرعن تأزم الرأسمالية بما يسميه ماركس وباء فائض الانتاج، وأتى في السياق، الاعتراض على حصة الموارد في الاقتصاد العالمي، أي أزمة اسعار النفط. فوجد النظام الرأسمالي نفسه محاصراً، من الداخل ومن الخارج، فخاض مواجهة شاملة، بالانقلاب على نفسه، ضد الانتظام العام والترتيبات السائدة منذ الحرب العالمية الثانية4، ضد النمط القائم على الانتاج الصناعي المادي وتمركزه. كان من الضروري اسقاط العمل عن عرش القيم، بابعاده عن المشهدية، بالانقلاب على الحكاية التأسيسية للرأسمالية، بالعمل عبادة. «لتسقط معه نبؤة ان التصنيع سيؤدي الى تحويل العمال الى حركة طبقية ...»تهدف الى احتلال السلطة السياسية»»5.
انتصار العقيدة القديمة «السوق دائما على حق»
تبلور جواب —التفتيت، بالانقلاب على دور الدولة وتدخلها في الاقتصاد، في بداية الثمانينات مع المحافظين في بريطانيا6. فاستعيد طرح أن السوق دائما ما يربط العرض بالطلب معا بإتقان. تبعهم دول في الكتلة الشرقية السابقة، وفي العالم الثالث، وكثر ممن كانوا يساريين، وتباركوا جميعاً في النيوليبرالية. لتُفرض معها إعادة هيكلة الاقتصاد العالمي بوحشية انتفاضة الأقوياء على الضعفاء. التفتيت— لعبة مقامرة — يديرها رأس المال ضد اطراف عدة، يربحها منفردا Winner Takes All. لم ينسى الرأسمالي، انقضاض العمال في العام 1968 على المصانع في باريس لاستعادتها وادارتها. لذا استهدف التفتيت العمل أولاً، واقتضى تفتيت هرمية العملية الانتاجية، ثم توزيعها افقياً على دول مختلفة، كحلقات غير متصلة ببعضها، لكنها ترتبط بالمركزالرأسمالي. فتم ترحيل الصناعات الثقيلة الى الجنوب، تواكبت وصحوة دوله الأولى، (التنمية المتعثرة بالدَّين العام). هكذا تخلى رأس المال عن القطاعات كثيفة العمالة في المركز، واستعاض عنها لديه بتطوير الصناعات المعرفية، ذات الكثافة الرأسمالية. «أخيرا بذل الرأسماليون جهدهم للانعتاق من هذه العبودية ..، اي من شروط العقود المرهقة مع العمال، بطلبهم النجدة من موارد العلم .... رأس المال يرغم أيادي العمل المتمردة على ان تغدوا مطواعة، بمساعدة العلم،..»7. بيّن ماركس، ان التمركزالقوي لرأس المال الثابت عبر التكنولوجيا، يستدعي في المعادلة انتاج فائض القيمة النسبي. يدفع هذا، الرأسمالي للتفتيش عن مصادر اكثر

ثباتا لفائض القيمة، ويفرض عليه ابتكار تقنيات جديدة، تعمق تقسيم العمل ...مما يؤدي الى زيادة الراسمال الثابت وانخفاض الراسمال المتحول. لكن مردود هذه العملية ياتي مناقضاً لطموحات الرأسمالي في الربح، اذ ان الزيادة المطردة في الراسمال الثابت يقابلها انخفاض اتجاهي في نسبة الربح، وكل رأسمالى يضطر بفعل منافسة الفناء، إلى إدخال كمية اكبر من الآلات، التي توفرالعمل بقدر الإمكان. لذلك ينمو الاستثمار أسرع من قوة العمل. ولكن رأس المال العالمي يعوض هذا، بامتصاص فائض القيمة التي تحققها اليد العاملة الرخيصة في الصناعات المرحلة، الى بلدان تتفاوت مستويات تطورها. ودفع هذا راس المال، للانتشار، فصارع مقتتلاً، مطيحا بمكتسبات الطبقة العاملة، (ضرب العقد الاجتماعي، ونظام الأجور الفوردية)،. «ومن خلال استغلالها السوق العالمي، قامت البرجوازية باضفاء طابع عالمي على الانتاج والاستهلاك في كل قطر... تدمير كل الصناعات الوطنية القديمة، ..فقامت مكانها صناعات جديدة ويتوقف على ادخالها حياة كل الأمم المتمدنة او فنائها... «8.

لأن القانون الأساسي لديناميكية رأس المال هو التوسع بحثاً عن مصادر جديدة، منتجة لفوائض جديدة، «تجذب البرجوازية مخافة اندثارها الأمم كلها، بمن فيها الأكثر همجية الى موكب الحضارة، تدك بأسعارها المتهاودة اسوار الصين العظيمة.. «9.

كانت السبعينات قد شهدت ولادة المعالج الصغري (الميكروبروسيسور) والثورة الالكترونية التي أسهمت لاحقاً في تعميق عالمية هذا النظام. هكذا شكلت النيوليبرالية، خروجاً امناً لرأس المال، رفدته خلال عقود ثلاثة، عوامل قوة عدة: دخول الصين النظام الرأسمالي، انهيارالاتحاد السوفياتي، لبرلة الاقتصاد الهندي، ما امد سوق العمل العالمي بمليار من العاملين. ف»كلما اصبحت الصناعة الحديثة اكثر تطورا، تعاظم حلول النساء مكان الرجال في العمل، ولا تعود الفروق في السن والجنس ذات مصداقية اجتماعية مميزة بالنسبة للطبقة العاملة» ... الكل يصبح ادوات عمل»10، مكنّت رأس المال في المركز من الضغط على اليد العاملة، بتعريضها لكل انواع البطالة. فبعد تحطيم النقابات، نُفذ، في الصناعات التحويلية، هجوم ذوشقين، اعادة تنظيم حادة لعملية الإنتاج، واعتماد ما يعرف ب» التصنيع النقي11 والترشيق». وامتدت مفاعيله، عبر الاعلام، الى الثقافة العامة، وطالت كافة القطاعات الانتاجية، واولها القطاع العام، بخصخصته، واخضاعه ل»توافق واشنطن».

وكما تنبأ البيان الشيوعي، مد نمط الإنتاج الرأسمالي سيطرته على العالم بأسره.

اعادة انتاج النظام الرأسمالي، بأيدي «حفاري قبره»

ازالت مابعد الفوردية، الحواجز—الدول، وشبكت المستويات الجغرافية ببعضها، من المحلي الى الكوني الشمولي، ووصلت فضاءات الانتاج والتوزيع.

منذ السبعينيات، وبنتيجة سقوط نماذج الدولة الراعية، استشرس رأس المال لاستخراج الفائض، بالامعان بلا هوادة، بتقسيم حتى العمل المقسم، والتعاقد عليه، كصفقات محتملة

للعمالة، تُرهن حياة العامل بكليتها، للرأسمالي، الذي يشغلّها انتقائياً. ما يسمح بتفكيك نظم ومعايير العمل، فيتم تخفيض الأجور، وتقليص تقديمات الرعاية الاجتماعية، أو الغائها. أن اعادة تنظيم العمل تنتهي بتدميره وتعيد العامل الى معسكرات العمل. «تتثبت فيها بقوة كبرى ديناميات الانضباط، ...بحيث تؤدي الى الغاء شخصية العامل،...فيجد نفسه خارج اطار الامكانية التأسيسية مهما كانت ضئيلة، ..ويكون الحل اما الهروب خارج المؤسسة، واما تفكك او تحلل الهوية. هكذا يرتسم تعريف او تحديد الجهاز النيو—حديث، في عدد مهم من امكنة الانتاج: آلات علائقية متعددة التبعية وتشميلية»12. وهذه تعمقت في العولمة بنتيجة تفتيت العملية الانتاجية، وبفرض سياسات سوق العمل المرنة—المشرذمة التي طالت حتى اكثر الفئات العمالية استقراراً، لتجد نفسها في ظروف شديدة الهشاشة.
«لا يمكن لمثل تلك التطورات الا ان تؤثر عميقاً في حركات طبقة العمال والماركسية، لأن كليهما استندا اصلاً ان الرأسمالية خلقت حفاري قبرها على صورة بروليتاريا متنامية عدديا،...ومصيرها التاريخي ان تصير اشتراكية (ثورية)، الا أن تطور الرأسمالية الغربية، منذ الحرب العالمية الثانية وتطورات الحركات العمالية داخلها وضعا ذلك المنظور موضع الشك المتزايد»13. وقد أشار باران وسويزي «ان الماركسية لم تكن أنجح من الليبرالية في تشكيل نظرية لمجتمع ما بعد— رأسمالي،... أو في فهم بعض الخصائص الرئيسية لمجتمع الوفرة. واعتبر جيل كامل ان الماركسية أخفقت أو ترددت في مواجهة وقائع العالم الذي ارادوا تحويله»14.
لقد استفادت الرأسمالية حتى مما أرغمت عليه، في دولة الرفاه، في تمويه الحقائق، ودفعت بكثيرين للتراجع امامها باستنتاجات ، تسجل بالضد من الماركسية واعلان اخفقاتها، لا بل استعجال نهايتها، والعالم معاً. قد نتفق مع طرح، ان ماركس استعجل، حالماً، نهاية الرأسمالية، ولكن الأكيد انه لم تتشكل لديه اية اوهام حول تمكن التطور التكنولوجي من تحسين وضع الطبقة العاملة، في مجتمع الوفرة، وهذا، ليس الا قناعاً يخفي خلفه عملية اعادة انتاج الرأسمالية، وبأيدي المفترض انهم «حفاري قبرها».

اذعان العمل

تتشكل الطبقة العاملة العالمية 15 من»مجموعة أساسية ربما مليارين اثنيين من الناس، اضافة لحوالي مليارين آخريين مرتبطين خاضعين للمنطق نفسه. وهي، اليوم، الأكبر حجماً، من أي وقت مضى، ولكنها أضعف بكثير، من حيث التنظيم والوعي عما كانت عليه منذ جيل واحد، وقد تزايدت اعدادها، حيث هي أضعف، من ان تشكل قوة سياسية ضاغطة». تتدهور ظروف العمل اليوم، مع الانتاج المعولم، تحت مطرقة الرأسمالية المعرفية، فهناك سباق محموم نحو القاع، بالعودة وبقوة الى العمل «المتصبب عرقاً»، حتى في أكثر الدول تطوراً. تتحكم العمالة اليوم بمنطق «قبول الهيمنة» “hegemonic consent”، اي الرضوخ

، يزداد الأمر سوءاً، مع اعتماد lean–and–mean production ، في معظم القطاعات، يصبح التعاقد على العمل بانواعه، مرنا، تحت شروط راس المال. اذ اصبح انجاز العمل غير المحدد النتائج مسبقاً، هم العامل وليس مسؤولية الرأسمالي. ينضوي العمل ضمن مفهوم «اقتصاد الصفقات»، وهذه تشترط، مرونة واستقلالية، وانضباطية في الان معاً، ومسؤولية ذاتية عن النتائج، يختفي تحتها العمل، وقد اصبح لعبة فرص، تحاول وقد تربح في اقتصاد الفرص، عملاً. ان الية انضباط كهذه، تنطوي على الإكراه، تصبح نفسها جهازاً للمراقبة الذاتية للعمل، ولضبط النتائج وتخفيض قيمتها، ف«لدى كل صناعي قانوناً جنائياً.. لتوليد الانتهاكات، ..لتخفيض الأجر ولتحقيق الربح حتى من الحوادث التي ليس للعامل سيطرة عليها»16.

ومع لااستقرار العمل، يصبح اذعان العامل موافقة رضائية على عقد استغلاله المفتوح، بأسوأ مما كان عليه «التعاقد بين احرار» القرن الثامن عشر. اليوم يرهن العامل وقته بكليّته، ويكون في وضعية الجهوزية الدائمة، دونما اي ضمانة بالعمل، الذي يصبح متقطعاً، بركاريات17 بنتيجة اعادة تنظيم العمل النيوتايلورية. انتهى زمن عقود العمل الدائمة، وقد استبدلت هذه، بالعقود المجزأة، وقتاً، وانتاجاً. مع تطور التكنولوجيا، يستعاض بسهولة عن العمال المهرة، بجدد لا خبرة لهم، يتم اعدادهم على عجل.

بيّن ماركس انه بمجرد ان يدخل العامل إلى مكان العمل، تصير القيمة الاستعمالية لقوة عمله، وكذلك استعمالها، الذي يتمثل في العمل، ملكا للرأسمالي. هذا ما ينطبق تماماً على الظروف الإنتاجية واستراتيجيات الصناعة المعرفية في مطلع القرن الحادي والعشرين، بالامتثال لمتطلبات العمل، بالتعبئة الذاتية، ، تصبح معها شروط العمل بغيضة للضحايا، سواء كانت رواتبهم عالية أو أجورهم منخفضة؛ لأن العمال لا يتم تحطيمهم كبشر فقط، ولكن تستخدم قوة عملهم بمعزل عن شرط وجودهم الانساني. ما يحط من شأن العمل، ومن فعل الوجود للطبقة العاملة، التي يتم تقزيمها الى ما دون الطبقة، باستغلالها بشكل فاحش، مُقّنع. اجل قد يوجد ما يشبه الطبقة العاملة بذاتها، ولكنها لم تعد لذاتها.. لا يمكن لمجتمع الوفرة اخفاء حالة خضوع العبيد. «تتواكب «عولمة السوق» بتبعية جميع جوانب الوجود الاجتماعي، تمثلها مجموعة خفية من السلاسل، وراء النمو المحتفى به كثيراً ل» المجتمع الاستهلاكي»»18.

لن تخفي التغيرات التي تعايشها البلدان الصناعية مشكلة العطالة، حيث يتحول العمال الدائمين الى «فائضين» يُدفعون للهجرة، ويُعوضون ب»العمالة الاستبدالية»، بجذب العمالة الكادحة عرقاً، التي تُهجّر وتُهاجر عبر شبكات الموت، براً وبحراً. كما ان ذوي الاختصاصات المعرفية يستبدلون ب»عمالة الحلول19» عن بُعد. يُفرض بالنتيجة، تقسيم دولي جديد للعمل بالمعرفة، يتقرر بموجبه مصائر الدول والشعوب على اساس المهام الانتاجية، بما يتجاوز الجغرافيا، والهويات الوطنية. فاذا كان يتم اقصاء المهاجر عن كل حق بالحياة،

ويبقى مهمشاً مطارداً في حالة غير شرعية دائمة. يستعان به لتأمين عسكرة جيش العمل الاحتياطي، للحفاظ على عروض سوق العمالة الرخيصة، بشروط استغلالية قصوى، فان منتجي المعرفة عن بعد يمثلون، حالة دفرسوار للاقتصاد الوطني. ليتشكل نظام الأپارتايد الجديد، الطرد والحجر في اللامكان، والاقصاء، والدول التي لا تُذعن يتم تأديبها. هذا يوضح لماذا يدفع اللاجئون ثمن الاقتصاد العالمي.
شكل هذا المسار تحولاً وتحكماً اقتصادياً وتجاوزاً لكل الأبعاد؛ لكنه لم يمكّن الرأسمالية من حل مشاكل النموالاقتصادي، الذي سرعان ما بدأ بالتباطؤ. فحتى الثورة الرقمية في العقود الأخيرة، كان تأثيرها صغيراً بالمقارنة، على الاستثمار العام.
«رأى ماركس ان الايقاع المرتجّ للنمو الرأسمالي انتج أزمات دورية لزيادة الانتاج ستكون عاجلاً ام أجلاً غير منسجمة مع الطريقة الرأسمالية الخاصة بادارة الاقتصاد وتوليد نزاعات اجتماعية لا تقدر ان تتغلب عليها. فالرأسمالية بطبيعتها عاجزة عن صياغة الاقتصاد اللاحق الخاص بالاقتصاد الاجتماعي»20

العولمة: ايديولوجيا الاستهلاك

تعددت طروحات المفكرين21 على اختلاف مواقعهم بالعلاقة مع الماركسية، في تحديد العامل المؤثر في اعادة انتاج النظام الرأسمالي، في العولمة، فتنوعت الاجابات لتشمل) وسائل التواصل، صناعة الانسان المدين، "الجمهور" la multitude وخلق "إمبراطورية مضادّة" للتبادلات والحركات العالميّة، ...) رغم اختلاف مقاربات تناول الرأسمالية، الا ان هناك توافق حول الملامح العامة للمرحلة الراهنة من تطور الرأسمالية، التي تتميز بتمركز رأس المال، تصاحبها اتجاهات الركود في المركز، العولمة المالية، الاستغلال الإمبريالي في الهامش، والتنافس الإمبراطوري بين البلدان الرأسمالية المتقدمة—تُكون معا الصورة العامة لوضع العالم في ظل نظرية احتكار رأس المال.
عليه، في ظل النظام الحالى تنتج الرأسمالية، ببساطة، مفارقتين فاقعتيين. من جهة، هناك عدم التوازن المتفاقم بين مستوى الاستثمار ومستوى الربح المطلوب لدعم ذلك الاستثمار، ومن جهة أخرى، هناك الفجوة المتعمقة بين حجم الناتج الممكن للاقتصاد بلوغه ارتفاعا، وبين القدرة الشرائية المتهاوية لدى الناس لتوفير «الطلب الفعال».
حاولت العولمة، وبواسطة التكنولوجيا المتطورة، انقاذ نمو الانتاجية من الانخفاض، في تسعينيات القرن العشرين، عبر استنزاف كل القطاعات الاقتصادية، الصناعية والخدمية والمعلوماتية. ولكن سرعان ما اتجه مؤشر النمو في الدول المتطورة نحو الركود ، و»سقط تحت معدل 1%. ان نمو الانتاجية في الدول الناشئة، فقط، هو الذي مكّن المعدل العالمي للنمو من المراوحة عند 2% «22 في هذه الألفية. رغم انه أعتُصرت حصة العمل من القيم الجديدة لرفع حصة الأرباح، ولتعويض نقص النمو. ترافق هذا مع انخفاض معدلات التراكم الرأسمالي في «الاقتصاد الحقيقي»، اضافة الى التلاعب بحقوق الملكية، واصولها،

عبرت عنها أزمات رهون المقامرة العقارية التي امتدت مفاعيلها الى الأزمة المالية. استنفذت الرأسمالية جل ادواتها، فأين يمكن بعد انتاج فائض القيمة وكيف؟
تفتّق ذهن الرأسمالي، عن اعادة تنظيم عملية انتاج الثروات والسلع، عبرانتاج الانتاج ذاتياً، بواسطة الناس نفسها، كماكينة انتاج وسوق تصريف ذاتي في الآن معاً. بعبارة أخرى، تمت رسملة الاجتماع بكل عناصره.

ايديولوجيا الاستهلاك

هكذا تشكلت ايديولوجيا الاستهلاك كرافعة للاقتصاد، استحُدثت بناها التكنولوجية، وعُممت آلياتها (انشاء الطرق السريعة، صناعة الموت والتأمين عليها، وسائل اتصال موحدة تنتهك الخصوصية وتبيع بياناتها). ان «تطور الرأسمالية وانتصارها ما كانا ليكونا ممكنين، دون المراقبة التأديبية، التي حققتها البيوسياسية الجديدة التي صنعت لنفسها اذا جاز القول «الاجساد المذعنة» التي كانت في حاجة اليها بواسطة سلسلة من التكنولوجيات الملائمة»23.
هكذا تظهّر دور المستهلك، في فترة أُختبر معها الانتقال من الفوردية الى التويوتية، التي تقوم على قلب العلاقة بين الانتاج والاستهلاك رأسا على عقب. يصبح قرار الانتاج موصولاً مباشرة بالطلب، اي يتم خلق الطلب ويوازيه بالتزامن معاً تشكُل العرض في السوق، فعندما يتم انتاج البضائع يكون المستهلك قد اختارها وابتاعها.
أبدعت الرأسمالية في خلق الفرد المناسب، هذا، بعدما نجحت في اخراج شياطين «الأنا»، المكبوتة، والمحرومة، والمحتَقرة، من «صندوق باندورا»، فليعيث الجميع في الأرض استهلاكاً. يبدو ان لفيتشية السلعة مجالات لم تكتشف بعد، وقد آن آوانها بعد تفتيت العملية الانتاجية. يتصدر الفرد المشهد بالاستهلاك، يزيح العمل، فتغيب الجماعة معه. هكذا يروي رأس المال حكاية انتصاره، بعد صراعات عدة خاضها لاثبات نهاية العمل24، فهو لم يعد المصدرالأساسي للقيمة!، وهذه صارت تؤمنها تكنولوجيا التواصل الشبكي، التي ارتفعت الى مستوى وسائل الانتاج. نجحت العولمة بفرض روايتها، بوصل نهايات العالم، وإخضاعه بالقوانين الموحدة، والمعايير المنمطة، في مسار تقوده الشركات العابرة للحدود25، تفرض نظام التجارة «الحرة» على الضعفاء، تتسيّده وول ستريت والمؤسسات المالية الدولية، وترعاه منظمات دولية شريكة WTO ,IMF, WB، سعياً بالنظام الرأسمالي بحثاً عن أين، فالى أين بعد؟ وقد بلغ التوسع الرأسمالي ذُراه في العولمة. ولكن لابد مما هو بد، أي التوسع اذن، ولو باعادة تشكيل المشكّل، انه الخروج الى الداخل، يطيح بالحدود السيادية الوطنية للدول، ليُعاد رسمها بالأسواق المارقة —الاستهلاكية.
تتمحور الفلسفة الليبرالية الجديدة على قاعدة ان الاستهلاك يحقق النمو الاقتصادي العالمي، اي ان الموت يقود الحياة. تتوافق عليه مصالح الجميع في المدى المنظور. الأول، رأس المال، بعدما أصبح أمر العالم له، فاذا كانت معدلات النمو المستهدفة، مُتعذرة،

فان رأس المال يتجه للإمعان باستزاف القيم المتراكمة، سعياً وراء معدلات ربح لا تتحقق. والثاني، المستهلك النرجسي، مدفوعاً بحثاً عن وجوده، بأوهامه التي تصبح القوة الدافعة للاستهلاك. والثالث، الدولة، بعد تقليص دورها الرعائي، وتفتيت الانتظام العام، ما يؤمن للسلطة الهروب من تحمل تكاليف النظام، بتحميلها للمستهلك.
هكذا يسهُل عبور مسار التفتيت، بعدما أُنجز الأهم، وهو دحر العمل، وحلوله بما سُمي مرونة العمل، يتبناه اليسار قبل اليمين، لتسهيل الاندراج الذاتي في السوق العالمي، خوفاً من الاستبعاد وهذا كلفته أعلى، فيتأمن اذعان المكان وسكانه، بالتنازل طوعاً، او اكراها، عن مكتسبات تحققت بفعل نضالات شاقة، (قانون العمل الفرنسي الجديد آخرالانجازات!)، أدت لتراكم رأس المال وقوته هذه، فمن يملك الحق في التنازل عما ليس له؟ لمن لا يُسأل عنه، بل يستولي غاصباً، غازياً، وكعادة المنتصرين، يقرر مصير الدول، ويغير خريطة المدن ويُخلي شوارعها، يحتلها، تستسلم سكانها تنزح وتُهجّر، كل ذلك جذبا لرؤوس الأموال ذات المهام قصيرة الأجل. المفارقة تتوافق الضحية والجلاد، لاعطاء فرصة أخرى لرأس المال، للاستثمار. انها حكاية، اقتصاد الزومبي، كالعادة وبعد كل أزمة، يستعاد طرح «دع كل شيء للاسواق»، ما تعثّراختبار صحته ولو لمرة واحدة في التاريخ، ولا حتى هذه المرة، رغم كل ما فرضته العولمة على الدول. وفي مواجهة هذه الأزمة الطويلة، الممتدة لعقود عدة، كان لا بد من تكبير حجم الاقتصاد، ولو بالايحاء به، فتمت رسملة الوهم، بتطوير الاقتصاد الافتراضي. ينقله رأس المال، بخطى متسارعة جامحة، من حال لحال، ولا تستطيع ابعاد المجتمع الأخرى اللحاق به، لتصبح «السياسة اليوم، الى درجة غيرمسبوقة، صراعاً بين السرعة التي يمكن ان يتحرك بها رأس المال وطاقات «تخفيف هذه السرعة»، لدى السلطات المحلية»26.
انتاج فائض القيمة: انتقال الرأسمالية من مرحلة فورد الى مايكروسوفت أوجب التفتيت، بالمنافسة، السقوط الحاد للنموذج الفوردي، — فتخففت الرأسمالية من أعباء المكان (الأرض /المصنع/ العمال /انتظام الآجر)—، ليخلفه نموذج مايكروسوفت، فلم يعد رأس المال يتجاوز حقيبة كومبيوتر وخط انترنت. سقط العمل، لم يعد محوراً تتشكل حوله الهوية. يُدمرُ المجتمع ذاته ليحيا. فمقياس النجاح، هو التفوق في اللحظة، يلمع كالنجوم وينطفأ بالمنافسة، مع كل انجاز للاستهلاك التكنولوجي السريع. يتصدر المشهد الشباب «المتحررين» من كل القواعد، لكنهم يتبعون اوامر «اليد الواضحة» وراء «لايك»، حيث يتم انتاج «العقلانية الثقافية الاستهلاكية»27. فيتم توحيد معايير الاستهلاك الشخصي للبضائع وتعميمها، دون ان يشمل معايير الاستهلاك العام للموارد، التي يتم استنزافها في كافة الدول. «يدفع السوق نحو متحد شمولي، تنزع رغبات الافراد وسلوكاتُهم الى التطور بالكيفية ذاتها»28.
لكن هذا كله لم يحفز النمو المرجو، ففي الوقت الذي تترنح فيه الاستثمارات، قضت

الضرورة، بالانتقال الى اقتصاد الصفقات، بعد تجزئة الأعمال وتنفيذها، حيث «..عمت موجة ابتكارات خدمات مالية، ...تقوم على ضمانات القروض والأصول والاشتقاقات، بعدما رسملت الليبرالية الجديدة كل شيء، يعني تمويل كل شيء. الأمر الذي عمق سيطرة المال على مجالات الاقتصاد كافة، وعلى اجهزة الدولة، وعلى الحياة اليومية ايضاً»29، بتسليع تفاصيلها، اي انطاق رأس المال بالقوة الرمزية. بعد سيطرته المطلقة على مقدرات الدول واخضاعها، وتحديد مصائرها، تبقى على الرأسمالي ايجاد، من ينتج له، ويتحمل التكاليف بنفسه، ويؤمن، أيضاً تسويق المنتجات وتصريفها، ويتكفل بتقديم الأرباح للرأسمالي، فمن يكون هذا؟ هي لعبة المقامرة، يربحها واحد فقط، هو الرأسمالي، ويخسرها الأخرون جميعاً، المستهلكون والمجتمعات والدول. جوهرالاستهلاك هو الفقدان، وسيلته التفتيت، ما يستنزف سلباً عملية التراكم، ويُفترض تعويضه. ما يدفع الرأسمالي الى دمج الاستهلاك بالانتاج، باشراك المستهلك نفسه، المميت للشيء، في عملية اعادة الانتاج الرأسمالي في مرحلة العولمة، التي تصل الكوكب ببعضه من خلال بنية تحتية تكنولوجية موحدة معممة، تمثل ادواتها في الوقت عينه، سلع استهلاكية ووسائل انتاج، تُساعد في حل مشكلة تراكم راس المال، وذلك، بالرسملة الفورية لفائض القيمة اثناء عملية الانتاج التشاركي، حيث ينتج فائض القيمة، لأن تقاطع العرض والطلب لا يظهر حقيقة، ان المستهلك/الطلب، يتحمل جزءً من التكاليف ويساهم في تشكل العرض،– وهذا يتحقق مباشرة على مستوى الانتاج وتصريفه فوراً. سبق للمفكرين الليبرالين، في بدايات القرن العشرين، ان بينوا من خلال نظرية «تكاليف المعاملات 30» أي تكلفة المشاركة في السوق، يتحملها المورد والمشتري معاً، في سياق العملية الانتاجية، فيتمكنان عن طريق الجمع بين الموارد الداخلية للمؤسسة مع الموارد الخارجية للعميل، من انجاز المعاملة، بالحصول على المخرجات/المُنتج. أي الإنتاج بمشاركة الزبون(customer co–production). هكذا، تقدم اداء الرأسمالية، الى منطقserve yourself31 اي أن يخدم المستهلك نفسه بنفسه، مثلاً كخدمات: الصرّاف، الوقود، السفر، فيغيب الرأسمالي عن المشهد ويغيب معه العامل. كان سهلا تمرير هذا أولاً، في قطاع الخدمات التي تنتج وتتحقق في السوق مباشرة. ولكن هذه يحكمها ايضا قانون القيمة. فالقيمة حسب ماركس في الجزء الثاني من كتاب رأس المال تُنتَج في المصنع– ولكن لا تتحقق، الا في السوق. ان نجاح هذا الاختبار، عبر بالرأسمالية الى مرحلة جديدة، بالتلاعب بالقيمة الأساسية للسلع، بتجاوز القيمة الاستعمالية التي خفضت التكنولوجيا كلفتها الى الحدود الدنيا، كان لا بد من تعويض ذلك، بتضمين السلع قيماً رمزية ترفع القيمة التبادلية32، فترتفع معها قيمة السلع، وترتفع أسعارها، التي يتم توظيفها، في الآن معاً، في قيم استعمالية (مكانة اجتماعية)، تعيد ترتيب أولويات الفرد– المستهلك، الذي يتم تشكيله، ليتلاءم مع السلع، وقيمها الرمزية، التي لأجلها تقتنى السلع. ف»الرأسمالية لم توصل البضائع للناس، بقدر ما أوصلت الناس الى البضائع»33، بأعادة

تشكيلهم الدائم واذاوقهم، في مختبرلا يتوصل لنتائج، فالسلع تتغير في التو. بتداخل عملية الانتاج والاستهلاك، يتم تخريج العمل من الصورة، ويُضخيم دور المستهلك، الذي اصبح يشارك في العملية الانتاجية —الاستهلاكية، بالرغبة التي لا تشبع، قبل، وأثناء، وبعد انتاج الخدمة/السلعة. فهو في حالة استهلاك—انتاج دائم، يستهلك وقته انتاجاً وتصريفاً للقيم، من اختناق المرور الذي يخدم بالترابط صناعات عدة، الى تسوق البضائع والطعام السريع.

لذلك يتم تموين المستهلك، عند المقتضى، بالموارد—السلع مسبقاً، على ان يدفع عند الاستلام، او مجرد الحصول، أو حتى بعد الاستعمال للسلعة، حتى ان الشحن، كثيراً ما يصبح مجانياً، كل ذلك في علاقة حساب موارد مفتوح مضمون. نتحدث هنا عن المعية بالتشارك الانتاجي بين المنتج والمنتج —المستهلك للسلعة. وهذا الأخير يؤمن ما يعرف برأس المال البشري— الاجتماعي، المتراكم عبر فترات طويلة من الزمن، المشكّل من مجموع الخبرات والطاقات والإبداع والصفات الشخصية، اضافة الى كل المهارات الفنية والتكنولوجية والشهادات والتشبيك"Networking وكل مقدرة يمتلكها الأفراد، تستحوذ عليها مجتمعة العولمة وتستثمرها. في ما يعرف بأيديولوجية "التميّز" 34. ان الالتحام بين هؤلاء المستهلكين ووسائل الانتاج، يحولهم ضمناً الى عمال(القيمة المرزولة)، وظاهرياً الى مستهلكين(أرباباً لعملهم) في الآن معاً، لنتاج عملهم الحي، والعمل الميت (وسائل الانتاج) لصالح رأس المال، الذي يتحكم بقرار الانتاج، ويفرض، ايضا، وسائل الانتاج وصلاحيتها، ويتحكم بمنتجيها، والسلع والخدمات التي ينتجونها، اي ان من ينتج وسائل الانتاج الاستهلاكي، يسترد انتاجها من هؤلاء، مع قيمتها وفائض القيمة ضمناً، مع تحميل كلفتها لرأس المال البشري، اي للمستهلك —المنتج. ولا يُترك له اي خيار للمنافسة. نحن نتحدث هنا عن نموذج استهلاك—انتاج، يعمم في العالم. لعل هذا يفسر، نقل الضرائب المتصلة من جانب الانتاج، اي تخفيض الضرائب على رأس المال، الى جانب الاستهلاك وتحميلها للمستهلك النهائي35، بعد حلوله في الانتاج، أي انها في جوهرها هي ضرائب على الانتاج. من يقرر ويسيطر عليه هو من يتحكم برأس المال والسلطة، والادارة، بعد توحيدهم في كتلة متنافسة المنسوب، لقوة كل منهم ولكن ضمن عملية اعادة انتاج علاقات الهيمنة والنظام المفتوح الانتاج المجهول المسير.. لتنتقل بذلك الرأسمالية، من الرأسمالية الانتاجية، التي تشكلت تحت شبح البروتستانتية بالعمل عبادة، وبتأجيل اشباع الحاجات خشوعا، الى الرأسمالية الاستهلاكية.

المستهلك— الرأسمالي

يبرز الاستهلاك كحلة جديدة للعمل، فتُنتج الرأسمالية من خلال آلية الاستهلاك (تدعمها الميديا—الاعلانات)، ما يمكن تسميته المستهلك —الرأسمالي الخاوي، تسكنه روح العطالة، فكيف له ان يحصن نفسه بوعي ذاتي ضد التدمير الذاتي —الكلي، في حين أن الإذعان شرط جوهري في انتاج المستهلك الرأسمالي، الذي يعيد انتاج النظام باستهلاكه.

وقد استحدث للغاية، فرع تخصصي جديد في علم الإجتماع، هو "علم اجتماع الفضاء المعلوماتي» Cyber sociology، الذي يدرس، ضمن «أخلاقيات» الإنترنت، فئات وأنماط شخصياتهم، ويُخاطب كل واحد منا مباشرة، فانت لست فقط مستهلكًا للمواد المنشورة بأي موضوع، بل عليك، عبر"like" و"share" أن تكون مساهما منتجاً، متحملاً التكاليف،أيضا، دون ان تضمَن حقوقك، لا بالملكية الفكرية، ولا المادية. يُعمَم تفكير يقلب الموازين، نتسابق جميعنا متسارعين الى الوراء، الى مرحلة الصبينة النرجسية. فمن يريد بعد تغيير العالم؟

ولأن معدلات النمو لا ترتفع في الاقتصاد الحقيقي، ويحجم رأس المال عن المخاطرة، لعدم توفر معدلات الأرباح المأمولة، ازدهرت الفعاليات المالية بشكل غير مسبوق، تقدمتها تشق طريقها، سلسلة تشريعات، وفُرضت للغاية سلة من القوانين،— تمتد تبريراتها من محاربة الارهاب ومكافحة تبييض الأموال، الى التهرب الضريبي،— تدعمها الاتفاقيات الضامنة، لانكشاف المجتمعات، ولتحرير كلي لأسواقها حيث يجب، للمطابقة مع أهداف النيوليبرالية والسوق العالمي.

كان لا بد من توفير بيئة الأعمال المناسبة لمنتجات افتراضية، وتفتقت ذهنية المقامرة الرأسمالية، عن نوع جديد من النشاط الافتراضي، فنشأت الحاجة الفعلية لتمويل المشاريع الافتراضية التي يقوم بها رأسماليون افتراضيون بدورهم، أي إنهم ،حقيقة، لا يتوافرون على رؤوس أموال بالأحجام الخيالية المطلوبة، للاستثمارات العقارية والمالية والخدمية الافتراضية، التي لا تعبر عن طلب حقيقي، فتؤمنها اسواق مالية تقوم على ضمانات القروض والاصول والاشتقاقات المالية. هكذا، ترسخت محورية القطاع المصرفي36، المتمرد المنافس، والمراهن بدوره، على دوره التاريخي37، يتسيّيد هذه المرحلة، يقدم التسهيلات المالية، مشاركاً المستثمرين المفترضين، دون اي ضمانات لأصول انتاجية (تدر قيما فعلية). ولتوزيع مخاطر هذه التسهيلات، أُبتُدعت عدة أدوات مالية، عقيمة، لكنها متداولة على أساس قيمة افتراضية.

ان التحول الكبير نحو الاستهلاكية والفردانية، تطلب اضافة لخلق المستهلك المناسب، تمكينه بالقدرة الشرائية، فتم رفعها بأشكال متعددة مُوجهة، مُحفزة، بشروط، ضامنة، كالبطاقات الائتمانية التي تتيح امكانيات استهلاكية لا سقف لها. ساعية لجذب من لا قدرة له على السداد، ما سهل انغماس الجميع بالاستهلاك، بما لايخطر بأي مخيلة، وحوّل المستهلك الى عامل—مستهلك—زبون دائم، في علاقة تتجدد بقدرته على الاستدانة على قوة عمله المستقبلية، أي ان العامل يرهن قوة عمله المستقبلية، اي من جديد يسلف العامل الرأسمالي ما يقابل قوة عمله هو (اي امواله)، ناهيك عن حسابات تقاعدية تقتطع من قبل الرأسمالي عن احتمالية عمل يصبح لا تقاعد فيها، يرسملها الرأسمالي بالمراهنة عليها، ليستثمرها (يستهلكها) في الحاضر، في سعيه لتحفيز النمو الاقتصادي. هذا ليس شبحا

لماركس، أنه حقيقة دائنية العامل لرأس المال. والأنكى من ذلك، فان الرأسمالي المرابي اليوم، يبز الرأسمالي الصناعي، فهذا الأخير كان يسعى، بالحد الأدنى —الأجر الحديدي، لبقاء العامل حياً، قادراً على العمل في اليوم التالي، فموته كان محققا في العمر الانتاجي في المصانع البريطانية، فينتهي عمله بموته. لكن الرأسمالي المرابي اليوم، لم تعد مسألة حياة العامل نفسه تعنيه، طالما ان هذا الأخير لا يموت، تحييه شركات التأمين(شريكة المصارف)، على حساب العامل الذي يرهن حياته. زد عل ذلك، انه يضمن استمراريته، بنسله، المنجذب أكثر، والأسرع في الاستهلاك، والذي يسدد ديونا رتبت عليه قبل ان يولد، مما يضطره ليرهن قوة عمله طيلة حياته حكما، وقد أضيف اليها كل تفاصيل العيش، التي يتم توظيفها في العملية الانتاجية، أي ان الرأسمالي حصل مسبقا على الفائدة بنوعيها البسيطة والمركبة، دون ان يستطيع احد ان يحدد، بدقة، مقدار هذا الدين، ولا كلفته، أي كلفة الحياة، بكل خياراتها راهناً ومستقبلاً. انه انقلاب تاريخي على عصر التنوير بكل مفاهيمه. هكذا انجزت الرأسمالية، وبتدخل الدولة، الثورة المضادة، لانقاذ السوق. ف«الإنجاز الجوهري لليبرلة الجديدة تمثل في إعادة توزيع — لا خلق — الثروة والدخل، وقد تم ذلك عن طريق ممارسات «التراكم عن طريق سلب الملكية»38؛ وخصخصة الأرض والطرد القسري للفلاحين والسكان، وتجريدهم حق الاستعمال، بعد طمس الحقوق في المرافق العامة، باتاحتها كحقوق استفادة حصرية لفئات واعمال تدر دخلاً. ينقض الاقتصاد فيتلاشى الاجتماع مع الذاكرة، وتلتقي الناس بعضها كمستهلكين، متناسخين.

هذا ناهيك، عن اشكال الغزو الاستعمارية — الاستهلاكية الجديدة، يجسدها الدّين العام، الذي يرهن الثروات المعرفية، والبشرية للدول، التي تذعن، بشكل أو بأخر، سلطاتها بتعبئة الموارد المحلية على انواعها ورهنها، باتاحتها بالتفتيت العام. ناهيك عما تعانيه أصلاً، الدول النامية برهن مواردها الطبيعية، واستنزافها، المنقطع عن تحقيق اهداف وطنية بعينها. فتتحمل شعوبها الكلفة، مضاعفة، لصالح السلطة المحلية، ولجذب الاستثمارات التي تُعظم منافعها مقارنة بالكومبرادورية، وهذه كانت كلفتها أعلى، فقد رافقها خطر رفض شعوب وحراكات هددت رأس المال ومصالحه. هكذا وبفعل الهشاشة المجتمعية—الوطنية، تزاح حدود الدول امام الاستثمارات الرأسمالية. وكلما تعولمت المجتمعات، تصبح الناس نفسها وحياتها حاضرا ومستقبلا موارد متاحة لاستغلالها، تنخفض قيمتها لوفرة عرضها المباشر.

هكذا يُعمم نموذج الاستهلاك—الانتاجي في العولمة، ويتواكب مع كل اشكال الانتاج الرأسمالي، وأولها الذي ينتجه العمل المتصبب قهراً وعرقاً، والذي يبقي عملياً الرأسمالية حية، فتعمل كل النماذج معاً، بتوزع العملية الانتاجية، في انماط يختلف مستوى تطورها، تمكن النظام الرأسمالي من استيعاب الجميع، بشكل مفتتت.

الا ان هذا كله لم يؤمن للرأسمالية، معدلات النمو المرجوة، وسرعان ما بدأ الاقتصاد الافتراضي بالتأزّم مع مطلع الألفية الثالثة.

ما الحل؟ ليس الا المزيد من الوقت لأزمة ممتدة منذ السبعينات، دفعت الرأسمالية الى ابتكار وايجاد مجالات «انتاجية» جديدة، عبرت عنها، بالتلاؤم، صناعة خلق المخاطر الاخلاقية39 والتأمين عليها، اقتضى ذلك، تعزيز القيادة السيئة للدول واضعاف مؤسساتها، لتطوير صناعات الكوارث، والموت40، تتقدمها الحروب المتنقلة السياسية والاقتصادية، على اختلاف مسمياتها، الارهاب، الفساد، المضاربات41، يترافقها، الجوع والأوبئة، التي تطال المجتمعات كافة بنسب وبمستويات مختلفة. وهذه تزدهر اسواق تجارتها في العولمة، التي تخلق مشاكل السلسلة المربحة فقط، ولا تقبل، لا بل تعيق، الحلول الرخيصة النهائية، لأنها دون جدوى اقتصادية! هكذا تخلق مجالات اقتصادية غير منتجة لكنها مربحة، وتؤمن جزء من اللاعمالة المدفوعة، والمنتشرة في مخيمات الضحايا، ترسمل معاناتها، على انواعها، البطالة، والوجع والتهجير والحرمان.،... ، والممتدة لأفق غير محدد، طالما توفر قضايا يمكن توظيفها، في تجارة مربحة، تواكبها، اعمال المنظمات الدولية، قد تتجلى مثلاً، في برنامج «الدواء الفتاك» لصندوق النقد الدولي42، وتنتشر في السياق المنظمات غير الحكومية، ترفدها توصيات الأمم المتحدة، وتقارير منظماتها واحتفاليات الدعوات للمواطنة الطوعية، والاقتصاد الاجتماعي التعاضدي والتنمية المستدامة، واحترام حقوق الانسان!.

سَهّل موت القيم السياسية والمسؤولية، انغماس الجميع في لعبة الموت المبرمج ومشاهدته مباشرة، فمع ارتفاع مستويات البطالة والفقر، تقدم المصارف خدماتها –منتجات هشة، كالقروض بخطوط ائتمان شخصي، لشراء تذاكر الدوري المقبل لكرة القدم، في الملاعب الممولة من دافعي الضرائب43.

انه التلاشي سقطت المجتمعات بعد نخبها، في مستنقع اللامبالاة والجمود، بعد مسخ الثقافة وتنميطها لا تنتج العولمة، الا الهشاشة. فماذا تتبادل الناس بعد؟ لا يبقى الا الحروب الصغيرة، المنتشرة، تؤمن متنفسات، من انفجارات عامة، تؤجل بها الرأسمالية مواجهة الأزمة، بالوقت.

«كيف تتغلب البرجوازية اذن على هذه الأزمات؟ بالقيام بتدمير متعمد لقسط من قوى الانتاج،..»44.

يؤكد هذا المسار، السمات الأساس في تطور الرأسمالية، والتي لا تنفك تؤكد آصالة تحليل ماركس للنظام الراسمالي، لا سيما ما يتعلق، بآلية النمو الرأسمالي الذي تحفزه تناقضاته، حتى «التدمير الخلاق»45. للارث الانساني وتراكمته.

«ان فكرة السوق ذات التنظيم الذاتي تنطوي على طوباوبة مطلقة، فمثل هذه المؤسسة لا يمكن ان تعيش ولو لفترة قصيرة من دون افناء كيان المجتمع الانساني والطبيعي46».. ها التدمير الراسمالي ينقض على الداخل بعد الخارج في العولمة. فقد تبين «ان شهية فائقة للنمو الاقتصادي تقبع في قلب الازدهار الذي افلس الآن»47.

الاستهلاكية عقاب سيزيف:

لقد عبرت الايديولوجيا التقليدية يوما عن مشروع طوباوي لفئة، وقلق مجتمع بعينه، في حين تتفوق عليها الايديولوجيا الاستهلاكية، اليوم، التي تُسوق مُعممة انسياقاً ذاتياً، في العولمة. تم تصنيع منتجاتها، والترويج لها بذكاء تقني، وتعميمها الى حدود الايحاء بالوهم، بتجاوز التقسيمات الثنائية، بالمساواة بين الفقير والغني، يجمعهما الاستهلاك، تميزهما المستويات، يتشارك كلاهما خواء الروح، فيتم تمويه الاختلاف بين ما يسمى الثقافة الراقية والثقافة الجماهيرية، ب»صناعة الثقافة الاستهلاكية»، وتفوقها على الأسس المادية، فالانتاج يستغني عن السلع الصلبة المتينة، وينتج سلع رخوة معدة للاستهلاك لمرة واحدة فقط، لفرد واحد، هو المستهلك الرأسمالي، صاحب كريديت كارد48 يتصيد التنزيلات يعيد للسلع رمقا من حياة، يستهلك فيها حياته، بحثا عنه فيها. ليعيد بالتوازي، انتاج النظام الرأسمالي المعولم المأزوم.

سبق لمدرسة فرانكفورت ان حذرت من «مخاطر المجتمع الصناعي على الثقافة، ...وبخاصة ..الثقافة المتجانسة التي هي قرينة التسليع ...وذلك كله في إطار من الاستهلاك الذي يفترض أنماطا جاهزة من الجماهير في سياقات هيمنة المال والسلع، وبخاصة في ظل «قدرة المجتمع الصناعي على تحويل الثقافة الحقيقية إلى ثقافة جماهيرية استهلاكية». «تكتسب امتثالية المستهلكين كما صفاقة الانتاج التي تحافظ على الايقاع تكتبان مزيدا من الوعي. اما النتيجة فهي اعادة انتاج نسخ طبق الأصل»49.

وقد احكم النظام الرأسمالي سيطرته على الاجتماع، منذ منتصف القرن العشرين، بانتقال المراقبة من المصنع إلى المجتمع، بعدما تم تطويعه بأحكام السوق، وصولا اليوم لتطوير تقنية «البيومترية»، لتصنيف البشر وفق معايير محددة، ومستويات عدة اقتصادية امنية سياسية، يغيب تحتها الاجتماع، في المحصلة كلنا زبائن لدى النظام الراسمالي.

لتنتقل معها السلطة من المعاقبة إلى المراقبة، للتحقق من الامتثال، بالاستهلاك يحل بديلاً يضبط الجسد ويخضعه بكليته. يتواكب مع نكوص السلطة والعودة عما انجزته الناس، التي أخذت تراقب بعضها للتأكد من انضباط عملية التفكك وانسياق الجميع بها، نبادل الحرية بالبضائع، بالاستهلاك، نتبرع بالمعلومات، نتخلى عنا، نشل قدراتنا.

تسعى التقنية بشكل دؤوب إلى خلق إنسان جديد، هو المستهلك الاستفزازي، يمارس عبر الرموز سلطة بالانابة. نحن في كل حين امام تقسيم اجتماعي جديد، لا يستقر نموذجا له، لاتنفك تضيق قمة هرم السلطة الرأسمالية الخفيفة، حيث يراقب وينتشر من لا علاقة لهم بالمكان، سريعو الحركة، لا يسعون لاقامة مصانع ولا لتملكها، يعيشون في مجتمع القيم الطيارة، لأن المنافسة مع التطور التكنولوجي تفرض سرعة التصرف للبقاء، فالرأسمالي لم يعد يضع خططا طويلة الأجل. هذا يشرح كيف أدت تكنولوجيا المعلومات القائمة على

السيليكون إلى تسريع مسار الانقطاعات التاريخية والاقتصادية الاجتماعية، بتجاوز الذات البشرية وتعطيل قدرتها على الاختبار، لتُعاد الوصاية على المجتمع، بعدما تم تفتيته. تفرض العولمة هيمنتها الشاملة، باضفاء نوع من التجانس القهري، لاخضاع المكان، ولتهجين الناس التي يدفعها الخوف للانغماس في الاستهلاك أكثر فأكثر. بموت الاختلاف، ليس هناك الا التلاشي العام ، فلا ينتج مقياس موحد للقيم يصلح للفصل بين الحق والتسلط، لذلك يصبح النظام الضعيف قويا، يتمكن من الامساك بمجتمع مفتت، ينشغل بكليانيته في عملية اعادة انتاج النظام الرأسمالي. وقد اصبحنا نعيش في المجتمع –السوق. يرى هارفي «ان السوق حاليا هو أماكن السكن، حيث يفرق أغلب الماركسيين بين مكان العمل ومكان السكن ويتركز نضالهم في مكان العمل، في حين أن فائض القيمة لن يتحقق إلا في أماكن السكن، وهنا يصبح الصراع الطبقي أوسع، حيث يستطيع العمال بنضالهم أخذ بعض الزيادات والحوافز في مصانعهم، ولكن الرأسمالية من المرونة بحيث أن تأخذ هذه الزيادة من منازلهم عن طريق إيجار السكن وشراء السلع وفواتير الكهرباء والماء» اذ «ما ان ينتهي استغلال العامل من قبل صاحب المصنع ويحصل على أجره نقداً، حتى تنقض عليه عناصر البرجوازية الأخرى –صاحب الملك، وصاحب المتجر والمرابي»50. لهذا تنشأ حسب هارفي ضرورة توسعة دوائر الصراع، بحيث يشمل أماكن السكن كما العمل، يجب مزاحمة تكتلات راس المال، ومركزية النضال من أجل مقاومة ظاهرة طرد الفقراء من المدينة إلى الأطراف. فالانتصار الطبقي، يبدأ من البقاء في المدن، والمساواة في حق التمتع بمُقدّرات المدينة، والمسؤولية عنها. نحن امام خطر الاستيلاء على المشاع المعرفي الانساني، يحتجب في خلفية الصراع على جودة الحياة اليوميّة، تسعى العولمة للاستحواذ عليه. هذا ما يؤكد على عالمية القضايا، وتوازيها، محلياً.

هل نستفيد بعد من ماركس؟

لقد بين ماركس النموذج النموذجي للرأسمالية، حيث تتطور العلاقات بخط تصاعدي، تراكمي، الا ان كل الحراكات، الأزمات، الثورات، استقلال الدول النامية، شكلت خروجا الى الداخل الرأسمالي، ما أمد الرأسمالية بحيز زمني، على امتداد المكان. لأن الرأسمالية لا تهدأ، تثُّور وسائل الانتاج بحكم قرار الموت او الحياة، لقد أوضح ماركس أنه عندما تصطدم أشكال الحكم الطبقى مع التغيرات التي تحدث في طريقة الإنتاج فإن ذلك يمكن أن يؤدى إلى نتيجتين: انتصار طبقة جديدة نتيجة لصراعات عنيفة، أو اندفاع المجتمع إلى الوراء، من خلال التدمير المتبادل للطبقات المتصارعة.

على الأغلب، لن تؤدي الأزمة الراهنة إلى ولادة بديل آخر للرأسمالية، فلا تزال العولمة في مرحلة قوة ، فهناك العديد من الناس ليتم استغلالهم، كما ان الابتكارات التكنولوجية دائماً، ما تتكشف عن قدرات ودورات جديدة للتوسع وانتاج القيم والحصول على فائض القيم. ان العولمة مدعومة باتجاهات ثلاث تعمل معاً، التكنولوجيا التي خفضت من كلفة الاتصالات

والنقل، والزيادة الدراماتيكية في عرض العمل المرتبط بالتجارة الدولية، والاجراءات الحكومية التي خفضت الحواجز امام التجارة والاستثمارات. فاذا كانت الرأسمالية توسعت بالانقضاض بالرساميل والقوة من الخارج للسيطرة على الموارد، فان العولمة، تتمدد من خلال التفتيت، بالاستهلاك وبالاحكام من الداخل، والسيطرة على تكوين الاهواء، والأفكار والنفوس، معطوفة الى كل انواع قوة راس المال وتطرفه في كل المجالات. «الرأسمالية، وفق روزا لوكسمبورغ، هي نظام طفيلي، بامكانها ان تزدهر ...حيثما تعثر على كائن لم يتم استغلاله بعد تستطيع ان تقتات عليه»51

قد يكون من ايجابيات العولمة انها فتحت الأفق، دون اتجاه، امام المجتمعات كافة، لتواجه تحديات وجودها. وإعادة المعنى إلى العالم، واستعادة الانسان لنفسه في مكانه.

على الماركسية ما عليها، ولكن سيبقى للماركسية مآثرة أكيدة، انها مشروع تحرر للأنسان وليست نظاماً للحكم.

الهوامش:

1 – يتعدى مصطلح العولمة حدود الجيوبوليتيك الى الجيواقتصاد(تحول الرأسمالية الى مستوى المقاولة، كل نقطة في الكرة الأرضية في كليانتها. هي المنطلق والنهاية باعتبارها فضاء جيو– اقتصاديا قابلا للاستثمار، كلما كان غير مكلف وواعد بمزيد من الأرباح) والجيومال وينتقل من المستوى المحلي الى الشمولي، وينتشر من خلال النيوليبرالية مخترقاً كل مناطق العالم، وكل فئات المجتمع بعد ان تفككت وتراخت حدود طبقاتها، لتنضم اليها عنوة وتدريجيا فئات مختلفة، لاتجمعها غاية واحدة، ولا توحدها مصلحة.

2 – ك "تحرير" التسييج للعمل في القرن الثامن عشر.

3 – الفوردية تنظيم انتاجي يقوم على عقلنة العملية الانتاجية، ونظرية الإدارة العلمية التايلورية– التقسيم العلمي للعمل وتوزيعه بطريقة تهدف لتوفيرالوقت البشري/الانتاجي

4 – الغاء اتفاقية بريتون وودز، فك ارتباط الدولار بالذهب في العام 1971 بعد ان استمر العمل به حوالي 30 عاما).

5 – هوبزباوم اريك، كيفية تغير العالم، حكايات عن ماركس والماركسية، ترجمة حيدر حاج اسماعيل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2015، ص، 86

6 – فازت تاتشر بشعارات "Labour Isn't Working" والخصخصة هي اعادة السلطة للشعب!.

7 –ماركس كارل، راس المال، المجلد الأول، عملية انتاج راس المال، ترجمة د.فالح عبد الجبار، دار الفارابي، 2013، ص، 541، يورد ماركس تقرير مفوضي التحقيق في العام 1868، كان

اضراب قد ادى الى اختراع لتسوية السداة مباشرة، ان قطيع المستائين الذي توهم انه لن يقهر وهو متمترس خلف التحصينات القديمة لتقسيم العمل، وجد .. ان منشأته الدفاعية فقدت جداوها ازاء التكنيك الألي الحديث، وقد اضطر اولاء للاستسلام دون قيد أو شرط.

8 –ماركس وانجلز، البيان الشيوعي، ترجمة محمود شريح، منشورات الجمل، بيروت –بغداد، لطبعة الثانية، 2017، ص 46.

9 – البيان الشيوعي، ص، 49–47، هذه العبارة عادة ما تستعمل ضد الماركسية لاستعلائها الأوروبي على الآخر.

10 – البيان الشيوعي، ص، 51،

11 – التصنيع الخالي من الهدر، Lean manufacturing)) أو التصنيع النقي /اللين، ابتكرته شركة تويوتا، هو منهج في إدارة الإنتاج بالتحسين المستمر وإزالة الشوائب، ويرتكزعلى مبدئين اثنين: الوقت الدقيق والمكننة.

12 –ماركس وفوكو، مقالات، ترجمة حسن الحاج،مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 2011، ص،128

13 – هوبزبوم اريك، م.ن. ص، 348

14 – هوبزبوم اريك، م.ن. ص، 349

15 – كريس هارمن Chris Harman صحفي، ناشط سياسي، ومنظر ماركسي بريطاني،

16 –ماركس كارل، بؤس الفلسفة،ترجمة محمد مستجير مصطفى، الفارابي–التنوير، الطبعة الرابعة، بيروت 2013 ، ص، 302

17 precariat /الوقتية أو العرضية في العمل

18 –Ref;month rev belmyen: Braverman، Monopoly Capital and the New Globalization

by John Bellamy Foster (Jan 01, 2002) Monthly Review

19 – استخدام خبراء الهنود في وادي السيليكون، بأدنى الأجور مقتصدة للكلفة Brain shopping

20 – هوبزباوم اريك، كيفية تغير العالم ، ص 41

21 – –George Pleios, Communication and Symbolic Capitalism. Re-thinking Marxist CommunicationTheory in the Light of the Information Society 2012

–لازاراتو، موريزيو، صناعة الانسان المدين.2011

– هاردت ونغري ، الأمبراطورية 2000

22 – –Imperialism, globalization and the profitability of capital – Michael Roberts Profitability and imperialism /TURBULENCE AHEAD: RENEWING CONSENSUS AMIDST GREATER VOLATILITY McKin-

sey Global Institute, September 2016 , Annual GDP growth from 2014 to 2064 is projected to effectively halve, falling to 2.1% globally and "1.9% for developed countries

23 – أغامبن جورجيو، المنبوذ السلطة السيادية والحياة العارية، ترجمة عبد العزيز العيادي، منشورات الجمل، بيروت 2017، ص16

24 – ريفكين جيرمي، نهاية العمل، 1995

25 – The statistics are alarming, with the world's 10 biggest corpora-tions having revenues that exceed the total combined revenues of the 180 least wealthy nations. The Guardian, Tue 29 May 2018, Some call this 'philanthrocapitalism', but is it just corporate hypocrisy? By Carl Rhodes and Peter Bloom

26 – باومان زيجمونت، الحداثة السائلة، م.ن.، ص، 218

27 – فاز الأمريكي ريتشارد ثالر بجائزة نوبل في الاقتصاد لعام 2017 عن إسهاماته في مجال الاقتصاد السلوكي. تنبيه أو تحفيز» الأشخاص لوضع المزيد من الخطط على المدى الطويل مثل الإدخار لمعاشات التقاعد، تأثير الجانب النفسي على القرارات الاقتصادية.

28 – ماتلار أرمان: التنوع الثقافي والعولمة، دار الفارابي، بيروت 2008، ص،131

29 – هارفي ديفيد، الليبرالية الجديدة،/عن راندي مارتن/ Financialization Of Daily Life (Labor In Crisis) October 18, 2002 موجز تاريخي 2005، ترجمة مجاب الامام، العبيكان، السعودية، الطبعة العربية، 2008، ص 59.

30 – A Transaction Cost Theory Based Perspective On Customer Ser-vice Scripts Janine Frauendorf, J¨rgen Gnoth, Patrick McCole, Uni-versity of Otago, ANZMAC 2005 Conference: Services Marketing. p,60 ,Coase 1937, See, Jacob and Guth, 2002

31 – نحت الفن توفلر في العام 1980 مصطلح prosumer المشاركة بالانتاج عبر التكنولوجيا

32 – يورد ماركس عن سيسموندي ان ما انتهت اليه التجارة بكل شيءهو التعارض بين القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية./ بؤس الفلسفة، ترجمة محمد م. مصطفى، التنوير-الفارابي،بيروت،الطبعة الرابعة، 2013، ص، 63

33 – باومان زيغمونت، الحداثة السائلة، ترجمة حجاج ابو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2016، ص، 142

34 – التميّز له ميزة الفرادة كونه عديم المعنى، أو بعبارة أدقّ، عديم المرجعية الرأسمالية الأكاديمية"الانترنت : المعرفة كسلطة، المعرفة كرأسمال – جون بايري / ترجمة: فؤاد ريان، دراسات 20/02/2017

35 – أهمها الضريبة على القيمة المضافة، وهي اصلا ضريبة على الاستهلاك، اضافة للرسوم المقتطعة من المستهلك على الخدمات واعادة تأهيلها.

36 – فاروفاكيس، في مقالة–لقاء الماركسي الضال، اصبحت المصارف تقوم بالانقلابات، وليس الجيوش.، منشور على الانترنت.

37 – اشار لينين، بعد بوخارين، لاندماج الرأسمال البنكي والرأسمال الصناعي ونشوء الطغمة المالية على أساس «الرأسمال المالي» ؛ غالبا ما تشكو الأوساط الصناعية والتجارية من «إرهاب» البنوك ، في عمله الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية. ليخلص الى ان القرن العشرين هو نقطة التحول من الرأسمالية القديمة إلى الحديثة، من سيطرة الرأسمال بوجه عام إلى سيطرة الرأسمال المالي، الذي أفضى إلى اقتسام مباشر للعالم.

38 –هارفي ديفيد، الليبرالية الجديدة، موجز تاريخي، م.ن.، ص،260

39 – Moral hazard :having an incentive to take unusual business risks.
ان تعطي اموالك لمن لا يكون مسؤولاً عنها

40 – راجع نعومي كلاين عقيدة الصدمة، صعود راسمالية الكوارث،2007، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الثانية،2009

41 – – As Peter Cohen from the Council of Community Housing Organizations explained it: “When you’re dealing with this total concentration of wealth and this absurd slosh of real–estate money, you’re not dealing with housing that’s serving a growing population. You’re dealing with housing as a real–estate commodity for speculation, The Guardian, ibid.

42 – نقلاً عن الاقتصادي بودو، العامل لدى صندوق النقد الدولي لمدة 12 عاما، واصفاً البرنامج بأنه وسيلة تعذيب جماعية، «تخضع لتأثيرها الشعوب والحكومات المتألمة، فتركع امامنا منهزمة محطمة ومذعورة تتوسل لفتةرحمة وشهامة منا. لكننا نضحك بقسوة بوجهها، ويستمر التعذيب»، ورد عند نعومي كلاين، م. س. ص،367. هكذا تم اختلاس آسيا التي تصبح سوقا «ممتعة» في ازمة 1997–1998، حيث يكون كل شيء فيها معروضاً للبيع، نتيجة التغيرات التي يفرضها الصندوق، والذي ساهم في اكبر عملية نقل للأموال من اصحابها المحليين ال الخارج في ايام السلم، ص 384–387.

43 – Lions for Lambs حكاية الراسمالية ابداً

44 – البيان الشيوعي، ص،50

45 – شومبيتر جوزف، مفكر واقتصادي امريكي بارز، خلافاً لماركس، اعتبر بأن الرأسمالية تُستهلك بسبب نجاحاتها الذاتية، وليس لأسباب اقتصادية، وبروز طبقة واسعة من المثقفين الرافضين، مما يقود، برأيه، وخلافاً لرغبته، الراسمالية باتجاه الاشتراكية.

46 – بولاني كارل، التحول الكبير، الأصول السياسية والاقتصادية لزمننا المعاصر. المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ترجمة محمد فاضل طباخ، الطبعة الأولى ص، 66

47 – مايسون بول، انهيار الاقتصاد العالمي، نهاية عصر الجشع، /عن مورغان ستانلي/شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2009، ص،214

48 – عرّف دايفيد ليون/ عالم اجتماع سكوتلندي/ الإنسان المعاصر بأنه «جسم وروح وبطاقة ائتمان»

49 – هوركهايمر وادورنو، جدلية التنوير، م.ن، ص، 157

50 – البيان الشيوعي، م.ن. ص، 52

51 – باومان، زيغمونت، ولكم في الاستهلاك حياة، ترجمة د.فاطمة نصر، القاهرة، سطور الجديدة، 2011، ص، 26


ريجينا صنيفر
ضياء في
ظلمات المشرق
من مذكرات
جولييت المير سعاده
تقديم جورج قرم

التصورات وضرب التمايز من قيمة الجسد الى الأشياء

سعيد نجدي

باحث

تختلف التصورات الجماعية حول الجمال والجسد من جماعة لأخرى ، فكل جماعة لديها مدلولاتها ومعانيها ورموزها ومعاييرها في ما يخص تصورات الجمال وتقنيات الجسد، التي تنبع من هويتها الثقافية التي تؤمن نوعاً من الدمج الداخلي بغية التمايز الخارجي والتي تبقى مفتوحة بطبيعة الحال على شتى أنواع التحويل بفعل وجود الخروم والنوافذ التي تدخل منها ، وهذا حال البنية القابلة بشكل دائم للبنينة اعتماداً على الركائز المجتمعية والنفسية والانتاجية والثقافية وغيرها ، والتي تأتي دراسة الموضوع من زاوية الأنتروبولوجيا لكي نفهم مدلولات الأشياء الجديدة بغية تفسيرها ، خصوصاً أننا في عتبة التصورات الجماعية التي تعتبر ضمن ميدان الثقافة.

أهمية التصورات أن لها طابع جماعي وحيز مكاني خاص بكل جماعة ، وتأتي هذه التصورات بما تحمله من أفكار ومعتقدات لتحكم على الفعل الذي يعطي معنى للأشياء ، فهي أشبه بالقوانين والأعراف التي تسري في مؤسسات وحقول المجتمع التي تشكل الأفراد ، لتعطي نوعاً تعاقدياً بشكل مستبطن لأنها شفهية كلامية كالعادات والتقاليد ، أي انها غير مكتوبة ، تأخذ بعض التصورات طابعاً مقدساً نظراً للإيمان بها وتصديقها ، كانت سابقاً على كما أشار جيمس جورج فريزر تضطلع بدور العلم ، لأنها قائمة على مبدأ السببية كالسحر على حد قول مارسيل موس1. بما أن التصورات تعمل على شد أواصر الجماعة ، وتؤدي الى انخراط افرادها ، فإن الخروج عن تصورات الجماعة يؤدي الى النبذ

والعزلة والقلق وعدم الشعور بالرضى ، لأنه خروج عن الكل وعن الانتماء ، والتصورات تخص كل شيء له علاقة بحياتنا المجتمعية بدءاً بالتصورات حول : المكان ، الزمان ، المسكن ، المأكل ، الزواج ، الانجاب ، العمل ، الجلوس ، المصافحة ، المرض ، الزينة ، الحلي ، ثقب الوجوه ، الشَعر ، الاسنان ، البشرة ... الخ ، انتهاء بالمقدس والحياة ما بعد الموت والمسكن الجديد (المقابر) والعالم العلوي .
اما موضوعنا فيتمحور حول الجمال والجسد بشكل خاص ، فبعد العديد من الملاحظات نجد أننا اليوم أمام تصورات حول الجمال اللافت فيها صفتها الكونية ، متجاوزة كل البنى والهويات والخصوصيات الثقافية والمجتمعية والسؤال هو هل أننا انتقلنا من الثقافة وتمايزها، إلى خلخلة بناها ، وذلك إنطلاقاً من إختفاء الكثير من مدلولاتها والتي من ضمنها التصورات حول الجمال والجسد ، وبالتالي هل أن القيمة لم تعد للثقافة وخصوصياتها بل أصبحت للأشياء كعلامات للتواصل ، خصوصا أننا اليوم ، أمام تأثير عنف الصورة ؟.
الإشكالية : صحيح أن الأشكال والعناصر التقنية والمادية أسهل في التقبل من العناصر ذات البعد الإيديولوجي أو الديني ، انطلاقاً من التقابل ، فالثقافة هي في صيرورة دائمة التشكل ، وهي قادرة على التعايش ما بين الأنماط الأصلية وأنماط النموذج الغالب أو نتيجة الاحتكاك بالاخر ، وهي ليست فقط بسبب تدمير البنية وإنما نظراً لفقدان الاتجاه يؤدي ذلك إلى تيه الأفراد ،أوالتقليد المؤجلبسبب غياب النموذج2،(وهي إستعارة اصطلاحية نأخذها من بياجيه الذي كان يقصد فيها موضوع اللغة) ، وإن كان غير ذلك أي أنه إذا كانت البنية أقوى فإن الأشكال الأكثر غرابةً أي المبتعدة عن الثقافة المُتقبلة تكون في حالة من عدم القبول ، أو أنها تعمل على إعادة تحديد للأشكال والوظائف لناحية الدلالة لكل سمة ويصار إلى دمجها لتتوافق مع وظائفها ، من هنا إلى أي حد لم نعد فيها قادرين على تحديد وظائف وأشكال ودلالات سماتنا الثقافية بحيث أننا أكثر تقبلاً لكل ما هو خارج البنية ، وهل السبب في ذلك ، تراجع النموذج الأصلي لبعض أنماط الثقافة التي تجمع، أم غير ذلك ؟ وأن السؤال الكلاسيكي ما عاد يدور حول بنية خاصة في مواجهة حرب أوتدمير ونزوح وسفر أو تجارة ...ألخ ، وبالتالي لم يعد أداةًللتفسير ، أي أننا اليوم أمام نموذج كوني وبالتالي هذا النموذج أصبح معمماً بشكل عوالمي من خلال قوة الاعلام ووسائل الاتصال .
فعلى سبيل المثال كانت التصورات تختلف من مكان لاخر حول الجمال والجسد وحجم الاعضاء وتسريحة الشعر وشكل العضلات والبطن /الكرش للرجال ، وأنواع الحلي والزينة وشكل الاسنان ، مثلا كانت تختلف المعايير ففي مكان كانت المرأة السمينة رمزاً للجمال والأنوثة ، والمرأة النحيفة كانت إشارة على الضعف أي انها لا تشكل أي نوع من الاغواء،

أو حجم الصدر والمؤخرة ، أو الرقبة أو الشفاه التي تختلف التصورات حولها من مكان لآخر ، أما اليوم فإننا أمام معايير أصبحت بشكل كبير معاييراً ذات بعد كوني ، تنطلق من نموذج أُحادي ، عمل على انتاج مخيال كوني دائم التشكل ، ونظراً لسهولة التقبل ، يصار الى تقليدٍ مؤجل من خارج البنية ، أي انه بعد غياب النموذج الخاص تبدأ الاستعارات من الخارج ، هذا البعد أصبح معمماً بمعنى أن الناس وبشكل من الاشكال أصبحت تشبه بعضها ، من خلال انتاج نسخ مشوهة ومعدلة من كل مكان وبالتالي خصوصيات الملامح تتلاشى مع هذا الشيء ، وهذا النموذج ينطلق من استعارة أساسية وهي المردود الذي يفيد، من خلال انتاج الصور والعلامات المصطنعة بحيث أن الفروقات تختفي ما بين الصورة والحقيقة التي خلف الصورة ، والاصطناع هو التظاهر بامتلاك ما لا نملك ، كما وصف بودريار، أي أن هذه السلع والأشكال ما عاد لها موطن3،وباتت أشكالها بلا معنى، بل ان التحكم لم يعد بيد الثقافة وخصوصياتها، داخل هذه الحقول ، إنما للصور المصنعة والتي لا هوية وسمة لها سوى فراغ المعنى ، و اننا امام انتاج من الخارج ، ليصار معه الى نوع من الاستهلاك الذي لا حد له ، ليمارس عبودية وتسلط وتدجين على الجسد والمخيلة . تحولت الاجساد مع هذه العملية الى أشبه بمكعبات بفعل التشكيل الدائم لها ، كأن الأجساد قطعٌ تُنحت تزال وترَكب، ليحفر هذا النموذج قانونه عليه ، وكأن اجسادنا سلع بضاعية ، من خلال ضرب لملكاتنا الذوقية وبالتالي لم يعد هناك خيارات بسبب سلطة التصنيف والحكم ، واللافت كما أشار نوربرت إلياس عن السلم المجتمعي4 ان هذه العملية أصبحت عند كل الفئات المجتمعية صعوداً ونزولاً ، يعود هذا الى التدفق الهائل للصور من خلال التقنيات الحديثة التي تعمل على الوهم المصنع ، بشكل عنيف يضرب الذات ، لأننا نصبح امام ضرب للثقة وعدم رضى دائم .

فمثلا تبدأ العملية بتكبير الشفاه التي تبدأ برضى مؤقت لكي تتحول بعدها الى عدم رضى ومن ثم تكبيرها أكثر لتصبح ربما كالبطة ، ومن ثم الانتقال الى اجزاء اخرى والعملية لا تنتهي ، لكي تعطي شعوربالارتياح وتبادل بالرغبة مع هذا الوسط الكبير، قلق دائم وسعادة مؤقتة وتأجيل متكرر من أجل مجاراة هذه التصورات الأحادية ، التي توحي بأن عدم تقليدها يعني عدم وجود جمال وبأنني غير مرغوب ، وكأنها الطقوس الوحيدة للعبور الى الجمال ، أو على سبيل المثال الشبان الذين يعملون على بناء جسم فولاذي ، يبدأ الشاب برغبة بناء عضلاته وتقطيعها ولكن سرعان ما تجمح رغبته شيئاً فشيئاً ، حتى وإن كان من ذوي الدخل المحدود لكنه ينفق أموالاً طائلة ، ليتحول كل اهتمامه ووعيه حول هذا الشيء (استهلاك مفرط)، يعود ذلك الى الرغبة التي تتوسع وتتمدد لكي يستهلك هذه الحبوب والحقن

وغيرها من مواد بغض النظر عن الاثار التي تترك على صحته التي تؤدي في أحيان عديدة إلى الموت، مشكلاً انطباع بأنه إن لم يكن على هذا الشكل الذي لا ينتهي فإنه لن يكون جميلاً فيقع عندها بالهوس المرضي ، أو صورة البطل الفولاذي لناحية الشكل الذي لا إشباع فيه أي أنه لن يكون هناك رضى . نرى أن استحواذ هذا النموذج على الكبار والصغار وعلى جميع الفئات والانماط المتدينة والمحافظة وغير المتدينة نقول هذا من باب التدليل على قوة هذا النموذج ، ليعطي انطباعاً أن الخارج عنه ، أي الذي لا يقلده هو شخص غير مرغوب . وقوته أيضاً في عبور كل الحدود الجغرافية ، والثقافية .

الإشكالية ليست بالتجميل بحد ذاته ، فليس الموضوع هو في الحكم المعياري ، إنما في توصيف هذه الأشكال وفهم التحولات في البنى لناحية التصورات التي أصبحت معممة والتي دخل الأفراد معها بحالة من اللارضى نلاحظها بشكل كبير إلى حد التشويه في أحيان كثيرة ، من خلال اللعب على الرغبة المصنعة الذي لعب السوق الرأسمالي الإستهلاكي عليها، والذي يجعلنا أحرار على أي منوال نريد أن نكون في سوق العبيد الذي يدمغ أجسادنا بعلاماته التجارية ، لهذا فإن سمات هذا الشيء تبرز في موضوع تقنيات الجسد واستخدامه واستعراضه ، والدلالات التي طرأت عليها التحولات لأن الجسد وما يحمله من تقنيات ورموز ، يكشف من خلالها ثقافة ما وخبرات رمزية5 ، لذلك فالملاحظ هو التحول في هذه التقنيات ، أي ان هذه العمليات فرضت معها تقنيات جديدة في استعمالها للجسد، على سبيل المثال كانت كل ثقافة لها تقنياتها في استعمال الجسد ، لناحية المشي، أو الجلوس، أو المصافحة ، والكلام ، إزالةالشعر منأجساد الرجال ... إلخ . أدت هذه العمليات إلى إختفاء الكثير من هذه التقنيات وخصوصياتها ، مثلاً شد الوجه تفرض نوعاً بتغير طريقة الكلام ، أو حنك الوجه الذي سوف يؤدي الى تعديل في نبرة الصوت حسب نوع العملية، مثلاً عمليات ترميم الجسد والعظام ، سوف تؤدي إلى تحول في طريقة المشي وكذلك الجلوس ، ولا ننسى الفم والأسنان تحول في الهيئة ، وأشياء كثيرة ليس باستطاعتنا أن نتكلم عنها كلها . كان مارسيل موس يقول ، من طريقة الجلوس كنت أعرف إن كان هذا الشخص انجليزياً أو فرنسياً ، أما الأن ومع التربية المضخمة للأبدان ، أو العمليات التجميلية الكبيرة للوجه والجسد ، التي تفرض نوعاً من تحويل طريقة الجلوس والمشي ، أصبح من الصعب معرفة هويات الأشخاص من خلال تغير الملامح ، لأنها حكماً تؤدي إلى تبدل في تقنيات الجسد .

مع هذه العمليات أصبح من الصعب على سبيل المثال معرفة إن كان هذا الشخص عربياً أو غير ذلك ، فعمليات الوجه التي تؤدي الى تغير كبير في الشكل وحتى تركيبته وتركيبة الحنك

والذقن التي تختفي معها الملامح والخصوصيات الجميلة والهيئات المتعددة للثقافات . الوشم على سبيل المثال ، كانت كل رسمة وطريقة وشكل ، له أبعاد رمزية يحدد من خلالها الانتساب الى مرموز معين ، إن كان انتساب الى مكان أو جماعة ، أو قبيلة ، أو فئة ، أو إلى طوطم ، أو هوية دينية معينة ، وأيضاً لناحية مكان الوشم في الوجه ، حتى الشطبات وعددها ومكانها ، كانت أيضاً ترمز إلى قبيلة ما ، أما الأن فنحن أمام رسوم للوشم وثقب الوجه أو اللسان أو الأنف ، لا هوية رمزية لها مدلول خاص لأن الكل أصبح يشبه بعضه البعض ،وبالتالي فإنها رسوم معولمة ، وهي متشابهة في كل أصقاع الأرض سماتها التقليد بترميز علامات مرتبطة بالسوق الرأسمالية ، مثلاً في افريقيا من خلال هذه الأشياء ، التي كانت تسمح بمعرفة التمييز لناحية الجماعات والقبائل ، وإن كانوا من نفس البشرة إلا أن التمايز كان يظهرمن خلال هذه الرموز حتى لون البشرة أصبح بالمقدور تغييره وشكل العيون وشرحتها وشكلها ، وحتى عربياً كنا نرى الجدات الكبار لا تخلو أيديهن من وشم وطريقة معينة كل واحدة لها دلالات خاصةإنما كانت ترتبط هذه الرسوم أو الحناء بالوسط الثقافي الخاص . وفي هذا السياق فإن تقنيات معينة في اللباس والزينة والحلي أي كل ما يخص الجسد ، قبل عمليات التجميل كانت تظهر التمايز ، من الناحية الثقافية ، وداخل كل ثقافة أيضاً هناك تمايز لناحية المكانة نوع القماش أو التطريزة للطربوش ونوع الكوفية والشروال مثلاً، أما الأن مع هذه العمليات التي أدت إلى تراجع التمايز لناحية كل رمزية وما يتعلق حولها من تصورات ، أصبحنا في عالم يشبه بعضه ، أمام إنتصار وهيمنة نموذج أحادي .

يعود هذا إلى عدة أسباب ، أحدهم من أجل الزواج ، لكي يبدو أنه مقبول وبأنه إنسان يجاري روح العصر ، وفئة من أجل مجاراة الموضة وسحرها ، وأحدهم من أجل التباهي لكي يعوض الأشياء التي يفتقدها ربما لكي يشعر بالرضى وأنه موجود بعد عمليات تهميش ورفض له ، فيلجأ الى عملية التمازج والمماهاة ، وهذا احتمال، وأحدهم من أجل الشهرة ، في ميدان الأعلام والأستعراض الفني السلعي ، ولكن هذا يعود إلى فقدان النموذج الخاص للثقافة وعدم قوتها أمام هذه الأشكال ، أو عدم ثقة الجماعة والأفراد بما يحملونه من نموذج نظراً لما مرَ عليهم من عدم قدرة على المواجهة والهزائم المتكررة في شتى الصعد ، لأننا نرى هذا التقليد حتى في ميدان الأكاديميا والسياسة وباقي الحقول ، لأن هذه العمليات التجميلية متاحة بشكل واسع لكل الفئات والطبقات ، وسعرها أصبح مقبولاً للغاية ، مثل الفاست فود ، والجينز ، ... الخ .

اللافت إذاًأن هذه الأشكال ما عادت تخص فئة أو ميدان ، لأن قوتها في تخطي كل الحقول

والميادين ، فعلى سبيل المثال ، سابقاً كان لكل ميدان خصوصياته لكي يعطي لنفسه تمايزاً عن الأخرين باتباع أنماط وسلوكيات وبراديغمات محددة ، كوجود براديغم للفنان، أو الكاتب والعالم والاكاديمي والمثقف ، أو براديغم للأطباء ، لناحية طريقة تصفيف الشعر واللباس ونوع الذقن والقبعة والنظارات ، حتى أننا نلاحظ اليوم أكثر من ذلك في المؤسسات الدينية و إن رجالاً من الذين يدرسون العلوم الدينية قد دخلوا بهذا الوعي الكوني لناحية اللباس وتصفيف الشعر وشد الوجه وغيرها من أمور ، بالطبع من دون أن نشمل طريقة التفكير والأسباب ، ولكن ما نود أن نشير إليه هو التقنيات الموحدة التي أصبحت لرجل الدين و العلم والمراهق ، والفنان والاعلامي الذي يحب الشهرة والشاعر الإلهي مثلاً والسياسي والطبيب والمزارع وابن الريف مع ابن المدينة ، ابن الاحياء الفقيرة مع النخبة الحاكمة والطبقة البرجوازية على اختلاف نمط رأسمالها ، مثلاً النظارات كانت تعطي إنطباع معين نتكهن من خلالها نمط هذا الشخص أما الأن يصار إلى عملية ليزر ... الخ . و من ناحية اتباع تقنيات تجميل الجسد ، أي الدخول بهذا الوعي الكوني نرى، لتفادي الشعور بالنقص، على سبيل المثال أن هذه التقنيات وحدت الهويات و الطوائف في لبنان الى حد كبير والسبب هو وجود هذه السمات (وهذه من الأمور الأشبه بدعابة ، بسبب عدم توحدهم على شيء ، إلا في ما يخص هذه التقنيات ، أي أنه كان من السهل معرفة ديانة الشخص في حدود معينة ، أما الأن من الصعب معرفة هويته الدينية وهي على درجات ونسب ، نجدها مثلاً أقوى عند طائفة الموحدين الدروز من خلال اللباس والقبعة)، أيضاً نرى مثلاً فتاة تلبس الشادور وشفاهها خاضعة لعملية تكبير ظاهرة بقوة كأي فنانة استعراضية ، من دون أن يشكل هذا أي تعارض ما بين نموذجها الارشادي الداخلي وما تؤمن به من نمط تدين حتى وإن كان أصولياً، لأنه هناك أنماط عدة للتدين ، مع التقنيات التي تستخدمها في جسدها ، لا نتكلم هذا من أجل حكم ما ، وإنما لكي نشير الى إزالة الفروقات بين كل الأنماط إلى حد كبير .

ومن السمات البارزة أيضاً ، أن هذه التقنيات لا تخص فئة عمرية محددة ، فكما أن المراهقين يخضعون إلى كافة أنواع العمليات بدءاً بعمليات الأنف والشفاه وصولاً إلى عمليات التكبير في الأعضاء ، كذلك الكبار من الفئات الأخرى ، في العقد السادس وحتى السابع من العمر، وهذا يأخذنا إلى نوع من تشيؤ للزمن والعمر، والإيحاء بالتحكم والقدرة على العودة إلى الوراء وإعادة التشكيل ، بمعنى جعل الرجل أو المرأة الكبار بالسن أكثر شباباً وجمالاً من بعض المراهقين ،(لدرجة عدم معرفتهم)، وأنهم مرغوبين ، لناحية الشكل والصورة، وهذا الشيء أدخل الكثير بنوع من محو للذاكرة والزمن الماضي ، من خلال محو

أثآره على الجسد كالتجاعيد والشد ، لدرجة أن البعض يعمد إلى تمزيق صوره السابقة قبل العمليات ، وهذا يأخذنا أيضاً إلى نوع من محو للهويات الذاتية حتى ، ورفض وتقبل الأمور الطبيعية نتيجة تقدم العمر، أي أنه لم يعد راضٍ عن نفسه.
سمة أخرى في غاية الأهمية ، وهي عدم معرفة الأشخاص من خلال الملامح ، فمثلاً كان التنوع يظهر من خلال سمات الملامح للوجه للمرأة وللرجل ، من البشرة والأنف وحتى شكل الوجه بصفة عامة ، فكان من الممكن جداً ، قدرة التمييز بين المصري أو الشامي، أو الخليجي إلى حد ما ، ولكن مع دخول هذه الموضة أي عمليات التجميل أصبحنا أمام عدم القدرة على تحديد هذه الفروقات ما بين الجنسيات والخصوصيات ، لأن هذه التقنيات أخفت الملامح ، والانتساب والنسبيَة بين الجماعات ، حتى لدرجة أنه من الممكن أن لا نعود معرفة الأشخاص من عيونهم إن كانوا من جنوب شرق آسيا ، طالما أن هذه العمليات قادرة على اللعب بشكل العيون وتشكيلها ، لدرجة أصبحت قوى عالمية مقلدة ومنافسة لهذا النموذج اللانساني ، وبالتالي لم تقدم نموذج مختلف عن هذا النموذج الرأسمالي الوحشي القائم على التقليد والاستنساخ السلعي ، كالصين مثلاً ، وهو ما يأخذنا إلى أن التقدم ما عاد بمواجهة نموذج بأخر ، إنما بمجاراة هذا النموذج والعمل على منواله واستعاراته .
الثقافات تقترض ، هذا أمر طبيعي ، ولكن الأمر أصبح بعدم قدرة التحكم للثقافات ، أي أننا لسنا أمام ثقافة تقترض من ثقافة أخرى ، إنما أمام ثقافات كلها تقترض من نموذج أحادي لا مدلول له سوى الربح أي ما يفيد ، وسمته الترويج الاعلامي واللعب على إصطناع الصور اللاحقيقية ، بمعنى عدم وجود هوية لها ، وأننا بشكل أو بأخر ما عدنا نمتلك ثقافة لها سماتها المميزة ، بل إننا نقوم بتدمير البنى بأيدينا ، ولم يعد الموضوع بحاجة إلى الآت العسكر ولا إلى الحروب المباشرة ، لأن التحكم غير مرئي ولا مكان له ، وأكثر من ذلك سمة هذا النموذج أننا نحن من يزحف نحوه من دون إرادة ، أي أنه حولنا لنكون نحن أدوات التدمير الذاتي .
في هذا السياق تحولت القيمة من الثقافة وتصوراتها كالجسد الى البضاعة التي تسكن الجسد ، لأنها العلامة التي نتبادل بها مع الاخرين ، تعيش معنا وفينا وتتنقل بنا ، لان التعامل تحول مع هذه الاشياء ، لانها أداة التواصل التي أصبحت تشكل المهماز، فالعلاقة انتقلت لتتحول الى علاقة مع هذه الاشياء والمواد (السليكون مثلاً) ، والانتماء صار لتلك الاشياء ، الأشبه بقطع التبديل والغيار ، وهذه الاشياء هي التي أفضت للعبور بين المادة والجسم (ترميم ، تجميل ، زرع أعضاء ، تعديل بالاعضاء ، تكبير العضلات ، ثقب الاذن أو الشفتين ، تكبير الاعضاء وحشوها ... الخ) ، أدت هذه العملية الى شخصنة الاشياء ، من

خلال التعديلات الدائمة كدلالات التقديس ، أي الوهم في أنه إن لم أكن على هذا المنوال فإنني لن أعجب الناس ولن يلتفت إلي أحد ، وعندها فأننا مضطرون للدخول في هذا السوق السلعي للترويج ، تحولت هذه الاشياء الى مصنعاً من العلامات الكثيفة ، التي تؤدي الى تحول الكيانات الذاتية وإعادة تدويرها من خلال هذه الاشياء عبر الجسد ، وبالتالي لكي أشعر أنني جميل ومقبول وأرضي ذاتي لا بد من الدخول في هذا التبادل السلعي ، وفي سيادة هذا النموذج وأحادية تصوراته ، على حساب التصورات الاخرى لدرجة الهوس ، وهنا الخضوع للمصطنع الذي حلت فيه النسخ مكان الاصل ، أي أن الناس بحد ذاتهم أصبحوا علامات لهذا الشيء المصطنع وبالتالي تبدلت الأصالة والقيمة من الناس الى الأشياء ، لدرجة أننا بدأنا نعجب بالمختلف أي الطبيعي صاحب /ة الانف الكبيرة وغيرها من الاشياء الغير معدلة الذين لم يخضعوا لأي عملية وترميم ، نظراً إلى أنهم ربما سوف يصبحون نادرين ، أي المتفلتون من طغيان هذا النموذج الرأسمالي السلعي ، او ربما يصبحون هم المنبوذون والمستبعدون وهذا أحتمال ربما يزيد مع الوقت .

يعود هذا الى الانتاج الدائم للرغبات المصنعة ، والتي حولت الناس الى الآت للإستهلاك والانفاق ، نظراً لأشكال الرقابة الجديدة التي تلغي أشكال الفردية عن طريق السيطرة الكاملة ، وبالتالي فإن تحقيق الحرية في الإنسان ذو البعد الواحد (أي هذا الوعي الكوني، لكل الطبقات ، العمال وأصحاب الرأسمال، على السواء) كما تنبه له هربرت ماركوز6، منوط بتقنيات ذلك التمكن الذي زيف حاجات الإنسان ، والذي وهم الانسان بأنه حر لمجرد أنه يستطيع أن يختار بين تشكيلة كبيرة من البضائع ، أي التوهم بالحرية لمجرد أن منحت له حرية اختيار سادته ، بمعنى اخر أي القدرة على حرية كيفية اختيار عمليات التشويه للوعي قبل الجسد ، بخلق صور وعلامات الجمال التجارية ، واستهلاك هذه البضائع وحفرها على الجسد لتصبح هذه الاشياء هي المعنى المتبدل والاصل ، لأنها الأداة والمهماز الذي نتبادل معه والرموز التي تتمتع بالقوة .

أن القوة ما عادت للناس ، ولا للثقافات المتعددة ، إنما للأشياء المحفورة على الناس .

الإشكالية لم تعد حول من يحدد معايير الجمال ، إنما مقاومة طغيان هذا النموذج الذي يفرض بقوة معياره الأُحادي ، ويعمل على تحديد معايير استهلاكية للجمال وفرضها بقوة من خلال التقنيات الهائلة التي لعبت على تحوير الوعي بشكل هائل ، والخارج من هذا الوعي يتلقى عنفاً رمزياً بسبب التعسف القوي ، فيضطر الكثيرون الى تغيير أسنانهم ولون عيونهم وربما لاحقا الى تبديل جلودهم ولون بشرتهم وكل هيكلهم ، لتصبح العلاقة ليست مع الاشخاص إنما مع الاشياء .

يتطلب هذا نوعاً من أنسنة الجسد ، ومحبته بمعنى محبة الزمن فيه والذكريات وتقبلها والإعتراف بالخصوصيات التي فيه ، أي عدم محو للذاكرة والهوية ومحو أثارها من الجسد، وعدم إخضاع الجسد للعنف والتشيؤ ولسلطة التصنيف ، وعدم الإنجرار نحو التشكيل والتركيب المستمر ، فإن الثقافة و الزمن وإن تم إخفائهما بشكل مادي ، إلا انهما يبقيان بشكل محفور جوانياً ، لأن الثقافة تبقى تشكل نوعاً من الأزمة على صعيد الهوية والذات ، لأن رفضها يعني الدخول بأزمة الرضى المؤجل باستمرار . وأنسنة الجسد والجمال بصورة أوسع ، يعني عدم تحويله إلى أشياء يتم التواصل على أساس هذه الأشياء ، أي عدم انتقال القيمة من الجسد إلى الأشياء ، التي لم تعد تشير إلى مدلول خاص ، له وضعيته ونسقه، لأن القيمة تحولت إلى العلامة والتي قيمتها المردود ، المرتبط بالانتاج وما نحن سوى أدواة للإستهلاك ، نتلقى هذه الكثافة في العلامات والصور ، والأهم فقدان الحرية بأسم الحرية وهنا الوهم .

وبالرجوع إلى الموضوع ، التصورات الثقافية وخصوصياتها ، فقد كانت الجماعات هي التي تنتج تصوراتها وسماتها وفقاً للدلالات ووظيفتها لناحية المصلحة للنسق ككل ، أما راهناً، فإن هذه الثقافة الكونية المصنعة هي التي أصبحت تشكل خياراتنا ، وذلك نظراً إلى الخوف من العنف الرمزي الذي سوف نتلقاه ، لا نريد أن نبالغ ، فالثقافة عميقة بشكل لا واع ، لأننا مهما حاولنا تحويل ما نملك ، الا أنها تبرز سماتها بشكل لا واع ، تتمظهر بين الفينة والأخرى لأنها في إعادة بناء دائم ، وهي دائماً تحيلنا اليها من خلال أدواتها العديدة ، فمهما برز الاختلاف ، الا أن الثقافة الخاصة تبقى توحد ، خصوصاً إن كان هناك من إعادة بناء ، لانها ديناميكية7 ، تبنى باستمرار ، وهنا نكون أمام بنينة روجيه باستيد الذي عارض بنيوية كلود ليفي ستروس الجامدة ، لكن الأهم هو الوعي بمركزيتنا، كي لا ننتفي أمام تلك المركزية الأشبه بالغول ، التي توحي بالحرية للثقافات الأخرى لكن ضمن مركزيتها ، الذي يعتمد على الشكل الذي لا مضمون له سوى الفراغ من دون أصالة، وذلك لأنه غير أصيل وهجين ، والذي يحاول إخفاء الخصوصيات ومدلولاتها من أجل سيادته الربحية ، إلا أن الثقافة وخصوصياتها أعمق وأغنى وأجمل لأنها بكل بساطة قائمة على التنوع الخلاق للإنسان .

من هنا ليس المطلوب أن يكون عمل الباحث دعوة للعودة إلى الأصول بمعنى الرجوع إلى الطربوش أو الشروال والعزوف عن بعض التجميل الغير مضر ، فموضوع التقابل الثقافي شيء طبيعي لا توجد ثقافة صافية ، إنما الملاحظ في الموضوع هو أن الثقافة تأخذ وتعيد بناء ما تأخذه ليتوافق مع دلالاتها ، وهنا المفارقة هي في ضعف الكثير من الثقافات أمام

هذا النموذج ، والتماهي الكلي في تقليده ، لهذا علينا قدر الإمكان تظهير وجودنا وفرادته وخصوصيته ، بتأكيد لغتنا على الأقل ، وإلا سوف نتحول إلى سؤال من نحن ، هل مجرد الآت وسلع بضاعية ، أم ما زال لنا حضور .

لائحة بأسماء المراجع

1_ موس ، مارسيل ، خطوط أولية لنظرية عامة في السحر ، رسالة أعدت لنيل شهادة الدبلوم ، ترجمة وتقديم ، جهينة البتلوني ، إشراف ، حسن قبيسي ، الجامعة اللبنانية ، 2000 _2001م ، صفحة ، 86 .

2_ بياجيه ، جان ، الإبستمولوجيا التكوينية ، راجعه وقدم له ، محمد علي أبو ريان ، ترجمة وتقديم وتعليق ، السيد نفادي ، دار التكوين ، دمشق ، الطبعة الأولى ، 2004 م، صفحة ، 73.

3_ بودريار ، جان ، المصطنع والاصطناع ، ترجمة ، جوزيف عبدالله ، مراجعة ، سعود المولى ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 2008 م ، صفحة ، 165 .

4_ تولرا ، فيليب لابورت ، فارنييه ، جان بيار ، إثنولوجيا أنتروبولوجيا ، ترجمة ، مصباح الصمد ، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 2004 م ، صفحة ، 360 .

5_ موس ، مارسيل ، تقنيات الجسد ، منشورة في الملفات البحثية قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية مؤمنون بلا حدود ، تراث الأنثروبولوجيا الفرنسية في تقدير الممارسة الفكرية لمارسيل موس ، ترجمة ، حسن احجيج ، تنسيق وتقديم ، يونس الوكيلي ، 2016 ، صفحة، 174 .

6_ ماركوز ، هربارت ، الإنسان ذو البعد الواحد ، ترجمة ، جورج طرابيشي ، دار الآداب للنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، 2004 م ، صفحة ، 37 .

7_ كوش ، دنيس ، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، ترجمة ، منير السعيداني ، مراجعة ، الطاهر لبيب ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 2007 م، صفحة ، 112 .

المرأة في الجزيرة العربية قبل الإسلام: تعددية التقاليد القبلية ومنظومة المتعة

ريتا فرج

باحثة في علم اجتماع الإسلام ودراسات المرأة

تحتاج دراسة حقبة ما قبل الإسلام (Pre-Islamic) في شبه الجزيرة العربية، إلى تحرّي الدقة العلمية عند الكتابة عنها، فغالباً مايُنظر إلى هذه المرحلة التاريخية، بحذر منهجي من قبل المؤرخين والدارسين في العلوم الإنسانية، نظراً لقلة المصادر الموثوقة عنها في المكتبة العربية[1]، مقارنة بالمدونة الإسلاميةالضخمة.

شغل المجتمع وعاداته وتقاليده في شبه الجزيرة العربية، اهتمام الباحثين وعلماء الاجتماع. وإذا عدنا إلى أحوال المرأة في هذه المنطقة، لا سيما في مكة والحجاز،قبل الإسلام لوجدنا أنفسنا أمام مفارقة . ثمة وجهان، الأول،يؤكد فاعلية النساء وحضورهن في الفضاء العام، والثاني يُحيلهن على مجال المتعة الجنسية والنظام البطريركي،علماً أن بعض القبائل عرف النظام الأمومي خصوصاً في اليمن السعيد.

تحاول هذه الدراسة الإضاءة على العادات والأنظمة القبلية السائدة في شبه الجزيرة العربية، خصوصاً في الحجاز ومكة، قبل ظهور الإسلام، وتركز على البعد الجندري فيها، فتتناوله من زوايا عدة من بينها: التشبيب، أنواع الأنكحة، تعدد الزوجات، الإرث، زعامة القبيلة، الوأد، الخفاض، والحجاب.

أولاً: الاختلاط، الحرية الجنسية، والإرث

يمثل **التشبيب** بالنساء، أحد مفاصل علاقة رجل الصحراء بـ «أنثاه»، وما إن تبدأ غريزته الجنسية حتى يشعر بالحاجة إلى البحث عن الآخر الأنثوي. «إن التشبيب بالنساء وملاحقتهن، كان من إمارات الرجولة عند الجاهليين»[2] وإفشاء الغرام والصراحة

في الحب لم يكونا من المحظورات عند عدد من القبائل، فها هو أمرؤ القيس (ت 540م) يبدي «**شغفه بابنة عمه عنيزة بنت شرحبيل فيلاحقها، ويتسلل إلى مقدمة هودجها، ويُدخل رأسه في الهودج يقبلها ويحادثها**»[3]، وعلى هذا دوّن معلقته التي غدت من أشهر قصائد الحب في «الجاهلية». ومن أهم ما قيل في شعر الحب، قصيدة النابغة الذبياني، في المتجردة زوجة النعمان التي وصف فيها جسدها بأدق التفاصيل:

نَظَرَتْ بِمُقْلَةِ شادِنٍ مُتَرَبِّبٍ/ أحوى،أحمّ المقلتينِ، مقلدِ
والنظم في سلكٍ يزينُ نحرها/ ذهبٌت وقَّدُ، كالشّهابِ المُوقَدِ
صَفراءُ كالسِّيرَاءِ،أكْمِلَ خَلقُها/ كالغُصنِ، فيغُلَوائِهِ،المتأوِّدِ
والبَطنُ ذوعُكَنٍ،لطيفٌ طَيّهُ/ والإتْب تَنْفُجُهُب ثَدْيٍ مُقْعَدِ
محطُوطَة المتنَينِ، غيرُ مُفاضَة/ ريّاالرّوادِفِ،بَضّةالمتَجرَّدِ
قامتْ تراءى بينَ سجفيْكلة/ كالشّمسِ يومَ طُلُوعِها بالأسعُدِ
أوْدُرّة صَدَفِيّة غوّاصُها/ بهجٌ متى يرها يهلّ ويسجدِ
أودُميَةٍ مِنْمَرْمَرٍ، مرفوعةٍ/ بنيت بآجرٍ، تشادُ، وقرمدِ
سَقَطَ النّصيفُ، ولم تُرِدْ إسقاطَهُ/فتناولتهُ،واتقتنا باليدِ

من القصائد الوصفية في النساء قصيدة «اليتيمة» التي ادعاها جمهور كبير من الشعراء في دعد. فقد كان لأمير من أمراء «الجاهلية»[4]، ابنة اسمها دعد، أعلنت أنها لا تتزوج إلاّ بمن يصفها أحسن وصف، فتوافد الشعراء على دارها من كل حدب، يأتونها بكل شعر ثمين، فلم يرق لها غير قصيدة، لما أتى منشدها على آخرها، أقبلت على قومها قائلة لهم: «اقتلوا قاتل بعلي» قالوا لها: «كيف علمتي ذلك» قالت: «إني رأيت الرجل ينتسب لكندة، وليس في لهجته ما يدل على أنه منها، فعلمت أنه قتل قائلها، وانتحلها لنفسه». فاستجوبوا الرجل فأقر بفعلته، فقتلوه، فسميت القصيدة «اليتيمة»[5].

على الرغم من أن «الشعر الجاهلي» تطرق في جزء منه إلى صفات المرأة والرغبة الجنسية فيها، لكنه ارتبط بالتقاليد الاجتماعية الضابطة للعلاقات بين الجنسين، والأمثلة على ذلك كثيرة، فالتشبيب بالفتاة العذراء إلى حد ما كان مسموح به، أما التغزل بالمتزوجات فـ «مهلكة». وقصة تشبيب النابغة الذبياني بالمتجردة زوجة النعمان بن المنذر، وتهديد الملك له بالقتل معروفة، بل إن النظر بسوء إلى البنات والنساء، حتى لو كان ذلك ضمن مجتمع، وفي بيوتهن، كان يعد منافياً لآداب السلوك العامة.[6]

في شعر الجاهلي مساحة رحبة « تتعلق بحب الرجل للمرأة، وليس العكس، ذلك أن من طبع الرجل التباهي والتفاخر بحبه للنساء. أما المرأة فإن طبعها الخجل الذي يمنعها من

إظهار حبها وتعلقها برجل ما، ثم أن المجتمع لا يسمح لها بذلك، ويعد ذلك نوعاً من الخروج على الآداب العامة، وجلب العار إلى البيت والأسرة».[7]

سمُح بالاختلاط بين النساء والرجال في الفضاء العام واختلف ذلك بين الحضر والبادية»ولم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب، ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الفتلة ولا لحظة الخلسة، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة، ويزدوجوا في المناسمة[8] والمثافنة[9]، ويسمى المولع بذلك من الرجال بالزير، المشتق من الزيارة، وكل ذلك بأعين الأولياء وحضور الأزواج، فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء، ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عاراً في الجاهلية».[10]

عرفت المرأة قبل الإسلام بـ «الكيد»[11]، ونظروا إليها نظرتهم للشيطان[12] ولعل هذه النظرة تخفي معطيات أسطورية، فهي قوية وضعيفة في آن؛ قوية بسحرها الأنثوي/ الجنسي، ضعيفة بعين التقليد الذكوري القبلي الذي يهابها فيجعلها بمرتبة الشيطان، فثمة **تلازم بين المقدس والأنثوي**. هذه النظرة «لم تكن خاصة بالجاهليين، بل هي نظرة عامة نجدها عند غيرهم أيضاً. بل هي وجهة نظر الرجل بالنسبة للمرأة في كل العالم في ذلك الوقت. وهي نظرة نجدها عند الحضر بدرجة خاصة، لما لمحيط الحضر من خصائص التجمع والتكتل، والتصاق البيوت بعضها ببعض، ولما له من حياة اجتماعية واقتصادية وسياسية، قد تجبر المرأة على الاتصال بالغرباء، فنشأ من ثم هذا الرأي من أهل الحضر أكثر من الأعراب».[13]

ساد عند العرب قبل الإسلام أنواع عدة من الأنكحة مثل: نكاح البعولة، نكاح الضيزن، نكاح الخدن، نكاح المتعة، نكاح البدل، نكاح الشغار، نكاح الاستبضاع، نكاح الرهط، نكاح صواحبات الرايات.

1. **نكاح البعولة** هو ذاك الزواج القائم على الخطبة، والمهر، وموافقة الأهل ومشاركتهم، والقبول بين الزوجين. أما نكاح الضيزن، سمي كذلك بـ «نكاح المقت»، وهو نكاح الابن لزوجة أبيه بعد وفاة والده. فالمرأة كأي متاع يملكه الرجل، يعود إلى أولاده الذكور من بعده وللابن الأكبر كحق أول. وإذا لم يكن له أولاد فهي، من إرث أقرب النساء إليه، كأخيه أو ابن أخيه، أو عمه. في الجاهلية لم يكن الوارث للمرأة ملزماً على نكاحها، وإنما إن شاء فعل، وإن لم يشأ عضلها، فمنعها عن غيره، ولم يزوجها حتى تموت. فالضيزن هو من يخلف أباه على امرأته إذا ما طلقها أو مات عنها. وقد أطلق على الولد المولود من هذا الزواج بالمقيت. وكان من عادات أهل يثرب أن يلقي ابن الرجل المتوفى

على زوجة أبيه ثوبه ليثبت ملكيته لها. وعندما يقوم الوارث بنكاح امرأة المتوفى فإنه لا يدفع لها مهراً وإنما ينكحها بمهر مورثه، أو ينكحها ويأخذ مهرها، ولكن إذا سبقت المرأة وذهبت إلى أهلها فهي أحق بنفسها».[14]

2. **نكاح المتعة**، هو نكاح موقت، وهو زواج لأجل معلوم كسنة مثلاً؛ وسمي كذلك لأنه لمجرد التمتع، وإذا ما انتهى الأمد المحدد تمت الفرقة بين الرجل والمرأة المتعاقدين. وكان يرافق هذا الزواج اتفاق اقتصادي تكون المستفيدة منه المرأة. ومن الأسباب التي دفعت إلى وجود هذا نوع من الأنكحة عند «الجاهليين»، تنقل الرجل بين العديد من المدن، بسبب عمله في التجارة. وكانت المرأة إذا ما رُزقت ولداًمن مثل هذاالنكاح فإن هاتنسبه إليها لارتحال الأب المتواصل. وللمرأة في نكاح المتعة صداق كما هو عليه الحال في نكاح البعولة.[15]

3. **نكاح البدل**،في هذا النكاح يتم تبادل الزوجتين بينالرجلين، فيقول أحدهما للآخر «انزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي، وأزيدك». وفي حال نكاح البدل يكون الزواج دون مهر لأنه تمّ مبادلةً. وقد تتم المبادلة بالبنات، أي أنيت زوجك لواحد ابنة الآخر، وهذاالزواج كان يدعى عند عرب الجاهلية «زواج الشغار». ويرتبط هذا النوع من الأنكحة بسوء الوضع الاقتصادي الذي لا يمكّن أحدالرجلين من الحصول على المهر.[16]

4. **نكاح الاستبضاع**، وهو أن يرسل الرجل زوجته بعد طهرها من طمثها إلى رجل آخر عرف عنه النجابة والشجاعة والسؤدد،كي تستبضع[17] منه أي كي تحمل منه، وعندما تعود يعتزلها زوجها ولا يصيبها حتى يتبين حملها. وسبب هذا النوع من النكاح، رغبة الرجل في ولد نجيب تكون له الصفات التي يتمتع بها السيد.[18]

5. **نكاح الرهط**، وهو تقاسم رهط من الرجال قد يصل عددهم إلى العشرة،امرأة واحدة، برضا منها، فإذاما حملت ووضعت أرسلت إليهم، فيجتمعون كلهم دون أن يستطيع عأحدهم التخلف، وتخبرهم بولادتها، وتنسبابنها إلى من تحب منهم. فيلحقبه ولدها إذاكا نالمولود ذكراً أما إذا كان المولودأنثى،فإنها لاتفعل لك رههم للبنت أولاً،ولخوفها ثانياً من العمل على وأدها.[19]

6. **نكاح صواحبات الرايات**،هنّ من البغايا،وكنّ في معظم الأحوال إماءًا متهن البغاء[20]، وكان يدخل على المرأة البغي الكثير من الرجال مقابل أجر، ولم تكن الأجور ثابتة، بل تتوقف على التراضي، وقد تكون نقداً أو متاعاً. وإذا ما حملت صاحبة الرايات ووضعت، جمعوا لها القافة، والحقوا ولدها بالذين يرون فيستلحقه به. وكانت صواحبات الرايات تنصبن على أبوابهن رايات حمراً تعريفاً بهن، فمن أرادهن دخل عليهن[21]. هذا

النوع من النكاح لم يكن ليعيب الرجل، بل قد يتبجح به ويعتبره من أمارات الرجولة.
7. **زواج الخدن**، أوالمخادنة؛ وذوات الأخدان، هن اللائ يحبسن أنفسهن علىرجل سراً. ويمكن أن تكون ذات الخدن حرة،او متزوجة،أو أرملة،أو مطلقة. وق يعاقب الرجل «الزاني» بغرامة مالية أي يفتدي نفسه بالمال، وقد يقوم الزوج بقتل الزاني والزانية لأنهما أهانا شرفه،ويظهرأن عرب الحجاز قدتأثرواب اليهود الذين كانوا يعاقبون الزاني والزانية بالرجم حتىالموت. وبعضهم كان يقوم برجم المرأة فقط،أما لدى عرب الجنوب فلم ترد في نصوص إشارة إلى عقوبة الزاني بحرة.[22]

يكشف تعدد أنواع الأنكحة عن تنوع اقتصاد المتعة في مرحلة قبل الإسلام، وعن الحرية الجنسية التي تتمتع بها النساء، وعن السلطة الذكوريةأيضاً. وعلى الرغم من سيادة النظام البطريركي في الحجاز ومكة قبل ظهور الإسلام، عرف بعض القبائل ظاهرة انتساب الأطفال إلى أمهاتهم؛ أي النظام الأمومي[23]، مثل قبيلة خندف وجديلة، ومن ملوك العرب قبل الإسلام من نسب لأمه كعمر بن هند.[24]

أدت مركزية الأنثى عند بعض القبائل إلى وجود آلهة من الإناث والذكور، فكانوا يؤمنون بأن إله كل قبيلة يحارب معها في حربها، لذلك حملت القبائل صوراً وتماثيل آلهتها في الحرب، وقد فعل ذلك أبو سفيان فحمل «اللات» و«العزى»[25]في معركة أُحد ضد محمد، وكانت اللات والعزى إلهات إناث.[26] كانت «اللات» إلهة بني ثقيف وكانت تبسط سيطرتها على مدينتهم الطائف، وكانت «مناة» معبودة الأوس والخزرج الذين يشكلون غالبية سكان المدينة. العزّى كانت إلهة القريشيين وتسيطر على مدينتهم مكة. ومناة كانت الأقدم، وكان العرب يتكنون بها مطلقين على أولادهم أسماء كعبد مناة وزيد مناة؛ واللات كانت قريش وجميع العرب يعظمونها فأطلقوا على أولادهم تسمية زيد اللات.[27]

أتاح النظام الاجتماعي تعدد الزوجات، فالرجل يحق له أن يتزوج من يشاء من النساء، وبالعدد الذي يريد، ويتسرى بالعديدات من الإماء. التعدد الذي كان مباحاً قبل الإسلام[28]، يُقدِم عليه الرجل إما للمتعة أو الرغبة في الإنجاب، إذا لم تسعده زوجته بالولد، أو حباً بإنجاب الذكور إذا كانت المرأة مئناثاً [لا تنجب سوى البنات]، أو للإكثار من الأولاد، دعماً للأسرة والقبيلة، وتفاخراً بكثرة الولد أمام الآخرين، وهذا الأمر ينطبق على الأفراد متوسطي الحال. أما السادة الأشراف ورؤساء القبائل فقد يعددون الزوجات لإحلال التفاهم بين قبيلتين أو بطنين متنافرين — هذا التعدد عبارة عن زواج سياسي— أو لدعم تحالف قائم.[29]

يذكر المؤرخ العراقي جواد علي (1907–1987) في موسوعته «المفصل في تاريخ العرب

قبل الإسلام» «**أن أهل الحرم أول من اتخذ الضرائر، والضرائر زوجات الرجل الواحد، وكل منها ضرة للأخرى. والغاية الأولى للزواج هي النسل، لذلك قالت العرب من لا يلد لا وُلد، وكرهت العاقر وعدتها شؤماً، واتخذ العقر من الأسباب الشرعية للطلاق**، إذا كان الرجل يرفض البقاء مع امرأة لا تلد، لذلك كان يطلقها في الغالب لانتفاء المنفعة منها مع إنفاقه عليها، أو يتزوج عليها ليكون له عقب، وعندهم أن المرأة القبيحة الولود خير من الحسناء العاقر».[30]

خضعت النساء قبل الإسلام لنمط طبقي فتم تقسيمهن إلى حرائر، وإماء؛ **المرأة الشريفة أي تلك المتحدرة من أسرة أرستقراطية، كان من حقها الاعتراض على الزواج أو القبول به، والعادة أن** «**أمر الزواج بيد الأبوين، وليس للبنت معارضة وليّها الشرعي في الزواج. واشترطت بعض النسوة من الأسر الشريفة، إن أصبحن عند زوجهن، كان أمرهن إليهن، إن شئن أقمنا معهم، وإن شئن تركتهم، أي إن حق الطلاق بيدهن، وذلك لشرفهن وقدرهن**، ومن هؤلاء: سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش، وهي أم عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف «.[31]

لم يكن للمرأة قبل الإسلام —عند غالبية القبائل— الحق في الإرث بل كانت تُعد ملكية الرجل؛فقد كان يراعى في الوراثة النسب، ودرجة القرابة، أي صلة الرحم حسب درجتها؛ والقاعدة العامة في الإرث أن يكون خاصاً بالذكور الكبار دون الإناث، على أن يكونوا ممن يركب الفرس ويحمل السيف. و»المرأة من ضمن تركة المتوفى وذلك إن لم تكن أم ولد، ويكون من حق الابن التزوج بها... والأخبار متضاربة في موضوع إرث المرأة والزوجة في الجاهلية، وأكثرها أنها لا ترث أصلاً، **غير أنه ناكر وايات يُفهم منها أن من الجاهليات منورثن أزواجهن وذوي قرباتهن،وأن عادة حرمان النساء الإرث لمتكنسُنّة عامة عند جميع القبائ،ولكن كانت عند قبائل دونقبائل،وماورد من الأخبار يذهب علىالأكثرعندأهلا لحجاز**».[32]

عدم توريث النساء بدعوة أنهن لا يمتطين الجياد ولا يحاربن، ظل سارياً إبان الدعوة المحمدية، التي أبطلت هذه العادة الذكورية/ القبلية، وقبل نزول الآية القرآنية التي حددت حصة الأنثى في الإرث، واجه محمد هذه المشكلة، إذ أتت إليه النساء يطالبن بـ«تطبيق قانون جديد، ومن بينهن أم كجة، إحدى نساء الأنصاريات التي جاءته تشكو قائلة: «مات زوجي وقد مُنعت من ميراثه، إذ إن شقيق زوجها قال: «النساء لا يمتطين الجياد ولا يحاربن»، وكان لأم كجة خمس بنات أُبعدن جميعاً عن الإرث من قبل رجال القبيلة، فالرجال وحدهم يرثون، والمرأة والطفل الذكر مبعدان عن الإرث».[33]

ثانياً: الزعامة النسائية والمقاتلات

لا تذكر العديد من المصادر رئاسة المرأة للقبيلة، ولم يجد جواد علي أي أثر لها. يقول: «لم نقرأ في كتب أهل الأخبار —كما يؤكد جواد علي— ما يفيد سيادة النساء على القبائل، في الجاهلية القريبة من الإسلام. ولم نقرأ في المسند ما يفيد بوجود ملكات حكمن اليمن. بينما قرأنا في الكتابات الآشورية وجود ملكات عربيات حكمن قبائل عربية، كانت تنزل البوادي من بادية الشام. ووقفنا أيضاً على حكم الملكة «الزباء» لتدمر وذلك بعد الميلاد. ولكننا نقرأ في أخبار أهل الأخبار أخبار كاهنات، كانت لهن مراكز خطيرة عند القبائل. وكذلك أخبار حاكمات حكمن فيما بين الناس في الخصومات. وقد كان منهن من يقرأ ويكتب»[34]. لكن تقدم لنا مصادر معلومات عن الدور الذي لعبته زوج سيد القبيلة أو أمه أو أخته أو ابنته في الحياة السياسية والعسكرية.

كانت المرأة وسيلة هامة لتوثيق عرى السلام، والتحالف بين القبائل عن طريق التصاهر. وعلى الرغم مما يحمله هذا الدور من مساحة للفعل السياسي، لكنه يعبر عن استخدام للأنثى في عقد المصالحات، ومرة أخرى توظف العادات القبلية القائمة على الغزو والسبي، عقل المرأة وجسدها في الحرب والسلم، وعلى هذا يمكن أن نفهم الحروب التي شُنّت قبل الإسلام ومن بينها حرب «البسوس» التي سمِّيت باسم المرأة التي أثارتها.

«البسوس» كانت خالة لجساس بن مرة أحد فرسان بني شيبان من قبلية بكر، وقد جاءت لزيارته، ونزل بها ضيف من ذويها يدعى سعد وكانت معه ناقته، وشردت الناقة مع نياق كليب بن ربيعة، زعيم قبلية تغلب، الذي يذكر الرواة أن جميع قبائل معد قد تجمعت تحت إمرته، وكان لا يسمح لأحد أن يرعى في حماه، فعندما رأى ناقة جار البسوس مع نياقه، رماها بسهم أصابها في ضرعها، فانطلقت إلى فناء البسوس وهي تشخب بدمها، ولما اتضح للبسوس الأمر، طرحت خمارها، وصاحت وأذلاه وأجاراه، وأنشدت تقول:

لَعَمْرُكَ لَوْ أَصْبَحْتُ في دَارِ مُنْقِذٍ/ لَمَا ضِيْمَ سَعْدٌ وَهْوَ جَارٌ لأَبْيَاتِي

ولكِنَّنِي أَصْبَحْتُ في دارِ غُرْبَةٍ/ مَتَى يَعْدُ فِيها الذِّئبُ يَعْدُ على شَاتي

فَيَا سعدُ لا تَغْرُر بِنَفْسِكَ وارتَحل/ فإنَّكَ في قَوْمٍ عنِ الجارِ أَمْوَاتِ

وَدُونَكَ أَذوادِي فَإِنِّي عَنْهُمُ / لَرَاحِلَةٌ لا يَفْقِدُونِي بُنَيَّاتِي.

عندما سمع **جساس** هذا القول استثارته الحمية، وأحس بوصمة عار إذا ما أظهر عجزاً عن حماية من استضافته خالته في حيه، واعتبر عمل كليب إهانة لن يغسلها إلاّ الدم، فقال لخالته: «اسكتي أيتها المرأة فليقتلن غداً جمل هو أعظم عقراً من ناقة جارك» وبالفعل فإنه قتله، وبذلك استمر القتال لأربعين عاماً.[35]

الشواهد على الحرب التي شنت، وكان للمرأة دور فيها من البسوس إلى الفجار الثانية كثيرة، وهي تكشف عن ثنائية الشرف/ العار لدى القبائل قبل الإسلام، كما تبرز الانفعال الذكوري لحماية المرأة بدعوى الشرف، ولعل الرجل الذي وجد بين الناقة والأنثى سمات مشتركة تؤنسه، بنىرؤيته تجاه النساء على ثنائية الأنثى/ العار التي لا تنفصل بدورها عن شرف القبلية.

شكلت المرأة قبل الإسلام باعثاً لحرب القبائل؛ لكن في مقابل ضريبة الشرف الدموي، كانت داعية سلام، ومن بين الأخبار التي ترويها المصادر، قصة «بهيسة بنت أوس بن حارثة الطائي»، فبعد زواجها من الحارث بن عوف، وحملها له إلى حماه، كانت حرب داحس والغبراء، قد اشتدت أوارها بين بني عبس وبني ذبيان فعندما جاء إليها ليلة عرسه منها ورأته مرتدياً مطارف العرس، قالت: «والله لقد ذكرت من الشرف ما لا أراه فيك» وقال: «وكيف؟» قالت: «أتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضهم بعضاً؟» قال: «فيكون ماذا؟» قالت:» اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم». فخرج لساعته إلى صاحبه خارجة بن سنان وقص عليه حديث امرأته، فقال: «والله إني لأرى همة وعقلاً ولقد قالت قولاً». فخرج الرجلان ومشيا بين القوم بالصلح وحملا حمائل _ أي ديات _ القوم وديات قتلاهم. فكان ما نزلا عنه ثلاث آلاف بعير في ثلاث سنوات.[36]

إن زعامة النساء للقبائل العربية قبل الإسلام نادرة، لكن ثمة شواهد تاريخية تبرهن على دور خفي مسكوت عنه. ثمة امرأتان، «رقاش الطيئية»[37] و «سجاح بنت الحارث التميمية».
الأولى أوردت الأخبار أنها كانت ذات حزم ورأي ونفوذ، وكانت تغزو بقومها، وأغارت بهم على إياد بن نزار بن معد وظفرت بهم وغنمت وسبت. والثانية، لم تقد قبيلة واحدة وإنما تحالفاً قبلياً لتقف في وجه الإسلام في حروب الردَّة[38].

في التاريخ الأبعد من ظهور الإسلام، تحفل المدّونات بسرد معلومات عن وجود ملكات عربيات كنّ على رأس الممالك والمشيخات القائمة في شمال شبه الجزيرة العربية وعلى التخوم الشمالية والعراقية، ومن بينهن، «زبيبي» و «سمسي/» شمسي» (Shamsi) و»يطيعة» و»تلخونو» (Telhunu) وهؤلاء النساء، كنّ ملكات لمنطقة «عريبي» التي ضمت القبائل العربية القابعة على التخوم الشمالية لشبه الجزيرة العربية مما يلي بلاد الشام، وقد تمتد حتى الفرات، وكان مركزها «دومة الجندل».[39]

على الرغم من شحّ المصادر العربية حول القيادة السياسية للمرأة قبل الإسلام، غير أن القرآن في سورة النمل يورد قصة ملكة «سبأ» الملكة القوية، التي حكمت _ ما يعرف باليمن اليوم_ وكانت تستشير مجلسها. أثارت بلقيس ملكة سبأ حول هويتها روايات

مختلفة، منهم من قال إنها من الحبشة، والبعض قال إنها من اليمن، وإذا اعتمدنا على ما أورده الإخباريون العرب، نجد أن الملكة سامية الشكل كالعرب، وهي تكلمت لغة سامية تجمع ما بين العربية والعبرية، وعندما استلمت الرئاسة والمُلك ازدراها قومها، لكنها بالحيلة استطاعت الحفاظ على عرشها.[40]

في الحرب، ثمة وجه آخر للمرأة، وجه دموي في بعض جوانبه، إلاّ أنه مؤثر وديناميّ. شاركت النساء قبل الإسلام في غزو القبائل، وعلى مشارف الإسلام شكلت «هند بنت عتبة» العبشمية القرشية الكنانية،»المثال الأنموذجي للمرأة الدينامية» كما تصفها عالِمة الاجتماع المغربية فاطمة المرنيسي (1940–2015). لعبت هند دوراً دموياً في مقاومة المكيين لمحمد «إلى حد أن اسمها كان عندما فتح النبي مكة، مدرجاً على القائمة بين المكيين القلائل الذين كان الرسول يطلب إعدامهم».[14] في معركة أُحد التي وقعت بين المسلمين الأوائل والقرشيين، رقصت هند وغنت بين جثث المسلمين، وقالت أبياتها الشهيرة:

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقْ/نَمْشِي عَلَىالنَّمَارِقْ،

الدُرُّ فِي المَخَانِقْ/وَالمِسْكُ فِي المَفَارِقْ،

إنْ تُقْبِلُوا نُعَانِقْ/ أَوْ تُدْبِر ُوانُفَارِقْ،

فِرَاق غَيْرَ وَامِقْ.

المرأة المقاتلة الدموية، التي تمثل **هند**[24]مثالاً قوياً عنها، حرضت المقاتلين في الحرب، وشاركت فيها. **ومن أشهر الأدوار العسكرية النسائية التي تبرزها المصادر، ما قامت به نساء بكر في إحدى المعارك، ما أدى إلى رصّ الصفوف، وتميزت فيها ابنتا الفُند الزماني، حيث حسرتا خمارهما وتوغلتا بين المقاتلين وأنشدتا:**

وغىوغى وغى وغى/حَرَّالحَرَار واْلتَظَى

ومُلئت منه الرُّبى/ يا حَبّذَا الُمحَلّقون بالضحى.[43]

ثالثاً: الوأد والخفاض والحجاب

في اللغة، الوَأْدُ والوَئِيدُ: الصوتُ العالي الشديدُ كصوت الحائط إذا سقط ونحوه؛ والوئيد: شِدَّةُ الوطءِ على الأَرض يسمع كالدَّوِيّ من بُعد؛ ووأَدَ المَؤُودةَ، وفي الصحاح وأَدَ ابنتَهُ يَئِدُها وأْداً: دَفَنَها في القبر وهي حية؛وامرأَة وئِيدٌ ووئيدةٌ: مَوْءُودةٌ.

يحمل وأد البنات دالاً متناقضاً يجمع بين المقدس والمحرم، ولا ينفصل عن «المركزية الذكورية» في «الوعي الأبوي/ القبلي». إن الأنثى الموءودة، بالمعنى القبلي، كان جسدها الخاص، من حق المجال العام، أي القبيلة، في الزواج وأنواعه، والصداق، والإرث. أما الوأد

بمعناه المادي المباشر، فلم يكن الأب وحده، هو الذي يتخذهتجاه الطفلات، كانت المرأة تعمد إلى قتل ابنتها خوف الطلاق:فالحامل «إذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة، فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة وإذا ولدت ولداً حبسته».[44]

ارتبط الوأد عند العرب بفكرة **«الأنثى المقدسة» لأنها بنت الآلهة**، لهذا قُدمت قرباناً، على اعتبارها من أجود أنواع العطايا، وليس أدل على ذلك من أن الأب كان يُجمّل البنت قبل تقديمها قرباناً بشرياً خالصاً لوجهة الآلهة، وبواسطته ينخرط بعلاقة تبادلية مع معبوده، وتكون البنت/ الأنثى الواسطة بين الدنيوي والمقدس.[45] وعليه فإن الإله «ودّ»، يرمزللأنوثة والخصوبة، والتضحية بالدم، والأنثى رمز للدم بدورتها الشهرية المرتبطة بدورةالقمركذلك؛ والوأد[46] بهذا المعنى، ارتبط بالمودة بين الإله والعبدالمضحي، بابنته. لم يجرِ الوأدبالضرورة بعد ولادة الطفلة مباشرة، بل يُبقى عليها حتى تغدو سداسية، فيطلب من والدتها تطييبها وتزيينها، ويأخذها الأب معه، فيدفعها إلى الحفرة، حفرها لها في الصحراء، ويدفنها حية تحت التراب. وقد يتم الوأد بعد البلوغ، وقد تكون البنت على معرفة بما يريد منها أبوها، عندما يرافقها إلى البئر، فيطلب منها أن تنظر فيها، ويرميها، وكان في مكة جبل يُقال له «أبو دلامة» كانت قريش تئِّد البنات فيه.[47]

للوأد عند عرب قبل الإسلام أسباب اقتصادية، فقد ارتبط بجفاف الصحراء، وندرة الموارد الطبيعة فيها، والخوف من المجاعة، وبما أن الذكر يخرج إلى الغزو ويساعد القبيلة اقتصادياً، لم يتعرض للوأد، علماً أن بعض القبائل العربية قبل الإسلام وأدّت الإناث والذكور خصوصاً في مرحلة القحط والمجاعات.

رافق الشرف «أنثى الجاهلية» منذ ولادتها، بسبب خوف الأب المزدوج: من السبي، وعدم الكفاءة القبلية؛ الأب خاف من وقوع ابنته «سبية» بسبب غزو القبائل لبعضها البعض، فعمد لوأدها، خوفاً من العار، ودرءاً «لتزويجها من رجل لا يكافئه نسباً»[48]. للوأد أدبياته الشعبية، وهو بمعناه الرمزي، يؤشر إلى ذهنية ذكورية شرسة، وإلى نمط قبلي معادٍ للمرأة منذ انطلاق تدبير الإذكار، أي الإعداد لإنجاب الذكور، وإذا عدنا إلى الذاكرة الشعبية الجاهلية، لوجدنا عدداً لا بأس به من الأمثال العنفية، نورد بعضها: القبرُ صهرٌ؛ نعم الختنُ القبر؛ دفن البنات من المكرمات؛ نظر أعرابي إلى بنت تدفن، فقال: «نعم الصهر صاهرتم»؛ وإذا هنّأوا بالبنت قالوا: «أمّنكم الله عارها وكفاكم مؤونتها وصاهرتم قبرها.[49]

رُهاب «العار» المزدوج نتيجة السبي وعدم فاعلية الأنثى، دفع بالعرب قبل الإسلام إلى ممارسة «الخفاض» أي ختان المرأة، بغية التخفيف من شهوتها[50]: «وسادت عند بعض

«الجاهليين» عادة ختان النساء للحد من طغيان الشهوة، فإن البظراء تجد اللذة ما لا تجده المختونة». كان العرب يفخرون بخفاض بناتهم ويعيرون من كانت بظراء، «ويذم الرجل ويشتم ويعير بأنه ابن القلفاء إشارة إلى غلمتها».[51]

تلاحظ الأكاديمية التونسية آمال قرامي في أطروحتها «الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية» أن الخفاض لم يحظ باهتمام المؤرخين، حتى في موسوعة جواد علي، لم نعثر إلاّ على بعض التفاصيل النادرة. هذه العادة عرفها عرب الجنوب، وأهل مكة والأحباش. ويزعم البعض أن هاجر زوج إبراهيم، كانت أول امرأة خفضت بسبب غيرة سارة منها، فهي التي حلفت «لتقطعن منها ثلاثة أعضاء فخاف إبراهيم أن تجدع أنفها وتقطع أذنها، فأمرها بثقب أذنيها، وختانها، وصار ذلك سُنّة في النساء»[52]. هذا الخبر الذي أورده ابن قيم الجوزية في «تحفة المودود بأحكام المودود» يطرح أسئلة عدة: كيف انتقلت هذه الممارسة إلى الجزيرة العربية؟ وهل كان الخفاض سائداً عند العرب؟ أم إنهم أخذوه عن اليهودية؟

بقي الخفاض سائداً عند العرب بعد الإسلام، واختلف حوله الفقهاء، فاعتبره الشافعية والحنبلية واجباً، في حين أن المذاهب الأخرى رأت أنه مكرمة. وقد أفرد ابن القيم فصلاً في «تحفة المودود بأحكام المولود» للحديث عن الختان، ولكنه تعرض باقتضاب شديد إلى الخفاض. لم يشر إلى الزمن الذي يحبذ فيه إجراؤه ولا إلى الشروط التي يجب توفرها في الخافضة، غاية ما قدمه استحسان الفقهاء ختن المرأة البظراء حتى وإن كانت في سن متأخرة».[53]

بصرف النظر عن موقف الفقهاء من الخفاض، تختلف الدلالة الجنسية والمقدسة لختان الذكر عن خفاض الأنثى؛ **لم تكن غاية ختان الذكور الحد من المتعة الجنسية، إنما عبارة عن طقوس تطهيرية أخذها العرب عن اليهودية، وهو إثبات للفحولة؛ أما الخفاض، فغايته الحد من شهوة الأنثى التي ارتبطت شهوتها بخوف الذكر نفسه منها،** وهنا لن ندخل في خلاصات التحليل النفسي التي تقدم بها سيغموند فرويد، حول «عقدة الخصاء»[54].

تعددت التأويلات حول مسألة ارتداء المرأة للحجاب قبل الإسلام، وعلى الرغم من أن هذا التقليد ساد لدى بعض القبائل، لكن كثيرات من النساء «**دخلن مجالس الرجال وتحدثن فيها عن مناقب أزواجهن دون كلفة**»، **بل عرف أن النساء كن يقصدن سوق عكاظ على اختلاف مقاماتهن، ويبعن ويشترين، ويدخلن في منافسة أدبية مع الرجال.** وممن اشتهرن في اِرْتِيَاد هذه الأسواق الخنساء وهند بن عتبة.

يشير الأديب والشيخ الأزهري عبد الله عفيفي الباجوري (ت1944) في كتابه «**المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها**»إلى أن الحجاب يطلق على أمرين:أولهما: قرار المرأة في دارها والاحتجاب دون الرجال فلا تكون بمرأى ولا مسمع منهم، والثاني: إرخاء القناع على وجهها إذا غادرت دارها لبعض شأنها، أما الأول فما كان بالمرأة من حَرَج أن تغشي مجالس الرجال، وتطرُق أنديتهم، وتخطب في محافلهم ومشاهدهم، لا في الخطب الملم (...) وهنالك في سوق عكاظ وهو أحفل مجامع العرب، وأجمع مواسمهم، كان النساء يأتين من كل صوب وحَدَب على اختلاف مقاماتهن، وانشعاب ديارهن، فيزاحمن الرجال بالمناكب في كل ما قصدوا له، واحتفلوا به. فبينما كنت ترى امرأة تناضل الرجل في حومة القول، إذا بأخرى تخطب الناس. وإلى جانب من هؤلاء امرأتان تتناشدان الشعر وقد اجتمع عليهما خلق كثير. فلقد حدثوا أن هند ابنة عتبة، والخنساء بنت عمرو بن الشريد، تلاقتا هنالك، فتذكرتا مصيبتهما، وكانت الأولى قد قتل عنها أبوها وعمها وأخوها يوم بدر. ومات عن الثانية أبوها وأخوها، وادّعت كل واحدة أنها أوجع مصاباً، وأَحَرُّ كبداً من أختها ولكي تفي كل بدليلها جاءَت بأبرع الشعر وأروعه في وصف مصابها، وجُهد ما فعل بها وبقومها. ثم انصرفتا وقد جاش بالناس الحزن، وتملكهم الإعجاب.وما كانت الخنساء ولا صاحبتها بالتي ينكرها أحد من العرب، فهما جميعاً في المكان الأرفع من زكاء الحسب، وسناء المنزلة»[55].

لا يمكن الحديث عن نظام واحد كان سائداً قبل الإسلام بِشأن الحجاب، ففي القبيلة الواحدة قد ترى المرأة التي يدعونها «البَرْزَة» تختلط بالرجال كالرجال، وتتحدث معهم سافرة غير محجبة، وهناك «الخجلة» التي ترخي قناعها إذا خرجت من البيت فلا تطرحه حتى تعود، ولا فرق في ذلك بين الفتيات الشابات والمتقدمات في السن.[56] ويذكر عباس محمود العقاد (1964–1889) أن الحجاب للرأس وللوجه كان معروفاً عند الشعوب القديمة، وقد كان يتخذ لوقاية الرأس من الظروف المناخية المختلفة، وكذلك شأن البرقع وقناع الوجه، وهذه الظاهرة عرفها العبرانيون، وكانت المرأة الجاهلية تضع في معظم الحالات الخمار على رأسها. الإماء في الجاهلية، كنّ يخفين وجوههن بالقناع، وقد وضع لإخفاء أمر غير مستحب أكان في الوجه أم الشخصية، وفي مثل هذا يقول الحارث بن كعب المذحجي «ولا طرحت عندي مومس قناعها».[57]

ثمة قصائد في حقبة قبل الإسلام تشير إلى وجود الحجاب والنقاب، وما يؤكد ذلك قصيدة أم عمرو بنت وقدان، من النساء المتحمسات تحرض قومها على أخذ الثأر:

إن أنتم لم تطلبوا بأخيكم/ فذروا السلاح ووحشوا بالإبريق

وخذوا المكاحل والمجاسد وألبسوا/ نقب النساء فبئس رهط المرهق.[58]

ومن بين الشعر الجاهلي الذي أشار إلى ستر وجوه النساء، رثاء الربيع بن زياد العبسي لمالك بن زهير:

من كان مسروراً بمقتل مالك/ فليأت نسوتنا بوجه نهار

يجد النساء حواسراً يندبنه/ يلطمن أوجههن بالأسحار

قد كنّ يخبئن الوجوه تستراً/ فاليوم حين برزن للأنظار

يضربن حرّ وجوههن على فتىً/ عف الشمائل طيب الأخبار.

ظهر الحجاب عند العرب قبل الإسلام،لكنه لم يكن ظاهرة عامة، ولم يكن لأهداف دينية، وإنما كان تقليداً اجتماعياً. تشير بعض النصوص إلى أن المرأة كانت تغطي رأسها بطريقة خاصة قائمة على كشف الصدر، «كانت جيوب النساء واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها، وكنّ يسدلن الخمار من ورائهن فتبقى مكشوفة، فأمرن أن يسدلنها من قدامهن حتى يغطينها».[59]

إذن، الحجاب ليس ظاهرة منتشرة، واختلف وجوده بين قبلية وأخرى، وتنوع الروايات يشير إلى تعددية التقليد بين القبائل، فمن جهة ارتدت النساء الحجاب، ومن جهة أخرى حدثتناالمصادر عن سفور المرأة وعدم تقيدها بستر الوجه أو الرأس، ودخولها إلى مجالس الرجال بحرية. بعد استقرار الإسلام عمل الفقهاء على تأصيل «فقه الحجاب» ومؤسساته، وأصدروا فتاوى تتحرى فقط عن أدق التفاصيل في جسد المرأة وحواسها، فأصبح حجب «الجسد الأنثوي» على حد تعبير آمال قرامي، «آلية استحدثها الرجال لغرضين: السيطرة على فتنة؛ وضبط نمط العلاقات بين الرجال أنفسهم».

خلاصة

تبرهن الوقائع التاريخية التي تطرقنا إليها عنتقاليد قبلية عدة عرفها العرب قبل الإسلام. لقدخضعت النساء لضبط قبلي/ عنفي وصل إلى ذراه مع وأدالبنات،مما يعكس مأزق الأنثى منذ ولادتها في مرآة الذكر، الذي يمثل ركن القبلية وحامي حماها.

على الرغم مما نلاحظه من أدوار نسائية قتالية لدى نماذج عدة لا سيما في الأنموذج الأنثوي الأعنف الذي جسدته «هند بن عتبة»: تحمل مشاركة النساء في الحرب والغزو مؤشرين: الأول: إثارة اللاوعي الجنسي الذكوري المرتبط بشرف القبيلة؛ يؤكده صراخ «نساء بكر في إحدى المعارك» ضد المسلمين؛ والثاني: دور المرأة القتالي والحربي والزعماتي خارج حدود الدافع الجنسي.

لازم «**مأزق العار**»[60] المرأة قبل الإسلام، فهي بالنسبة لقبيلتها أكثر من عبءٍ على الرجل/

الأب، وبصرف النظر عن التفسير الاقتصادي للوأد، ثمة أزمة شرف وعار تلاحق الأنثى منذ اللحظات الأولى للولادة؛ أزمة يمكن تفسيرها على قاعدة العجز المتصل «بأخلاق الشرق أو أنوية الذات، والعجز عن نهوض الأب بواجبه لتربيتها، وأداء حاجاتها، وهو أخيراً يدرك أنه مهما فعل لأجلها، فهي لن تكون له في النهاية، مهنؤها لغيره».[61]

تكشف أنواع الزواج عند العرب قبل الإسلام عن **مفارقة أو تباين في اقتصاد المتعة**، فإذا قارنا بين «نكاح الضيزن»، وبين «نكاح صواحبات الرايات» وجدنا أن النساء قبل الإسلام خضعن لمعيارين، معيار التملك في النكاح الأول، ومعيار الحرية الجنسية في النكاح الثاني، وعلى الرغممن ارتباط الأخير بتاريخ البغاء المقدس، لكنه مؤشر على دينامية الحرية الجنسية التي أُتيحت لعدد من النساء.

يمثل الخفاض أقصى أنواع العنف الذكوري تجاه الأنثى؛ فيؤكد الحد من شهوتها، مقابل إعلاء شهوة الرجل عبر التمتع بالجسد الأنثوي، ما يؤشر على العلاقة التبادلية بين الجنس والسلطة الأبوية.

في «الغزو الجاهلي»، المرأة السبيّة، تدفع الثمن، ثمن عبوديتها، وعلى قدر «ما جرى استرقاقها بشكل خاص للاستمتاع بها»، على قدر ما دفعت بجسدها عنوة باتجاه عادات قبلية لم تجد فيها سوى موطئ للمتعة. في هذا السياق يخلص خليل أحمد خليل إلى أن «المرأة في العصر الجاهلي كانت إحدى الضحايا الرئيسة للتبادل غير المتكافئ بين القبائل: فهي تدفع من مقامها الاجتماعي والإنساني والنفسي ثمن الهزيمة العسكرية لقبيلتها فتقع في السبي، وتُخفض من الحرية النسبية إلى العبودية؛ وهي تغدو سلعة للتبادل والمتاجرة».[62]

يمكن الخروج في هذه الدراسة بعدد من النتائج المفتوحة على النقاش نوجزها على النحو الآتي:

أ. حظيت المرأة قبل الإسلام بحرية نسبية (منها الحرية الجنسية) مقابل عبودية تمارسها القبلية.

ب. تعددية التقاليد بين القبائل في ما يتعلق بأدوار النساء والجندر والجنس والعلاقات الاجتماعية.

ج. تكشف النماذج النسائية الزعماتية عن أدوار ريادية للنساء في زعامة القبيلة تحتاج إلى مزيدٍ من الدرس.

د. إن الدور الديني للمرأة، لا سيما حين تحدثنا المصادر عن الكاهنات، يتطلب تكثيف الحفر الأركيولوجي في هذا الحقل المعرفي.

هـ. كانت الأنثى منذ ولادتها بمثابة العبء على الأب ومن ثم القبيلة بسبب «مأزق العار».
و. الاقتران بين الأنثى والمقدس وبين الأنثى والمدنس في الوعي القبلي.

الهوامش

1 لاحظنا تطور الاصدارات والكتب الأجنبية والعربية في التأريخ لهذا الحقبة في العقود الأخيرة. عموماً، ثمة اتجاه معرفي لتطوير الأبحاث والدراسات في هذا المضمار، بالتركيز على التاريخ وعلم الآثار.

2 دروزة، محمد عزة: تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار، الجزء الخامس، بيروت، د.ط. 1961، ص 283.

3 بيهم، محمد جميل: المرأة في التاريخ والشرائع، بيروت، 1921، ص 124.

4 نشير إلى أننا بعد مراجعة الاستخدامات السابقة، فضلنا الابتعاد عن تسمية حقبة ما قبل الإسلام بالجاهلية، فالتسمية فيها حمولة دينية وتراثية، لكن خلال الاستشهاد بالنصوص أبقينا عليها، دون تدخل، حفاظاً على أخلاقيات البحث.

5 بيهم، محمد جميل، المرأة في التاريخ والشرائع،مرجع سابق، ص، 135_ 136.

6 علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، الطبعة الثانية، 1993، الجزء الخامس، ص 270.

7 علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الرابع، ص 630.

8 ناسمه مناسمة: دنا منه وشامّه وحادثه وساره.

9 ثافنت الرجل مثافنة: صاحبته لا يخفي على شيء من أمره.

10 الجاحظ: رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الجزء الثاني، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964، ص 149–148.

11 طبعاً ظلت هذه الصفة ملازمة للنساء بعدالإسلام، وقد ظهر هذا الكيد في سورة يوسف الآية 28 { إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ}. من المفيدالإشارة إلى أن الكيد (الحيلة والتآمر) ليس صفة أنثوية مرتبطة بالمرأة كما هو سائد في الوعي الفقهي الديني والوعي الجمعي العربي، فهي صفة يلجأ إليها الرجال والنساء.

12 علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الرابع، ص ص 116– 117.

13 المصدر نفسه، ص 120.

14 الطبري، ابن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري) القاهرة، د.ت. الجزء الرابع، ص 207_ 208.

15 صباغ، ليلى: المرأة في التاريخ العربي، في تاريخ العرب قبل الإسلام، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، الطبعة الأولى، 1975، ص 177.

16 المرجع نفسه، ص 178.
17 هذا النوع من النكاح كان معروفاً لدى اليونان القدماء، فشريعة ليكورغوس (Lycur-gus) كانت تُتيح للرجل أن يدفع بزوجته الى الاستبضاع من آخر، على أن يكون الولد للزوج. كما أن الزوج في شريعة مانو الهندية يبيح للرجل العقيم أن يستولد امرأته من أحد أخواته أو أهله. (انظر: بيهم، محمد جميل: المرأة في التاريخ والشرائع، م.س، ص 72).
18 ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، القاهرة، 1963، الجزء الأول، ص 98.
19 علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، م.س، الجزء الرابع، ص 647.
20 تجزم نوال السعداوي أن البغاء لم يعرف ولم يبدأ إلاّ ببدء النظام الأبوي، فقد اقترن هذا النظام منذ نشأته بالبغاء، لأنه الحل الوحيد لنظام يفرض زوجاً واحداً على المرأة في حين يمنح الرجل حرية جنسية مع نساء أخريات خلاف زوجه. انظر: السعداوي، نوال: دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1986، ص، 817.
21 صباغ، ليلى: المرأة في التاريخ العربي، م.س، ص، 181_182.
22 المرجع نفسه، ص 185.
23 كانت المرأة في جنوب الجزيرة العربية تتمتع بحرية أكثر على الصعيد الجنسي، وهو ما كان يُعبر عنه بمخلفات النظام الأمومي. ومن أبرز علامات تلك الحرية، أن العادات والتقاليد كانت تسمح للمرأة بأن تنجب خارج الزواج وكان الأطفال في هذه الحال يحملون لقب الأم أو الخال. ولم يكن الزنا سبباً في تسليط العقاب على الزوجة. وكانت المرأة في بعض القبائل تنتدب عندما يسافر زوجها، عشيقاً لها من قبليتها أعزب أو متزوجاً، على قاعدة خصال معنوية بارزة حتى يكون حقيقاً بالأطفال. وكانت هذه العادة تسمى «الاكتساب» وكان الطفل الناجم عن هذه العلاقة المذكورة يسمى الفرخ، دون أن يكون ذلك ذم أو قدح في نسبه. وقد عرفت يثرب تأثيرات من العادات والتقاليد الأمومية، بحكم الهجرة اليمنية إليها. (انظر: Chelhoud, Josef:Du nouveau a' propos du patriarchate Arab, Arabica, 1981, pp 70- 106؛ انظر أيضاً: صالح، سلوى بالحاج: دثّريني يا خديجة، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، 2011، ص 59).
24 عفيفي، عبد الله: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، دار إحياء للكتب العربية، مصر، الجزء الأول، 1921، ص 195.
25 كانت قريش تطوف بالكعبة وتقول: واللاتِ والعُزى ومناة الثالثة أخرى فإنهن الغرانيق العُلى وإن شفاعتهن لتُرتجى، وجاء عند الباحثين أن العرب قدسوا من سموهم بنات الله وكنّ في الدرجة الأولى تمثيلاً للقوى المولودة في الطبيعة، وكان لقريش وبعض العرب شجرة خضراء عظيمة يقدسونها سميت «ذات أنواط»، والاسم «ذات أنواط» هو أحد ألقاب الشمس التي تمّ تعريفها بالاسم «إلات» كإلهة أنثى، وفي ذلك دعم لعلاقتها بالخصب والجنس في نظر العرب. وقد أثبتت النقوش أن العرب قبل الإسلام عبدوا الكواكب فزوجة إله القمر وهي الشمس، أطلق عليها اسم

«إلات»، فيصبح «إل» هو إله القمر لأن «إلات» الشمس هي مؤنث «إل». ويفترض بعض الباحثين أن «إل» إله السماء الذكر أو «القمر» و«إلات» إلهة السماء الأنثى أو الشمس جاء منهما الضلع الثالث ممثلاً في الوليد الإلهي «عشتر سمين» أي عشتر السماء، وتذكر روايات أهل الأخبار على تعبد بعض العرب للشمس وعلى مخاطبتهم لها بـ «الإلاهه» وبـ «لاهه» وعلى تعبد بعضهم لزحل أو للمشتري أو لغيرهما من الأجرام السماوية. ويشار إلى أن كتب التاريخ الإسلامية وكتب السير تحدثت عن أن النبي في المراحل الأولى من دعوته في مكة، وبعد أن هاجر بعض أتباعه إلى الحبشة، ورأى تجنب قريش له، وأنه في نفر قليل من أصحابه استشعر الوحشة فتمنى قائلاً: «ليته لم ينزل عليّ شيء ينفرهم مني». وكما يروى أنه قرأ سورة النجم في المسجد الحرام أمام سادات قريش ومعه بعض أتباعه يصلون معه، ولما وصل إلى الآيات «أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» روي أنه استمر يقول «تلك الغرانيق العلا، إن شفاعتهن لترتجى. وقد فسر المفسرون هذا الخلط عند النبي بناءً على الآيتين 73 – 74 من سورة الإسراء أن الشيطان انتهز فرصة تمني النبي القرب من قومه، فتدخل في الوحي إبان تلقيه، وألقى إليه بتلك الآيات (التي سميت الآيات الشيطانية)، فنسخها الله بالآيات الصادقة. (أنظر: النعماني، شاكر فضل الله: الجذور الوثنية للديانة الإسلامية، دراسة منشورة على الانترنت).

26 علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، م.س. الجزء الخامس، ص 367.

27 ابن هشام: السيرة النبوية، الجزء الثاني، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، 1987، ص 99.

28 استمر تعدد الزوجات بعد الدعوة المحمدية وتم تحديده حسب التفسيرات الفقهية بأربع زوجات، علماً أن الآية الثالثة من سورة النساء أثارت وتثير سجالات قوية في تاريخ الإسلام الكلاسيكي والمعاصر.

29 الطبري، ابن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن، م.س، الجزء الرابع، ص 153.

30 علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب، م.س، الجزء الرابع، ص 642.

31 المصدر نفسه، ص 636.

32 انظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، الجزء الرابع، دار الاستقامة، القاهرة، 1939، ص 185. انظر أيضاً: جواد، علي: المفصل في تاريخ العرب، م.س، الجزء الخامس، ص 563.

33 المرنيسي، فاطمة: الحريم السياسي، النبي والنساء، تعريب عبد الهادي عباس، دار الحصاد، دمشق، الطبعة الثانية، 1993، ص 154.

34 علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الثامن، نسخة إلكترونية.

35 انظر: عاقل، نبيه: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، د.ت. دمشق، ص 213–212؛ انظر أيضاً: صباغ، ليلى: المرأة في التاريخ العربي، م.س، ص 294.

36 الأصفهاني، أبو فرج: الأغاني، مطبعة دار الكتاب المصرية، القاهرة، 1927، الجزء التاسع، ص ، 143–142.

37 يرد في كتاب المؤرخ السوري عمر رضا كحالة (ت 1987) أنها «كانت «كاهنة جاهلية،

ذات حزم ورأي ونفوذ فكانت تغزو بقومها طيء برأيها. فأغارت بطيءعلى إياد بننزار بنمعد، فظفف رتبهم وغنمت وسبت، فأصابت فتى جميلاً فمكنته من نفسها فحبلت منه، فلم تلبث أن دنا وقتا لغزو فقالوا لها. الغزو. فقالت: رويدا لغزو ينمرق [أي أم هل الغز وحتى يخرج الولد فأرستلها مثلاً]. كحالة، عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، طبعة مزيدة وفيها مستدرك، الجزء الأول، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت، ص 452

38 المرجع نفسه، ص 383. لقراءة حداثية عن سجاح نحيل على: الوريمي بوعجيلة، ناجية، زعامة المرأة في الإسلام المبكّر ين الخطاب العالِم والخطاب الشعبي، دار الجنوب، تونس، 2016.

39 علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، نسخة إلكترونية.

40 راجع: منى، زياد، بلقيس امرأة الألغاز وشيطانة الجنس، دار رياض الريس، بيروت، الطبعة الأولى، 1997.

41 المرنيسي، فاطمة: الحريم السياسي، م.س، ص 147.

42 أوردت المصادر الإسلامية أن هند من أكلة لحوم البشر، فقيل إنها أكلت كبد حمزة عم النبي الذي كانت تكرهه. (انظر: ابن هشام: السيرة النبوية، الجزء الثالث،ص 96) وتلفت مصادر إلى أن إفراط هند على ساح معركة أحُد، يعود إلى رغبتها الجامحة للانتقام من عم النبي لأنه كان قد قتل عمها شعبة، وساهم في الكمائن التي أدت إلى موت والدها عتبة.

43 صباغ، ليلى: المرأة في التاريخ العربي، م.س، ص 341.

44 الألوسي، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق محمد بهجة الأثري، الجزء الثالث، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1999، ص 43.

45 قرامي، آمال: الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية: دراسة جندرية، دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 2007، ص 94.

46 ظاهرة الوأد لم تكن تخصّ العرب وحدهم، فعادة نذر نحر الأولاد الأوائل وتقديمهم قرابين للإلهة كانت معروفة عند الشعوب السامية. لعب العامل الاقتصادي دوراً هاماً في تفاقم هذه الظاهرة، تحديداً في زمن الكوارث، وكان العبرانيون يضحون بأبنائهم الأبكار، ويبدو أن القبائل البدوية كانت تعمد عند حلول القحط والأوبئة وغيرها إلى قتل المولودة حتى تتمكن من إعالة الذكور من أبنائها، نظراً لاعتقاد القوم أن الذكر أنفع من الأنثى، وهو الجدير بالعيش. انظر: قرامي، آمال: الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية، م.س، ص 95–94.

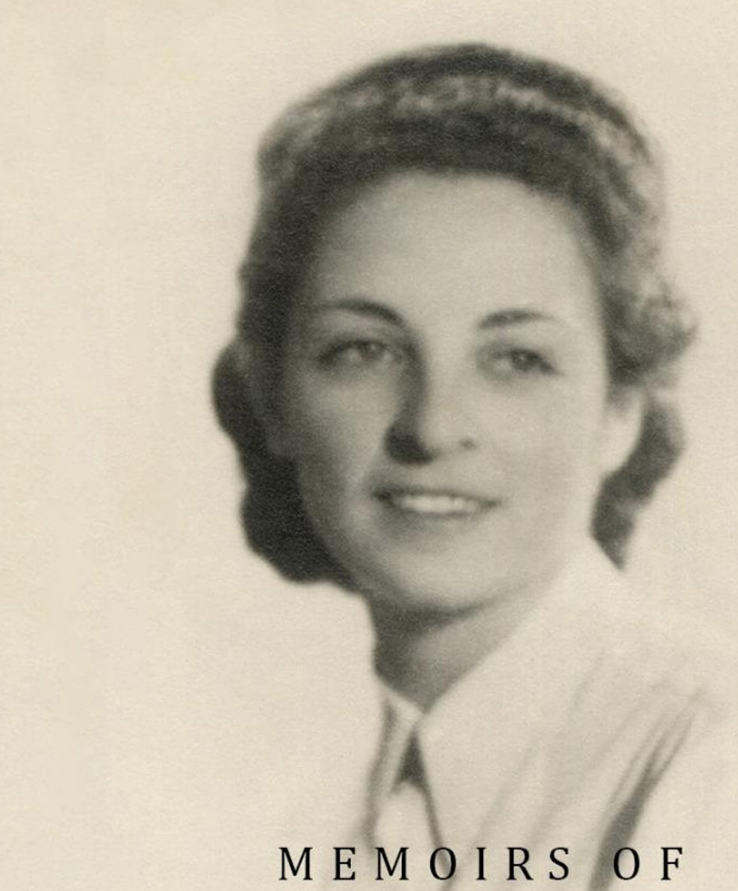
47 الطبري، ابن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن، م.س، الجزء الثامن، ص 18.

48 صباغ، ليلى: المرأة في التاريخ العربي، م.س، ص 232.

49 خليل، خليل أحمد: المرأة العربية وقضايا التغيير، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1985، ص 38.

50 يورد الإخباريون أن الرسول قال لأم عطية الخاتنة: «أشمّيه ولا تنهكيه، فإنه أسرى للوجه، وأحظى عند البعل». (انظر: علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب، م.س، الجزء الرابع، ص 637).

51 قرامي، آمال: الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية، م.س، ص 86.
52 اين القيم، الجوزية، تحفة المودود بأحكام المولود، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص 103.
53 قرامي،آمال،الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية، م.س، ص 87.
54 كتب فرويد لأول مرة عن عقدة الخصاء سنة 1908، واعتبرها جزءاً من النظرية الجنسية الطفلية، انطلاقاً من معتقد يطاول كل الأطفال: بأن العالم مكوَّن من نوع واحد يتمتع بامتلاك الذكر، وتتزعزع عنده هذه النظرية عندما يتبين له أن هناك طرفاً آخر ينقصه هذا العضو، فتبدو له أولوية الذكر. وهوام الخصاء يأخذ صوراً متعددة في حياة الراشد الواقعية والخيالية. ويقول فرويد لا يوجد إلاّ الذكر، وهي المرحلة المسماة بالقضيبية، «فالوس» وهي تشمل الطفل والطفلة على السواء، ويحض فرويد التصور النفسي لوجود الفرْج، فهو لا يعطي أي أهمية لهذه المرحلة، الماقبل أوديبية إلاّ للقضيب سواء كان ذلك عند الطفل أو الطفلة. لكن فرويد يخلص أيضاً الى خوف الذكر من أن يبتلع الفرج قضيبه. انظر: حب الله، عدنان: التحليل النفسي للرجولة والأنوثة من فرويد إلى لاكان، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، 2004، ص ص 113–111.
55 عفيفي، عبد الله: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، الجزء الأول، م.س، ص –101 102.
56 المرجع نفسه، ص 103.
57 الألوسي: بلوغ الأرب،م.س، الجزء الثاني، ص 180.
58 بيهم، محمد جميل: المرأة في التاريخ والشرائع، م.س، ص 156.
59 الزمخشري، أبو القاسم: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، الجزء الثالث، ص، 225.
60 لاحق «مأزق العار» في أبعاده القبلية/ الذكورية المرأة عبر العصور. ما زالت مجتمعات عربية وإسلامية عدة تعد أجساد النساء ملكية خاصة للعائلة أو الأب، ويتم ضبط أو منع النساء من حرية التصرف بأجسادهن ومتعتهن الجنسية خارج الزواج بدعوى الشرف المرتبط بغشاء البكارة. الجدير بالذكر أن العديد من القوانين العربية والإسلامية تخفف من عقوبة قتل النساء على أساس نشاطهن الجنسي تحت باب ما يسمى «جريمة الشرف».
61 خليل، خليل أحمد: المرأة العربية وقضايا التغيير، م.س، ص 39.
62 المرجع نفسه، ص 35.



MEMOIRS OF

JULIETTE ELMIR SA'ADEH

Syrian Social Nationalist, Reformer, Political Prisoner

Translated by Mazen Naous

استخدام مصادر المعلومات في الأبحاث التربوية *

ساندي فارس

أستاذة جامعية

* دراسة ارتكزت الى معلومات مجلة الأبحاث التربوية في الجامعة اللبنانية من العام 2006 الى العام 2017

المستخلص

تسعى هذه الدراسة الى الكشف عن خصائص مصادر المعلومات المعتمدة في الأبحاث المنشورة في مجلة الأبحاث التربوية خلال الفترة 2004 – 2017، من ناحية العدد، النوع، التاريخ، اللغة، طريقة التنظيم وذكر المصادر ومدى توافر عملية استشهاد أبحاث أساتذة في كلية التربية. لقد تمّ استخدام المنهج البيبليومتري على عينة من 69 بحثاً تحتوي على 1608 مصدراً.توصّلت الدراسة الى عدة نتائج من أهمها: سعي الباحثين لاستخدام مصادر حديثة، إقتصار الأبحاث المكتوبة باللغة الإنكليزية على استخدام المصادر الإنكليزية، غلبة استخدام الكتب، الطلاب الباحثون هم الفئة الوحيدة التي قامت بذكر جميع المراجع في متن البحث وآخره، تطوّر في طريقة تنظيم لائحة المصادر،انعدام عملية استشهاد بحث منشور في مجلة الأبحاث التربوية في بحث آخر داخل المجلة وأيضاً استشهاد أبحاث من إعداد باحثين من كلية التربية في البحث قيد الدرس.

وقد أوصت الدراسة بالتركيز بشكل أكبر على مصادر المعلومات المحلية والعربية وبتحويل مجلة كلية التربية الى مجلة إلكترونية وتفعيل عملية استشهاد الأبحاث المنشورة بين أساتذة الكلية.

الكلمات المفتاحية

مصادر المعلومات، الأبحاث التربوية، نقل المعرفة.

1. المقدمة

كثرة المشاكل التي تهيمن على عالمنا وضرورة حلّها زادت من أهمية البحث العلمي؛ كونه عبارة عن نشاط إنساني يتّسم باتباع قواعد واضحة ومنظمة ويهدف الى حل مشكلة أو استقصاء عن وضع معيّن أو تصحيح فرضية أو التحقق من صحة نتائج توصّلت إليها دراسات سابقة والاستفادة منها.لدوران عجلة التطوّر المعرفي، يُكمل الانسان من النقطة التي وصل اليها الآخرون ويسعى الى تطويرها بفتح آفاق جديدة، كذلك الأمر لدى الباحث منتج المعرفة ومطوّرها(الديب، 2016، ص3). فعند إعداد بحث علمي، يقوم الباحث بالإطّلاع وتجميعمصادر المعلومات التي تتشابه مع موضوع بحثه، الأمر الذي يوفّر التفاصيل العلمية الدقيقة والاتجاهات البحثية المناسبة. وبعد التعرّف على المصادر المحتملة لبحثه عليه التأكّد من درجة موثوقيتها ومعرفة كيفية إستخراج المعلومات منها واستخدامها وتطويرها عند كتابة بحثه.

مصادر المعلومات هي الأوعية أو الوسائل أو القنوات التي يمكن عن طريقها نقل المعلومات، لذلك كلّما كانت حديثة ومتنوّعة كلّما زادت من أهمية البحث العلمي بشكل عام والتربوي بشكل خاص (جعجع، 2014، ص 12).

2. الاشكالية

بيّنت الدراسات في العالم العربي أنّ احد أهمّ معايير البحث العلمي هو توافر المصادر والمراجع في الموضوع. حداثة وتنوّع مصادر المعلومات يزيدان من اهمية البحث وهنا تكمن الصعوبة في عملية اختيار المصادر المناسبة للمواضيع البحثية المطروحة (جواد وعبدالله، 2009، ص 2). من هذا المنطلق،تبرزالحاجة لدراسة خصائص مصادر المعلومات المستشهد بها من قبل الباحثين في مجلة الأبحاث التربوية وبالتالي معرفة أشكال هذه المصادر، عددها، تاريخها، لغاتها وأنواعها، ذكرها في متن البحث وطريقة تنظيمهافي لائحة المراجع. كما تهتمّ الدراسة بمعرفة مدى استعانة الباحثين لأبحاث زملائهم كمصادر معلومات ساعدتهم لإعداد أبحاث جديدة.

3. أسئلة الدراسة

تتفرّع من إشكالية البحث الاسئلة التالية :

ما مدى توفّر المصادر في الأبحاث التربوية من حيث عددها، تاريخها، لغتها، نوعها؟

الى أي حدّ تمّ ذكر جميع المصادر في متن البحث وفي آخره ؟

كيف تمّت عملية ترتيب المصادر في آخر الأبحاث؟
الى أي مدى قام الباحثون باستشهاد أبحاث زملائهم كمصادر للمعلومات؟

4. أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة الى تحديد خصائص مصادر المعلومات التي استعملها الباحثون التربويون لإعداد أبحاثهم المنشورة في مجلة الأبحاث التربوية من حيث سنة النشر، اللغة، النوع، مدى صحّة ذكر المصادر في متن البحث وفي آخره، طريقة ترتيب المصادر في آخر البحث. بالنسبة لنوع المصادر المستخدمة في الأبحاث التربوية، كان لا بدّ من تقسيمها بين مصادر ورقية ومصادر إلكترونية. ولكن عند قراءة عيّنة من المصادر في لائحة المصادر تبيّن أنّ عدد قليل جداً من الباحثين قد ذكروا الموقع الإلكتروني للمرجع المُستخدم، لذلك تمّ تصنيف المرجع كمصدر الكتروني في حال ذكر الباحث للموقع الإلكتروني.

حدود الدراسة

الحدود التي التزمتها الباحثة لإعداد هذه الدراسة هي التالية :
الحدود المكانية : إقتصرت هذه الدراسة على مصادر المعلومات المستخدمة في الأبحاث التربوية المنشورة في مجلة الأبحاث التربوية باعتبارها مجلة علمية محكّمة تنشر أبحاثاً تربوية وصادرة عنكلية التربية في الجامعة اللبنانية.
الحدود الزمانية : ركّزت هذه الدراسة على تحليل مصادر الأبحاث المنشورة منذ العام 2004 حتى العام 2017.

5. مصطلحات الدراسة

منبينأهمّالمفاهيمالواردةفيهذهالدراسة:
مصادر المعلومات :
مجموعة الوثائق كالدراسات، الكتب، المجلات العلمية والرسائل الجامعية التي يحصل منها الباحث على المعلومات التي تحقّق احتياجاته (جعجع، 2014، ص 22).

الاساتذة الباحثون :

في دراستنا، الاساتذة الباحثون هم الاساتذة الذين يقومون بوظيفة التدريس في كلية

التربية في الجامعة اللبنانية، إضافة الى وظيفة البحث العلمي المستمرّ للوصول الى نتائج علمية دقيقة حديثة.

مجلة الابحاث التربوية :

هي مجلة أكاديمية دوريّة محكّمة ورقية تصدر عن كلية التربية في الجامعة اللبنانية منذ العام 1973. تتضمّن هذه المجلة أعمال الباحثين المساهمين في إنتاج المعرفة وتطويرها، أكان عن طريق الأبحاث الفردية أو من خلال أبحاث رسائل الماستر وأطاريح الدكتوراه. هدفها الإرتقاء بالمعرفة التربوية في لبنان من طور النقل والتقليد إلى طور الإبتكار والتجديد، ما يسهم في رفع مستوى الإنتاج البحثي والتعليم الجامعي والتطوير المهني (خليل،2016).

6. منهج الدراسة

نظراً الى طبيعة دراستنا وموضوعها وأهدافها، تمّ استخدام المنهج البيبليومتري كونه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمصادر المعلومات وتحليل الاستشهادات. البيبليومترية هي مجموعة من الأساليب الكمية تساهم في استخراج المعرفة والتي لا يمكن الحصول عليها من خلال أدوات أخرى كالمقابلة والاستمارة (جعجع، 2014، ص 25). تتألّف عينة الدراسة من 69 بحثاً منشوراً في مجلة الأبحاث التربوية من قبل الأساتذة في كلية التربية في الجامعة اللبنانية خلال الفترة ما بين 2004–2017 وبلغ مجموع الاستشهادات فيها 1608 استشهاداً.

7. عرض النتائج ومناقشتها

– عدد المصادر

أظهرت النتائج أنّ مجموع عدد المصادرالمُستخدمة في الأبحاث التربوية يساوي 1587 أقل من المجموع العام الذي يبلغ 1608 وهذا يعود الى عدم كتابة تاريخ 21 مرجعاً من مجموع المصادر المتوفّرة في الابحاث التربوية المنشورة.

– تاريخ المصادر

أقلّ نسبة من المصادرهي التي يتراوح تاريخها الى ما قبل ال1970وهذه المصادرعائدة لبحث منشور في العدد 23 ومتمحور حول شخص نجيب الحدّاد – شخصية تاريخية – ما ألزم الباحث العودة الى دراسات قديمة جداً في بحثه.

أمّا في العدد الصادر عام 2004 ، تتفوّق المصادر التي يترواح تاريخ نشرها ما بين العامين 1991 و 2000. في الاعداد الباقية من مجلة الأبحاث التربوية (2008–2017) تعود النسبة الأكبر للمصادر التي يتراوح تاريخ نشرها ما بين 2001 و 2010. هذه إشارة إيجابية تعكس سعي الباحثين لاستخدام مصادر حديثة وهذه نتيجة تتشابه الى حدّ ما مع نتيجة دراسة خليفة (2005) التي بيّنت استخدام الباحثين للمصادر التي صدرت خلال أو قبل عام من سنة صدور بحثهم.

– لغة المصادر

كشفت النتائج استخدام المزيج بين المصادر الفرنسية والإنكليزية بشكل كبير في الأبحاث التربوية المنشورة وذلك بنسبة 24.6% يليها استخدام المصادر الإنكليزية فقط بنسبة 20.3%. أمّا اكتفاء الباحث باستخدام المصادر العربية فقط فحصل في بحث واحد وهو البحث الأدبي الذي يتمحور حول شخص نجيب الحدّاد. أمّا عن نسبة استخدام المصادر بحسب لغتها فلقد هيمنت اللغة الإنكليزية على مجموع المصادر المستخدمة في الأبحاث التربوية وذلك بنسبة 46% تليها اللغة الفرنسية بنسبة 40% وأخيراً العربية بنسبة 14%. وفي ذلك مفارقة ذات دلالة: إمّا أنّ الباحثين لم يجدوا مصادر عربية مختصّة بالموضوع المُعالج أو أنّ المصادر العربية لا تشكّل أي قيمة مقارنة بالمصادر الأجنبية وهذه أدلّة بحدّ ذاتها على ضعف الأبحاث التربوية وقلّة ثقة الباحثين باستخدام المصادر العربية. تتّفق هذه النتيجة مع إحدى النتائج التي توصّلت إليها دراسة اسطفان (2004) فيما يخصّ تفوّق المصادر المكتوبة باللغة الإنكليزية ولكن الخلاف يقع في باقي اللغات إذ لم تكن حصة المصادر المكتوبة باللغة العربية مرتفعة كما كانت في دراسة اسطفان. الاستخدام الضئيل للمصادر العربية نتيجة تتّفق مع ما توصّل إليه زايد (2004)، خليفة (2005)، الشوابكه (2010) وجعجع (2014) و لكن تختلف هذه النتيجة مع ما توصّل إليه جواد وعبدالله (2009) في دراستهما التي أظهرت تفوّق المصادر المكتوبة باللغة العربية على الأبحاث التربوية المنشورة في مجلة كلية المعلمين.

بالنسبة للعلاقة ببين لغة البحث والتنوّع اللغوي للمصادر، إقتصرت لغة المصادر المستخدمة في الأبحاث المكتوبة باللغة الإنكليزية على هذه اللغة بينما الأبحاث المكتوبة باللغة العربية مصادرها متنوّعة من حيث اللغة بين فرنسيةوإنكليزية. أمّا الأبحاث المكتوبة باللغة الفرنسية فتوزّعت لغة مصادرها بين فرنسي فقط وفرنسي انكليزي.

– نوع المصادر

يلخّص الجدول رقم 1 أدناه النتائج المتمحورة حول نوع المصادر :

جدول رقم1 : نوع المراجع

أعلى نسبة من المصادر المُستخدمة تعود للكتب وذلك بنسبة 45.6% وبشكل خاص تلك المكتوبة باللغة الفرنسية تليها الإنكليزية ومن ثمّ العربية.تفوّق استخدام الكتب يتطابق مع ما توصّلت إليه دراسة اسطفان (2004) ومع دراسة جواد وعبدالله (2009).

لقد تمّ استخدام 136 مقالة في الأبحاث التربوية المنشورة ومنها 118 مقالة إنكليزية. تحتوي الأعداد الثلاثة الأخيرة على النسبة الأكبر من المقالات المُستخدمة كمصادر في الأبحاث. تتّفق هذه النتيجة مع ما توصّلت اليه جعجع (2014) حيث كانت الحصة الأكبر من المصادر تعود للمقالات.

أمّا المواقع الإلكترونية فتأتي بالمرتبة الثالثة وذلك بنسبة 8.7%،والأكثر استخداماً هي المواقع الإلكترونية الإنكليزية، تليها الفرنسية وأخيراًالعربية.

أعلى نسبة من التقارير والنشرات الحكومية تتمركز في العدد 2008. يتضمّن هذا الأخير أبحاثاً أُنجزت في ظلّ المشروع التعاوني الفرنسي BIOHEAD Citizen ويُلحظ الاستخدام الأكبر للتقارير باللغة الإنكليزية في هذا العدد كما يحتوي هذا الأخير على نسبة من الأوراق العلمية المقدّمة في مؤتمر أو ندوة وبشكل خاص باللغة الفرنسية. وهذا يعود الى كثرة اقتباسات الباحثين اللبنانيين والفرنسيين لأوراق مقدّمة في مؤتمرات وندوات.

أمّا رسائل الماستر وأطروحات الدكتوراه فشكّلت فقط 1.2% من مجموع المصادر. أتت الموسوعات والمراسيم في المراتب الأخيرة بنسب أقل من 1%، إذ لم يتمّ اقتباس الموسوعات سوى في بحث واحد.أمّا المراسيم فتمّ استخدامها في بحثين فقط وهي مراسيم صادرة عن وزارة التربية وتخصّ الأنظمة الداخلية للمدارس الرسمية الثانوية التكميلية والإبتدائية.

– ذكر المصادر

من خلال قراءة المصادر في الأبحاث التربوية اتّضح لنا أنّ 334 مرجعاًمن مجموع المصادر البالغ 1587 ما يساوي نسبة 21% لم يتمّ ذكرها في متن النصوص البحثية في حين تمّت كتابتها في لائحة المصادر. وأيضاً المُلفت أنّ 55 بحثاً من المصادر الموجودة في الأبحاث التربوية ما يساوي نسبة 3.5% لم يتمّ ذكرها في آخر البحث

إنّما تمّ استعمالها في سياق البحث. بالتالي تدلّ هذه النتائج السلبية على عدم دقّة بعض الباحثين في كتابة مصادرهم مقارنة مع ما هو مكتوب في متن البحث مع لائحة المصادر. ومن جهة ثانية، يمكن أن يكون تركيز البعض منهم على كتابة المصادر في لائحة المصادر دون ذكرها في متن البحث وذلك لتضخيم لائحة المصادر.

يُظهر الجدول رقم 2 العلاقة الترابطية بين رتبة الباحث وعدد المصادر غير المذكورة في آخر البحث. وتبيّن أنّ العدد الأكبر من المصادر غير المذكورة في آخر البحث تعود للباحثين ذوي رتبة "أستاذ" وينخفض هذا العدد تدريجياً مع الباحثين ذوي رتبة "استاذ مساعد" و "استاذ معيد" لينعدم مع الباحثين الطلاب.

رتبة الباحث	عدد المصادر غير المذكورة في آخر البحث
استاذ	35
استاذ مساعد	13
استاذ معيد	7
طالب	0

جدول رقم2 :العلاقة الترابطية بين رتبة الباحث وعدد المصادر غير المذكورة في آخر البحث

هذه النتيجة غير مقبولة وتتعارض مع أصول كتابة الأبحاث العلمية مهما كانت صفة الباحث طالب، أستاذ، أستاذ مساعد، معيد. إذ في حال لم يذكر الباحث في متن البحث للمرجع المستخدم فهو يمنع على القارئ معرفة مصدر المعلومة وفي حال لم يذكر المرجع في لائحة المصادر لن يتمكّن القارئ في هذه الحالة من اللجوء الى المرجع بكامل تفاصيله.

– طرائق تنظيم المصادر

بالنسبة لترقيم المصادر : لم يتمّ ترقيم المصادر في الأبحاث المنشورة في الأعداد الأربعة الأولى. أعلى نسبة للأبحاث التي تمّ في آخرها ترقيم المصادر عائدة للعدد الأخير المنشور عام 2017 .

بالنسبة لترتيب المصادر بحسب النوع واللغة : لم يتمّ هذا الأمر في الأعداد الثلاث الاولى. وارتفعت نسبة الأبحاث التي تمّ ترتيب مصادرها بحسب النوع واللغة في العدد 27 كحد أقصى.

– عدد استشهادات أبحاث أخرى للباحثين في كلية التربية في البحث قيد الدرس
بعد القراءة التفصيلية للمراجع المستخدمة في جميع الأبحاث المنشورة، تبيّن أنّه لم يتمّ استشهاد بحث منشور في مجلة الأبحاث التربوية في بحث آخر داخل المجلة ولم يتمّ استشهاد أبحاث من إعداد باحثين من كلية التربية في البحث قيد الدرس.
وبحسب فارس (2020)، من أحد الأسباب المباشرة لهذه النتيجة هو النشر الورقي للمجلة وعدم إنشاء موقع خاص بمجلة الأبحاث التربوية يسمح للمجتمع كاملاً بالولوج الى الأبحاث التربوية والاستفادة من النتائج للإنطلاق من خلالها الى أبحاث جديدة.

8. خلاصة

بالعودة الى الاسئلة التي تمّ طرحها في بداية البحث وبعد عرض ومناقشة النتائج التي تمّ الحصول عليها حول عملية استخدام مصادر المعلومات في الأبحاث التربوية المنشورة في مجلة الأبحاث التربوية منذ العام 2004 وحتى العام 2017، يمكن تلخيص نتائج الدراسة في ما يلي :

1. عدد المصادر : لقد بلغ مجموع المصادر المُستخدمة في الأبحاث التربوية المنشورة 1587 مصدراً؛
2. سنوات النشر : في أعداد مجلة الأبحاث التربوية المنشورة منذ العام 2008 وحتى العام 2017 ، تعود النسبة الأكبر للمصادر التي يتراوح تاريخ نشرها ما بين 2001 و 2010 وهذا خير دليل على سعي الباحثين لاستخدام مصادر حديثة؛
3. لغة المصادر : استخدام المزيج بين المصادر الفرنسية والإنكليزية بشكل كبير. بالنسبة للعلاقة بين لغة البحث والتنوّع اللغوي للمصادر، بيّنت الدراسة إقتصار الأبحاث المكتوبة باللغة الإنكليزية على استخدام المصادر الإنكليزية. يعود هذا الأمر الى كون المصادر الإنكليزية لها الحصة الاكبر في المجتمع البحثي ما يسهّل على الباحث الذي يقوم بإعداد بحث باللغة الإنكليزية باللجوء إليها دون حاجته للترجمة وإعادة صياغة الأفكار والمعلومات ؛
4. نوع المصادر : أعلى نسبة من المصادر المُستخدمة تعود للكتب، ولعلّ السبب الأبرز هو سهولة حصولهم عليها أو إحتوائها المعلومات التي يحتاجون إليها لتلبية متطلّباتهم البحثية؛
5. ذكر المصادر : 334 مرجعاً من مجموع المصادر البالغ 1587 ما يساوي نسبة 21% لم يتمّ ذكرها في متن النصوص البحثية؛ 55 مرجعاً ما يساوي نسبة 3.5% لم

يتمّ ذكرها في آخر البحث إنّما تمّ استعمالها في سياق البحث. الطلاب الباحثون هم الفئة الوحيدة التي قامت بذكر جميع المراجع في متن البحث وآخره.تدلّ هذه النتائج السلبية على عدم دقة بعض الباحثين في كتابة مصادرهم ومقارنة ما هو مكتوب في متن البحث مع لائحة المصادر؛

6. طرائق تنظيم المصادر : شهد العدد 27 تطوّراً جزئياً في عملية ترقيم المصادر في اللائحة وترقيمها بحسب النوع واللغة.

7. انعدام عملية استشهاد بحث منشور في مجلة الأبحاث التربوية في بحث آخر داخل المجلة وأيضاً استشهاد أبحاث من إعداد باحثين من كلية التربية في البحث قيد الدرس. تعكس هذه النتيجة نقص في إطّلاع الباحثين المنتمين الى كلية التربية على ابحاث زملائهم منشورة أو غير منشورة في مجلة الأبحاث التربوية؛ ما يقلّل من رسالة المجلة التي تتحوّل من كونها مرجعاً علمياً يعتمد عليه التربويون لإعداد أبحاث جديدة استناداً لما توصّلت اليه الابحاث التربوية السابقة الى مساحة داخلية محصورة في حرم كلية التربية ينتفع منها الأساتذة فقط للنشر السهل والسريع.

لذلك واستناداً للنتائج التي تمّ التوصّل اليها، توصي الباحثة بالتركيز بشكل أكبر على مصادر المعلومات المحلية والعربية الأمر الذي يؤثّر إيجاباً على بناء واستدامة اقتصاد المعرفة الذي يشكّل تحدياً رئيساً أمام الدول العربية وبشكل خاص لبنان. وأيضاً توصي الباحثة بتحويل مجلة كلية التربية الى مجلة إلكترونية وتفعيل عملية استشهاد الأبحاث المنشورة بين أساتذة الكلية الأمر الذي يسمح بجعل المجلة تخضع لمعامل التأثير العربي وربما العالمي وهنا تكون الأبحاث قد خرجت من حدود كلية التربية في الجامعة اللبنانية لترتبط بالبلد، بالعالم العربي وبالعالم أجمع.

قائمة المصادر العربية

– الديب، وائل. (2016). مهارات كتابة البحث العلمي، جامعة الملك فيصل : السعودية. تمّ استرجاعها بتاريخ 20 شباط، 2018 من https://sdl.edu.sa.

– الشوابكه، ي. (2010). استخدام مصادر المعلومات الإلكترونية المعتمدة على الانترنت في الرسائل والأطروحات التربوية : دراسة تحليلية للاستشهادات المرجعية. المجلة الأردنية في العلوم التربوية 6(4) ، الأردن.

– جعجع، ه. (2014). مصادر المعلومات في الأبحاث التربوية العربية. رسالة ماستر. الجامعة

اللبنانية : لبنان.

– جواد، س. و عبدالله، خ. (2009). خصائص مصادر المعلومات التربوية للبحوث المنشورة في مجلة كلية المعلمين / الجامعة المستنصرية : دراسة تحليلية لممدة من 2000–1994. مجلة كلية التربية، 4، ص. 702–686.

– خليفة، م. (2005). استخدام مصادر المعلومات الإلكترونية في مجال المكتبات والمعلومات : دراسة تحليلية للاستشهادات المرجعية بمصادر الانترنت في مقالات الدوريات العربية. رسالة ماستر. جامعة القاهرة: القاهرة، مصر.

– خليل، ايمان. (2016). افتتاحية العدد. مجلة الابحاث التربوية، 26، ص7–6.

– زايد، ي. (2004). المصادر الإلكترونية المتاحة عن بعد في الاستشهادات المرجعية : دراسة تحليلية لأطروحات قسم المكتبات والوثائق والمعلومات آداب القاهرة 2000–1983 متاح في http://www.mktaba.org/vb/showthreadphp?t=503

– فارس، س. (2020).البحث العلمي في التربية وتحدّيات مجتمع المعرفة :دراسة الابحاث المُنتجة في كلية التربية في الجامعة اللبنانية. رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، الجامعة اللبنانية.

قائمة المصادر الأجنبية

Stephan-Hachem, M. (2004). Les moyens de la recherché en scienc- - es de l’information dans les pays arabes : l’exemple de l’Egypte et de .l’Arabie Saoudite. Documentaliste, 41 (4-5), 252-261

التوافق النفسي والتكيّف الاجتماعي وعلاقتهما بظاهرة إدمان المخدرات *

محمد عبد الأمير جابر

أستاذ مساعد في علم النفس في الجامعة اللبنانية، الفرع الخامس

ملخص البحث

تحدّدت مشكلة البحث في دراسة «علاقة التوافق النفسي والإجتماعي بظاهرة إدمان المخدرات» والتوصل لمقترحات لزيادة هذا التوافق. لتحقيق ذلك أجري البحث على (147) مفردة، وتمّ جمع البيانات بالإعتماد على المنهج الوصفي باستخدام مقياس التوافق الشخصي والإجتماعي لمدمني المخدرات، وقد جاءت النتائج لدى عينة البحث مظهرة وجود سوء توافق نفسي واجتماعي حيث إن القوة النسبية للمقياس بلغت (69.69) بمتوسط حسابي مرجح (2.082) وعلاقة ارتباطية بين أبعاد المقياس(0.299). وهناك فروق ذات دلالة إحصائية بين البعدين، وعلاقة عكسية ضعيفة غير دالة معنوياً بين متغير السن والحالة الاجتماعية والحالة العملية والتوافق الشخصي والاجتماعي للمدمن بنسبة (0.72)، (0.103). هناك ارتباط بين الحالة التعليمية والحالة العملية والتوافق النفسي والاجتماعي لمدمن المخدرات عند مستوى ثقة 0.05 و 0.001 بنسبة (10.203) و (0.269) والقوة النسبية لمؤشر الرضا عن الذات والاعتماد عن الذات والإحساس بالقيمة الذاتية وشعور الفرد بالمسؤولية السائدة في المجتمع (66.53) و(66.53) و(66.53) و(55.25) و(68.052) و (72.23)، ومتوسط الوزن النسبي (29.34)و (29.34) و(29.34) و(32.46) و(30.011) و(31.82)، والمتوسط الحسابي المرجح (2.167) بالترتيب.

* دراسة عيّنة من المدمنين في مركز تمكين في مدينة النبطية — جنوب لبنان أنموذجًا

اتضح من نتائج العلاقة الإرتباطية بين متغيرات السن والحالة الإجتماعية ونوع الوظيفة والتوافق الشخصي والإجتماعي الناتج عن إدمان المخدرات ان هناك علاقة عكسية ضعيفة غير دالّة معنوياً حيث بلغ معدل الإرتباط بينهما (0.72) و (0.103) .
كذلك، اتضح من نتائج العلاقة الإرتباطية بين متغير الحالة التعليمية والتوافق الشخصي والإجتماعي الناتج عن إدمان المخدرات بمقدار الإرتباط (10.203) عند مستوى ثقة (0.05) .
كذلك، اتضح من نتائج العلاقة الإرتباطية بين متغير الحالة العملية والتوافق الشخصي والإجتماعي الناتج عن إدمان المخدرات ، أن هناك ارتباطاً ذا دلالة إحصائية عند مستوى ثقة (0.001) بنسبة (0.269).

الكلمات المفتاحية:
التوافق النفسي التوافق الاجتماعي إدمان المخدرات

Relationship of Psychological And Social Adjustment with Drug Adictoin Phenomenon

Abstract

This research was designed to study the "relationship of Psycologi-cal and social compatibility with drug addition and reaching Proposal to increase subjects compatibility to archive this the study sample was (147) cas, and data collection have been relying on the descriptive method using a measure the results confirmed thestudy sample revealed Psycological and sociall compatibility (69.69) with a mean weighted (2.082) and there was a relationship between the dimensions of the scale (02.99) and there were a statistically significant differences between the poration, and there is a weak non singnificant inverse relationhip between the variable agé, marital status, employment status, and educational status, with the personal and social compatibility resulting from drug addiction (0.072) (0.103), there was a correlation between educational and spractical status of the drug addict with his Psychological and social compatibility at a confidence level 0.05 and 0.001 by (0.203A) and (0.269). the relative strength to indicators complacency, self – relatiance, (for a sense og self worth), (to the individucaul's sense of

social responsibility), the sucesstul formation of social relationships, and the disposition with the limits of social norms Prevading in society (66.53), (66.53), (66.53), (66.35), (68.052), (72.23) and the average relative weight wss (29.34), (29.34), (29.34), (32.46), (30.011), (31.85) with a mean weighted was (1.992), (2.109), (2.107), (2.028), (2.167) respectively.

Keyword:
- Psycological adjustment.
- Social adjustment.
- Drug addiction.

فصل تمهيدي

المقدمة

إنّ مشكلة تعاطي المخدرات والإدمان من أخطر المشكلات التي يعاني منها الكثير من أفراد مجتمعنا اللبناني خاصة الشباب، حيث أنها مشكلة متشعبة الآثار والأسباب. فهناك من يرى هذه الظاهرة أساسها اجتماعي وينتهي إلى العديد من المشكلات النفسية، وهناك من يراها ذات أساسي نفسي وتنتهي بالعديد من الآثار الإجتماعية، رغم اختلاف وجهات النظر هذه إلاّ أنها تشير إلى أهمية التوافق في الجانبين الذاتي الذي يهدف فيها الفرد إلى أن يغير سلوكه ليحدث علاقة أكثر توافقاً بينه وبين النفس من جهة، وبينه وبين البيئة من جهة أخرى، والتوافق الاجتماعي يهدف إلى العملية التي من شأنها أن توجد وجهات النظر والآراء والأفكار في المجتمع لتحقق حداً أدنى من التفاهم المتبادل فيما يتعلق بالأوضاع الاجتماعية. فتصب السلوك الاجتماعي للمدمن في إطار متوافق مع النظام الاجتماعي ليكون التوافق بنوعيه الذاتي والاجتماعي للمدمن سبباً في حدوث وعلاج هذه المشكلة.

ومن هنا تظهر أهمية العلاج النفسي والاجتماعي للمدمن مع العلاج الطبي للوصول إلى التوافق الشخصي والاجتماعي بكل مستوياته.

أولاً: مشكلة البحث وأسباب اختيارها:

مشكلة إدمان المخدرات من أخطر المشكلات التي يواجهها المجتمع اللبناني حيث تتعدد الأسباب التي يمكن إرجاع تفسير الإدمان إليها كظاهرة. كما ينتج عن تعاطي المخدرات العديد من المشكلات كالمشكلات الاقتصادية والصحية التي تؤثر على الإقتصاد الوطني والمشكلات النفسية والاجتماعية.

كما أنها تؤثر على الفرد والمجتمع. فيكمن خطر مشكلة الإدمان في كونها تحدث في مجتمع نامٍ أولى به أنه ينفق طاقاته وموارده، فيما يخدم التنمية الوطنية وتحسين ظروف المعيشة للمواطنين. كما يكمن خطرها أيضاً في أن أكثر من يعانون منها مواطنون في سن الشباب يمرون بمراحل حرجة من نموهم النفسي والاجتماعي بالإضافة إلى أن مرحلة الشباب هذه مرحلة قمة الانتاج.

ومرضى الإدمان يمثلون خطراً على أنفسهم وعلى أمنهم ونتيجة إنحرافهم، مما يجعلهم عرضة لإضطرابات نفسية أقلها القلق، أي أنهم يمثلون مشكلة اجتماعية واقتصادية خطيرة[1].

إن شخصية المدمن تؤدي بصاحبها إلى سوء التوافق الشخصي أو الإجتماعي إذا توافرت الظروف لذلك، مما يؤثر تأثيراً سلبياً على قدرته على ممارسة حياة طبيعية مفيدة، ويعوقه عن أداء واجبه كاملاً، حيث يصبح المادة المخدرة التي يتعاطاها المدمنون هي الهدف في الحياة، ويعزلون أنفسهم في عالم المخدرات، إذ لا بدّ من مساعدة المدمن على الخروج من عزلته وإيصاله بالمجتمع.

من هنا كانت أهمية التوافق الشخصي والاجتماعي، وأيضاً حتى تتم حماية الجهود المهنية والممارسات لمواجهة هذه المشكلة.

ثانياً: أهداف البحث:

- يهدف البحث إلى تحديد مظاهر التوافق لمدمن المخدرات.
- تحديد مظاهر التوافق الشخصي لمدمن المخدرات.
- تحديد مظاهر التوافق الاجتماعي لمدمن المخدرات.

ثالثاً: أهمية البحث:

- تكمن أهمية البحث الحالي في تزايد حجم الظاهرة عند فئة الشباب بالرغم من كل الجهود التي تبذلها المؤسسات الحكومية لمكافحتها.
- وتفيد الدراسات المختلفة أن انتشار ظاهرة تعاطي المخدرات في العالم عموماً أصبح انتشاراً مخيفاً، وليس غريباً أن يترك آثاراً واضحة في نمو الظاهرة على المستوى المحلي بسبب ارتباطات بين منتجي المخدرات وتجارها ومرويجيها في مختلف بقاع العالم.
- وتكمن أهمية البحث في أنه قد يفسح المجال لدراسات تنبؤية، وتدخل وقائي قبل استفحال المشكلة.

- يعتبر من الأبحاث القليلة في منطقة النبطية — جنوب لبنان، والتي تسهم في دراسة أهم الظواهر النفسية والاجتماعية في البيئة المحلية.

رابعاً: مفاهيم البحث:

1- **مفهوم التوافق:**

يعدّ مفهوم التوافق Adjustement من المفاهيم التي تعددت حولها وجهات النظر حيث تتداخل معه الكثير من المفاهيم مثل التكيف، والتكامل. ومن أهم هذه التعريفات تعريفه بأنه "نتاج تغييرات عضوية أو في التنظيم الاجتماعي أو الجماعة أو الثقافة تسهم في تحقيق البقاء أو استمرارية الوظيفة[1].

كما يعرف التوافق بأنه "المرونة التي يشكل بها الكائن الحي اتجاهاته وسلوكه لمواجهة مواقف جديدة بحيث يكون هناك تكامل بين تعبير الكائن الحي عن طموحه وتوقعات المجتمع ومتطلباته. وكذلك عرّف بأنه العملية التي تتيح للفرد تحقيق احتياجاته، وخفض توتره لاستعادة اتزانه الداخلي، ويتلاءم مع البيئة[2].

للتوافق نوعان: **الأول: التوافق الشخصي**: وهو تلك العمليات الدينامية المستمرة التي يهدف بها الفرد إلى أن يغير سلوكه ليحدث علاقة أكثر توافقاً بينه وبين النفس من جهة، وبينه وبين البيئة من جهة أخرى[3].

والثاني: التوافق الاجتماعي: وهو العملية التي من شأنها أن توحد وجهات النظر والآراء والأفكار في المجتمع، وتحقق حداً أدنى من التفاهم المتبادل فيما يتعلق بالأوضاع الاجتماعية الجديدة، فتصب السلوك الاجتماعي للأفراد والجماعات في إطار متوافق مع النظام الاجتماعي[4].

مفهوم المخدرات:

المخدرات: تعرّف المخدرات بأنها مادة كيميائية تسبب النعاس أو النوم أو غياب الوعي المصحوب بتسكين الألم. ويعرّفها الركابي: المخدرات بأنها كل مادة خام أو مستحضرة أو تخليقية تحتوي على عناصر مسكنة أو مفترة من شأنها إذا استخدمت في غير الأغراض الطبية أن تؤدي إلى حالة من التعود أو الإدمان مسببة الضرر النفسي أو الجسماني للفرد والمجتمع[5].

الإدمان: هو حالة ثملة دورية أو مزمنة محطمة للفرد والمجتمع، وينتج من الاستعمال إلى المتكرر للمخدرات سواء الطبيعية أو المخلقة كيميائياً، سلوك قهري استحواذي اندفاعي

تعودي[1].

الإدمان على المخدرات: هو مرض في الدماغ، يتميز بالقهر في بعض الأحيان لا يمكن السيطرة عليه، هو الاعتماد غير المشروع على المواد المخدرة أو الأدوية[2].

الإدمان حالة من التعود النفسي والجسدي على تعاطي أحد العقاقير، يتولّد عنه رغبة ملحّة على تعاطيه، نتيجة الاستعمال المتكرر للعقار، الأمر الذي يجعل المدمن لا يستطيع الإستغناء عنه والشعور بالألم النفسي والجسدي إذا افتقده.

خامساً: الدراسات السابقة:

- الدراسة العربية:

1- **دراسة أجراها قديح** (2009): هدفت إلى التعرف إلى الخصائص النفسية والاجتماعية لمتعاطي المخدرات ومقارنتها بخصائص أشقائهم، على عيّنة من المتعاطين بلغت (74) وغير المتعاطين بلغت (74). وقد توصلت الدراسة إلى وجود فروق بين المتعاطين وغير المتعاطين في بعض المقاييس الفرعية لإختبار الشخصية متعددة الأوجه وهي (توهم المرض، الإكتئاب، الهيستيريا، الإنحراف السيكوباتي، الفصام، الذكورة / الأنوثة) لصالح المتعاطين، كما يختلف المتعاطون عن غير المتعاطين في العدوان وتقدير الذات السلبي، وعدم الثبات الإنفعالي، والنظرة السلبية للحياة لصالح المتعاطين.

2- **دراسة إيمان صبري** (1990): بعنوان "الإدمان لدى الشباب، دراسة نفسية إجتماعية". وهدفت الدراسة إلى دراسة ماهية العوامل النفسية والاجتماعية للإدمان ومعرفة خصائصه الشخصية وأساليب التنشئة الاجتماعية للمدمنين، والأسباب البيئية المحيطة به والتي تجعله يسلم بضرورة تعاطي المخدر. وجاءت نتائج الدراسة إلى أن الظروف البيئية للفرد والبيئة المحيطة به تكون عاملاً هاماً من أهم العوامل التي تدفع الفرد إلى تعاطي المواد المخدرة، ومن ثم الإدمان عليها، بالإضافة إلى استعداده الشخصي لهذا الإدمان.

3- **دراسة علياء عفان** (2010): بعنوان "المشكلات الإجتماعية الناتجة عن إدمان المخدرات". هدفت الدراسة إلى تحديد ماهية المشكلات الاجتماعية والنفسية الناتجة عن إدمان المخدرات. وقد أظهرت النتائج أن هناك علاقة بين إدمان المخدرات وبين العديد من المشكلات الاجتماعية (سوء العلاقات الاجتماعية للمدمن والتفكك الأسري) وإدمان المخدرات. كما أن هناك علاقة بين إدمان المخدرات والتمركز حول الذات كمشكلات نفسية وإدمان المخدرات.

4- الدراسات الأجنبية:

4-**دراسة "شروستر" وآخرون:** بعنوان "الممارسة العالمية للخدمة الإجتماعية في مجال الإدمان". هدفت الدراسة إلى تأثير الإدمان على السلوك العام بالمجتمع، وأسباب الإدمان والإجراءات المجتمعية المتخذة للتصدي لهذه الظاهرة. وقد بيّنت الدراسة بأن الإدمان يؤدي إلى اضطراب في العلاقات الاجتماعية للمدمن، كما أن العلاقات الإجتماعية تؤثر تأثيراً بالغاً في اتجاه المدمن للإدمان. مما يوضح أهمية التركيز على العلاج الإجتماعي للمشكلة"، كما أن هناك احتياجاً إلى تضافر جميع جهود العديد من المهن لإستعادة توافق مدمني المخدرات مع المجتمع.

—دراسة "**شولفر وآخرون:** بعنوان "إدمان أفراد الأسرة للكحوليات والمخدرات". هدفت الدراسة إلى الكشف عن العوامل المسببة لإنتشار المخدرات بين أفراد الأسرة الواحدة، وما هي طبيعة العلاقات الأسرية التي تدعو إلى تعاطي المخدرات. وقد كان من أهم نتائجها أن العلاج الأسري يمثل نهجاً رئيسياً من منهج العلاج الشامل للإدمان بالمجتمع، لذا لا بد من أن يكون هناك تكامل بين العلاج الأسري والعلاجات الأخرى التي يتم الاعتماد عليها في علاج هذه المشكلة، وهذا ما يؤكد طبيعة العلاقات الاجتماعية داخل أو خارج الأسرة تؤثر تأثيراً بالغاً في انتشار هذه الظاهرة.

—**دراسة "ديكسون"**: بعنوان "المشكلات النفسية والاجتماعية الناتجة عن إدمان المخدرات". هدفت الدراسة إلى تحديد ماهية المشكلات النفسية والاجتماعية الناتجة عن إدمان المخدرات. واستخدم منهج دراسة الحالة على (12) مدمن مخدرات بقصد فحص وتحليل مفاهيم هؤلاء المرضى عن أسرهم.

وقد أظهرت النتائج إلى أن هناك علاقة قوية بين إدمان المخدرات العديد من المشكلات الإجتماعية مثل سوء العلاقات الاجتماعية للمدمن والتفكك الأسري، وإدمان المخدرات؛ كما أن الصفات المشتركة للمدمنين هي نقص التماسك والتواصل الأسري؛ وأن المتعاطون يتميزون بدرجة عالية من الاضطرابات العصابية والإنفعالية والتوتر والقلق وعدم الاستقرار والعلاقات السلبية.

*** التعقيب على الدراسات السابقة:**

أكدت الدراسات السابقة على أن مدمني المخدرات يعانون من مشكلات مرتبطة بالرضا عن الذات وتقديرها مما يدفعه إلى الإدمان. كما أن مدمني المخدرات يعانون من اضطرابات في علاقاتهم الاجتماعية مما يؤثر على أدائهم الوظيفي داخل المجتمع.

وقد كشفت الدراسات أن من أهم الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى حدوث ظاهرة الإدمان

هي وجود المشكلات الأسرية، وأن الذين يتعاطون المخدرات يكونون أكثر قلقاً، ويؤدي إلى الإضطرابات الإنفعالية والعصابية.

وقد اتضح أن مشكلة إدمان المخدرات من أصعب المشكلات التي تواجه المجتمع، فيما يحدثه الإمان من أثار على الفرد وأسرته والمجتمع بأسره.

ومن الملاحظ أن الفئة الأكثر ادماناً في المجتمع هي فئة الشباب، وربما يرجع ذلك إلى تعرضهم إلى العديد من المشكلات التي لا يستطيعون التغلب عليها، مما يكون بهم إلاّ الهروب منها من خلال إدمان المخدرات.

ونظراً لخطورة هذه المشكلة فلا بد من البحث عن أسباب وسبل العلاج لها، ومن ثم يمكن صياغة مشكلة البحث كالتالي:

- تعاطي المخدرات يعدّ مشكلة إجتماعية مرتبطة بأفكار خاطئة لدى المتعاطين.
- الإدمان من وجهة نظر نفسانية يعدّ سوء توافق بين الفرد ونفسه وبينه وبين بيئته، ويسعى من خلال الإدمان إلى إحداث توازن (كما يعتقد) يستعيد من خلاله هذا التوافق تحقيقاً للأمن الذاتي والاستقرار الشخصي والاجتماعي.
- لذلك تتحدد مشكلة البحث في مناقشة قضية أساسية تدور حول "ما علاقة التوافق الشخصي والاجتماعي بظاهرة إدمان المخدرات؟".

ويمكن مناقشة هذه القضية من خلال مجموعة من الأسئلة الفرعية التي يمكن تحديدها في التالي:

- ما هي مظاهر التوافق الشخصي للمدمنين؟
- ما هي مظاهر التوافق الاجتماعي للمدمنين؟
- هل هناك علاقة ارتباطية بين مؤشرات كل نوع من أنواع التوافق؟

(التوافق الشخصي: الرضا عن الذات – الاعتماد عن الذات – الإحساس بالقيمة).

(التوافق الاجتماعي: شعور الفرد بالمسؤولية الاجتماعية – تكوين علاقات اجتماعية – التصرف في حدود المعايير الاجتماعية السائدة).

سابعاً: فرضيات البحث:

الفرضية الرئيسية:

- توجد علاقة بين التوافق الشخصي والاجتماعي بظاهرة إدمان المخدرات.

الفرضيات الفرعية:

- لا يوجد توافق شخصي للمدمنين.

- لا يوجد توافق اجتماعي للمدمنين.
- توجد علاقة ارتباطية بين مؤشرات كل نوع من أنواع التوافق.

الفصل الأول:

أسباب تعاطي المخدرات

I- **الأسباب:**

الإدمان شأنه شأن العديد من الأمراض الاجتماعية التي يدفع إليها العديد من العوامل كالاضطرابات الفيزيولوجية بالإضافة إلى الأسباب النفسية والاجتماعية.

إن بعض العوامل المرتبطة بصحة الإنسان الجسمية والنفسية تؤدي إلى إقبال بعض الأشخاص على تعاطي المخدرات هروباً من واقعهم الصحي، أو ظناً منهم أن فيها الخلاص من ذلك الواقع، ومنها ما يتعلق بدوافع شخصية ناتجة عن ظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية ومتطلباتها والضغوط المتزايدة من قبل بعض الأشخاص الذين لم يتعودوا على مواجهة مصاعب الحياة.

1 – **وهناك بعض العوامل التي تدفع ببعض الأشخاص لتعاطي المخدرات منها:**

-الفضول وحب التجربة خاصة لدى فئة الشباب في مرحلة المراهقة، ولكثرة ما يكتب وما يقال عن المخدرات وآثارها على الإنسان وما يشاع عنها من أنها تنقل الفرد إلى عالم الأحلام والخيالات الجميلة[1].

– عدم وضوح الأهداف في الحياة مع فقدان الحوافز النفسية والاجتماعية لحب الحياة.

– الوحدة والإنعزال عن المجتمع مما يؤدي إلى الشعور بالخطر، والبحث عن مخرج منها عن طريق المخدرات.

– إحساس الإنسان بالفشل والخيبة في الدراسة أو في العمل أو الحياة الأسرية، هذا إلى جانب ما يواجهه في الحياة من نزاعات مما يؤدي إلى الشعور بالقلق والكآبة، ولهذا فهو يلجأ إلى تعاطي المخدرات متوهماً مقدرتها على نسيانه هذه المشاكل وجلبها السرور والبهجة في نفسه المتعبة[2].

– الإعتقاد الخاطئ بأن المخدرات تحصل لذة جنسية كبرى.

– ضعف الشخصية ووجود رفقاء السوء.

– التفكك الأسري وعدم اهتمام الوالدين أو أحدهما بأسرته، وتشوّه التنشئة الاجتماعية[3].

2- **أنواع المخدرات:**

تتعدد وتتنوع مصادر وأنواع المواد المخدرة، وهي تصنّف إلى:

— مواد مخدرة طبيعية (الحشيش، الأفيون، القات).

— مواد مخدّرة تصنيعية (الهروين، المورفين، الكوكايين).

— مواد مخدّرة تخليقية (المهدئات، المنومات، المهلوسات)[4].

وقسمت أيضاً لعدة تقسيمات منها:

— **معيار اللون:** مخدرات بيضاء (الهروين)، سوداء (الحشيش).

— **معيار الخطورة:** مؤثرات عقلية كبرى (الهروين).

— **معيار ومؤثرات صغرى:** (المنبهات والمسكنات).

— **معيار الأصل:** مواد طبيعية — مواد تخليقية.

— **معيار التأثير:** (المنشطات — المهلوسات — الحشيش)[1].

3- **الشباب والمخدرات:**

يعتبر الشباب من أكثر فئات المجتمع إحساساً وتأثراً بالمشكلات مما يدفعه لإدمان المخدرات بدافع خلق عالم خاص بهم ربما يتعارض مع واقعهم.

والشباب هم أكثر الفئات إقبالاً على إدمان المخدرات، إلاّ أنهم لا يتعاملون مع المخدر على أنه حل لمشاكلهم بل إنه وسيلة للهروب من مشاكلهم.

وبذلك تكون مشكلة الإدمان مشكلة سلوكية، إلاّ أن الدوافع تشكل المكوّن المحوري في تحديد شدة الدافعية نحو مستوى الإنخراط في الخبرة الإدمانية.

4- **دوافع الإدمان:**

هناك ملامح محددة لشخصية المدمن يمكن إيجازها في التالي:

— عدم النضج العاطفي — الشخصية النرجسية — الشخصية القلقة — الشخصية الناضجة السوية — التمتع بعقاب الذات[2].

5- **سمات المدمن:**

يتسم مدمن المخدرات بعدة سمات أهمها:

— حاجة المدمن للزيادة الدائمة للجرعات التي يتعاطاها نظراً للنقصان التدريجي لتأثير

الجرعة على الجسم كما تعود عليها.

—الرغبة القهرية للمدمن في الاستمرار في تعاطي المخدر والحصول عليه.

—يؤدي الإدمان إلى تدهور الصحة العامة للمدمن مما يؤدي إلى التأثير السلبي عليه وعلى المجتمع بأسره[1].

II- آثار المخدرات:

1- الكوكايين:

-الآثار النفسية:

الكوكايين منبه قوي للجهاز العصبي المركزي، ويتجلى أثره المنشط في حالة الإدمان في حالة تهيج شديد وطلاقة اللسان، ويثير شعوراً بالسرور. وتلي حالة التهيج حالة إنهيار، وإذا زادت كمية الكوكايين فإنها تثير حالة ذعر ومخاوف وهذيان وتخيلات تثير في بعض الحالات تصرفات عدائية ضد المجتمع. ويتميز بتقلبات مزاجية، كثيرة الحركة[2].

—الآثار الجنسية:

يؤدي تعاطي الكوكايين المستمر إلى الإعتماد النفسي فقط؛ ومن الشائع بين العامة أن هذا العقار يؤدي إلى زيادة كفاءة الأداء الجنسي للفرد، مما يجعل البعض يلجأ إبليه في المواقف الجنسية. وتعدّ نشوة الكوكايين مماثلة لنشوة "الأورغاسم" (الإنتعاظ).

ويؤدي تعاطي الكوكايين بجرعات كبيرة إلى عواقب سلبية في العملية الجنسية وإلى ضعف الرغبة الجنسية، هذا بالإضافة إلى اضطراب السلوك الجنسي، كما يؤدي إلى حالات فقدان الوعي التي تؤدي بدورها إلى الشعور بالذنب مما يعيق الأداء الجنسي[3].

2- الحشيش ، المهلوسات:

-الآثار النفسية:

يشعر الفرد عند تعاطيه الحشيش بالنشوة المصحوبة عادة بالقهقهة والضحك الذي لا يبدو أن له مبرر، وتزداد حدة إدراك المرئيات والحواس بصورة عامة، ويمرّ الزمن ببطء شديد بالنسبة للمتعاطي، وتختل الذاكرة بالنسبة للأحداث القريبة وكذلك الانتباه والتركيز. وينزلق المتعاطي في الخيال والتخيل مع ازدياد الجرعة، ثم تعتريه الهلوسات البصرية، والسمعية المصحوبة بشعور بأنه توصل إلى حقائق وبواطن الأمور[1].

—الآثار الجنسية:

يشيع بين العامة أن الحشيش يلعب دوراً هاماً في زيادة قدرة الشخص الجنسية وكذلك

يزيد من الأحاسيس الجنسية ويؤدي إلى الإنتقاظ واللذة. أما في الواقع إن الحشيش يؤدي إلى انخفاض الخصوبة والإعتلال في الوظيفة الجنسية.

إنّ إختلال وتحريف الإحساس بالزمن لدى المتعاطي يجعله يعتقد وهو تحت تأثير المخدر أن فترة الجماع تطول. حيث أن الحشيش يؤدي بتأثيره التخديري إلى التقليل من العوائق الداخلية أمام الرغبة الكامنة في الشخص مما يمكنه من تحقيق رغبته المكبوتة وبالتالي يعطي التخدير للمتعاطي القدرة على ملاحظة ومداعبة المرأة ويزيد من إحساسها بالإثارة والرغبة الجنسية[2].

إنّ الحشيش ليس هو الذي يؤدي إلى زيادة القدرة على الإتصال الجنسي والرغبة فيه، حيث يخفف الشعور بالحزن ويؤدي إلى الشعور بالزهو والاسترخاء والدخول في عالم الأحلام المرغوبة، فيرفع الكفّ عن الرغبات اللاشعورية المقيدة مما يجعله يحس بانتعاش ورغبة قوية في ممارسة الجنس[3].

III- التفسير النفسي والاجتماعي لظاهرة تعاطي وإدمان المخدرات:

تشغل ظاهرة تعاطي المخدرات اهتمام الباحثين والمفكرين لما يترتب على انتشارها من نتائج وآثار تمس واقع الأفراد المتعاطين، وواقع الأسر التي يعيشون فيها، بالإضافة إلى الآثار الإجتماعية والاقتصادية على مستوى إجمالي المجتمع برمته.

1- نظرية التحليل النفسي:

ترى مدرسة التحليل النفسي أن سيكولوجية الإدمان تقوم على"

– الحاجة إلى الإشباع النفسجسمي النرجسي الذي يرجع إلى اضطرابات في علاقات الحب والإشباع العضوي، وخاصة في المرحلة الفمية.

وقد أكد العديد من الدارسين على أهمية المرحلة الفمية في تفسير تعاطي المخدرات حتى أنهم رأوا أن أي توتر يشعر به المتعاطي يمثل بالنسبه له تهديداً لوجوده، مثله في ذلك مثل الطفل في المرحلة الفمية. وتظهر هذه الميول الفمية والجلدية الشبقية المبكرة عند المتعاطين في شكل تعاطي المخدر عن طريق الفم أو الحقن، واللذة التي يحصل عليها المدمن عن طريق الفم أو الجلد هي لذة استقبالية سلبية، ترجع في أساسها إلى بداية المرحلة الفمية، مع سيادة مبدأ اللذة، حيث لا يكون هناك أي اعتبار للواقع[1].

وقد اقترح "رادو" أن تعاطي المواد المؤثرة نفسياً يؤدي إلى انصراف عن موضوع الحب الواقعي حيث يصبح المخدر هو الحب الوحيد ويكون الإنتعاظ (الرعشة الجنسية) الناتجة

عن العقار بديلاً للإنتعاظ التناسلي. ويرجع ذلك إلى نكوص المتعاطي إلى الإحساسات المباشرة المادية القديمة والتي تختلط فيها اللذة الجنسية باللذة التخديرية، والتي يتبعها هروب من النشاط الجنسي وإهمال متزايد حتى للعلاقات العاطفية بين المدمن وغيره، حيث تخلق اللذة التخديرية نظاماً جنسياً صناعياً هو حقيقة شبقية ذاتية تبلورت على أساس الإستنماء الطفلي[2].

- الحاجة إلى الأمن.
- الحاجة إلى إثبات الذات وتأكيدها.

ويرى التحليليون ضرورة إرجاع السلوكيات السوية والمرضية في الرشد إلى الخبرات الطفولية المبكرة[3].

2-النظرية السلوكية:

النظريات السلوكية أو نظريات التعلم تفسر السلوك (الإدمان) على أساس استخدام أو إساءة استخدام العقاقير، حيث أن الإدمان يعتبر نوعاً من الإثارة المدعمة المرتبطة باستخدام العقار، والتدعيم الإيجابي قادر على خلق عادة قوية، هي عادة الاشتياق إلى العقار، بالإضافة إلى الخوف الفعلي من الإمتناع عن العقار، بحيث أن الفرد إذا حاول الإمتناع عدة مرات نشأ لديه نمط من استجابة التجنب الشرطية، وإذا أضفنا إلى ذلك ما يحدثه العقار أول الأمر من آثار التدعيم وجدنا أنه قد نشأت لديه عادة الإدمان بوصفها نمطاً سلوكياً دائماً يستعصي على التغيير في أكثر الأحيان.

إن الإدمان هو سلوك يتعلمه الفرد عند شعوره بالقلق والتوتر، فيندفع إلى تعاطي المخدرات فيقل قلقه والتوتر ويشعر بالإرتياح[1]. أي أن مستوى التوتر لديهم قلّ، وهذا الشعور يعتبر تدعيماً قوياً للتعاطي، أو أنه تعزيز إيجابي للسلوك وقد يرتبط بمثيرات أخرى كمجموعة الرفاق...

- سوء التوافق الاجتماعي:

يعتبر التعاطي للمخدرات سبباً مباشراً من أسباب فساد الأسرة وتفككها وانهيار القيم فيها، حيث لا يقل تأثير تعاطي المخدرات على الفرد عنه على الأسرة والمجتمع. إن أول هذه التأثيرات تكون على الأجنة، حيث أن إدمان أحد الوالدين يتسبّب في وفاة الجنين في رحم الأم، أو أثناء الولادة أو بعدها، أو يؤدي إلى ولادة جنين مشوّه[2]. إن الأسرة خاصة إذا كان أحد الوالدين، يمثل قدوة سيئة لأبنائه، يرون فيه نموذج الشخصية المستهترة واللامبالية، وهذا ما يساعد على وجود متعاطي داخل الأسرة أو منحرفين.

3– **النظرية الاجتماعية:**

الإدمان من وجهة النظر الاجتماعية يرتبط بالمعايير والقيم الاجتماعية أو أن الإدمان أحد أشكال التكيف الهروبي لأنهم أفراد غير متوافقين مع معايير وقيم المجتمع، مما يجعل المتعاطين منعزلين عن بقية أفراد المجتمع الذين اندمجوا في إطاره القيمي[3].

ويمكن تفسير ظاهرة الإدمان من خلال الجوانب التالية:

–يرجع الإدمان إلى رغبة الفرد في تناول المخدر نتيجة اعتقاد داخله بأهمية تعاطي المخدر.

–الربط بين الإدمان وتفاعل العامل البيئية والذاتية للفرد.

–الإدمان سلوك اجتماعي إرادي ويفسر على أنه إنحراف اجتماعي.

فالإتجاه نحو المخدر يتصل بالإختلافات الخاصة بالبناء الاجتماعي مثل الوضع الاقتصادي والأدوار الاجتماعية والقيم وما يتصل بها من نتائج تتعلق بمكان السكن ومدى الإشباع والحرمان[4].

إنّ إدمان المخدرات يكون نتيجة لمخالطة الجماعات والاتحاد معها، فإذا اتحد مع جماعة لها ممارسة الإدمان، فإن ممارسته غالباً ما تتوافق مع معيار الجماعة. هذا الإتحاد يسبّب الإدمان خاصة عندما يبدأ بالتجريب. وعندما يختبر الفرد تجربة الإنسحاب من المخدر وما يصاحبه من قلق، فإن التخلص من القلق يكون الإتحاد هو السبيل لذلك.

الفصل الثاني:

التوافق النفسي والاجتماعي

إن التوافق النفسي من الموضوعات الحيوية التي استهوت العديد من العلماء والباحثين في مجال علم النفس وعلم الاجتماع إذ أنه يهتم بمعرفة ودراسة العلاقات الاجتماعية وإشباع الرغبات والحاجات الشخصية.

إذ أن الفرد ذا التوافق الضعيف النفسي والاجتماعي يعد شخصاً غير توافقي وغير قادر على إشباع حاجاته والرغبات المتعلقة بالجانب النفسي والاجتماعي والتوافق النفسي الاجتماعي Psychosocial – Social – Adjustement عملية ديناميةمستمرة يحاول فيها الفرد تعديل سلوكه في بيئته الطبيعية والاجتماعية، وتقبل ما لا يمكن تعديله فيها ليتحقق التوازن النسبي بينه وبين نفسه وبينه وبين البيئة المحيطة به؛ وذلك لإشباع حاجاته البيولوجية والنفسية والاجتماعية، مما يؤدي إلى تغييب التوترات والصراعات.

I- وتتألف بنية التوافق من الأبعاد الآتية:

1-**التوافق النفسي:** ويقصد به قدرة الفرد على حل صراعاته وتوتراته الداخلية حلاً ملائماً، حتى تحدث حالة من التوازن بين الوظائف المختلفة للشخصية، وتتضمن إشباع حاجات الفرد ودوافعه بصورة لا تتعارض مع معايير المجتمع وقيمه، فيشعر الفرد بالأمن والأمان والسعادة مع النفس والثقة بها والكفاءة والتقدير والاعتزاز.

2-**التوافق الأسري:** ويقصد به تمتع الفرد بعلاقات سوية ومشبعة مبنية على التفاهم والمشاركة، ويتضمن السعادة الأسرية التي تتمثل في الإستقرار والتماسك والثقة والإحترام المتبادل بين أفراد الأسرة، والمساواة في المعاملة الوالدية بين الأخوة.

3-**التوافق الاجتماعي:** ويقصد به قدرة الفرد على إقامة علاقة منسجمة مع البيئة المادية والاجتماعية، وتتضمن السعادة مع الآخرين، والإتزان الإجتماعي، والإلتزام بأخلاقيات المجتمع، والإمتثال لقواعد الضبط الإجتماعي، والمشاركة في النشاط الاجتماعي، وتقبل الرفاق، مما يساعد على ضبط سلوكه بحيث يختار السلوكيات المناسبة في المواقف المختلفة، فيحظى بتقدير واحترام الجماعة لآرائه واتجاهاته، مما يؤدي إلى تحقيق الصحة النفسية والاجتماعية[1].

4- مستويات التوافق الشخصي والاجتماعي:

هناك إتفاق بين علماء النفس والاجتماع على أن التوافق والتكيف يعبران عن بداية ونهاية عملية واحدة. وتشير كلمة التوافق بدرجة أكبر إلى التكيف الذي يستهدف تحقيق الفرص وإشباع الحاجات. والإنسان يتكيف من أجل التوافق، وأن توافق الإنسان ليس مجرد تكيف لذاته مع التغيرات البيئية، وممكن أن يغير البيئة لتلائم توافقه متضمناً ثلاث مستويات للتوافق:
— التوافق البيولوجي — التوافق السيكولوجي — التوافق الاجتماعي.

II- أبعاد التوافق:

للتوافق بعدان، الأول هو التوافق الشخصي، والثاني هو التوافق الاجتماعي.

1- التوافق الشخصي:

يعدّ التوافق الشخصي أساس الصحة النفسية للفرد حيث يعرف على أنه الحالة التي

يكون فيها الفرد راضياً عن نفسه غير كاره لها. كما تتسم حياته النفسية معها بالخلو من التوترات أو الصراعات التي تقترن بمشاعر الذنب والضيق والشعور بالدونية[2].

والأساس العام لعدم التوافق الشخصي هو وجود حالة صراع انفصالي يعاني منها الفرد، وينشأ الصراع نتيجة وجود دوافع مختلفة يوجه كلاً منها الرد وجهات مختلفة (مثل الصراع بين الرغبة في العدوان والخوف من العقاب...)[3].

ويتضمن التوافق الشخصي الأبعاد التالية:

- مدى إدراك الفرد لذاته.
- مدى رضى الفرد عن ذاته.
- إدراك الفرد لقيمته الذاتية.

2 – التوافق الاجتماعي:

يعتمد التوافق الاجتماعي على فكرة أن الأفراد يعملون على أن يتكيفوا بينهم وبين أنفسهم وبينهم وبين البيئة التي يعيشون فيها، على أساس من القبول الاجتماعي وتوافق مع المعايير الاجتماعية. وبذلك يكون التوافق الاجتماعي يتضمن السعادة مع الآخرين والإلتزام بأخلاقيات المجتمع ومسايرة معاييره الإجتماعية والإمتثال لقواعد الضبط الاجتماعي والتفاعل الاجتماعي السليم مما يؤدي إلى الصحة الاجتماعية[1].

وبذلك يتضح أن التوافق الاجتماعي يتضمن مسايرة الفرد لأخلاقيات المجتمع والتغير الاجتماعي بتعديل سلوكه والقدرة على تكوين علاقات اجتماعية ناجحة وصولاً للإنسجام والاستقرار الاجتماعي، مما يجعل الفرد قادراً على مواجهة مشاكله.

وإقامة التوازن بين حاجاته الداخلية ومطالب البيئة الاجتماعية، وإذا فشل الفرد في ذلك يعيش في صراع اجتماعي ينتهي إما بنبذه من جماعته أو الإنسحاب بعيداً عن هذه الجماعة.

3- أبعاد التوافق الاجتماعي:

يتضمن التوافق الاجتماعي الأبعاد التالية:

- شعور الفرد بالمسؤولية الاجتماعية.
- تكوين علاقات اجتماعية ناجحة.
- التصرف في حدود المعايير الاجتماعية السائدة.

لذا يعتبر التوافق الشخصي والاجتماعي من أهم متطلبات النمو الاجتماعي الذي يحقق للفرد توافقاً مع ذاته ومع الآخرين، متأثراً بقدرة الفرد على الوصول إلى درجة من التوافق مع نفسه والقيم والأهداف والجماعة التي يعيش فيها، ويترتب على ذلك شعور الفرد بتقبله لذاته وتقبل الآخرين له وتقبل سلوكه[2].

الفصل الثالث:

إجراءات البحث

يصنف هذا البحث ضمن الأبحاث الوصفية التي تستهدف تحقيق المعرفة عن طبيعة وأبعاد الموقف المراد بحثه والكشف عن الحقائق التي تتعلق بظاهرة معينة وارتباطها بالمتغيرات الأخرى.

والبحث الحالي هو دراسة علاقة التوافق النفسي والاجتماعي بظاهرة إدمان المخدرات.

أولاً: المنهج: إن أنسب منهج يستخدم هو منهج البحث الاجتماعي.

ثانياً: أدوات البحث: مقياس التوافق الشخصي والاجتماعي لمدمني المخدرات، من إعداد: محمود أبو النيل (2003)، ويهدف إلى:

- تحديد مظاهر عدم التوافق لمدمن المخدرات.
- تحديد مظاهر عدم التوافق الشخصي لمدمن المخدرات.
- تحديد مظاهر عدم التوافق الاجتماعي لمدمن المخدرات.

ثالثاً: مجتمع البحث: مركز ... "جمعية تمكين للعيش باستقلالية" – النبطية.

رابعاً: عيّنة البحث: (147) مدمناً.

خامساً: المجال الزمني: استغرق البحث مدة عشرة أشهر... في الفترة من 2/3/2021 وحتى شهر كانون الأول عام 2022.

سادساً: المعاملات الإحصائية: "سبيرمان".

I- تحليل وتفسير نتائج البحث:

نستعرض النتائج التي انتهى إليها البحث والأساليب الإحصائية التي استخدمت في معالجة بياناتها للوصول إلى دلالات يمكن عن طريقها تفسير النتائج.

1− وصف عيّنة البحث

جدول رقم (1)

الخصائص	المتغيرات	العدد	النسبة المئوية
الفئة العمرية	من 20 سنة إلى أقل من 30 سنة	40	27.2
	من 30 سنة إلى أقل من 40 سنة	44	29.9
	من 40 سنة إلى أقل من 50 سنة	40	27.2
	من 50 سنة فأكثر	23	15.6
الحالة الاجتماعية	متزوج	63	42.9
	مطلق	53	36.7
	أخرى	30	20.4
الحالة التعليمية	يقرأ ويكتب	26	17.7
	شهادة المتوسط	38	25.9
	بكالوريا	28	19.0
	الثانوية العامة	55	37.4
الحالة العملية	يعمل	66	44.9
	لا يعمل	81	55.1
	طالب	39	26.5
	موظف	40	15.6
	حرفي	23	15.6
	صاحب عمل	45	30.6
نوع المخدر	كوكايين	81	55.1
	حبوب منشطة	30	20.4
	هيروين	8	44.5
	حشيش	23	15.6
	أخرى	7	4.47
	المجموع	**147**	**%100**

10	أخطائي البسيطة تجعلني أشعر بأنني إنسان سيء	66	44.9	40	27.2	41	27.9	269	1.82	0.83
	المتوسط الحسابي			**1.992**						
	متوسط الوزن النسبي			**34.29**						
	القوة النسبية			**66.53**						

من خلال استجابة العينة على عبارات مؤشر "الرضا عن الذات"، يتضح أن العينة لديها إحساس بعدم الرضا عن ذاتها حيث كان متوسط الوزن النسبي للبعد (29.34) وكانت القوة النسبية للبعد (66.53) للبعد وكان المتوسط الحسابي المرجح للبعد بشكل عام (1.992)، وذلك يتضح من خلال استجابة العينة على العبارات التالية: "أفكر في التخلص من نفسي" الموافقة بنسبة (70.7%) بمتوسط حسابي مرجح (1.43) وانحراف معياري (0.73)، وعبارة "أشعر بالحزن لما وصلت إليه الآن" بالموافقة بنسبة (42.9%) بمتوسط حسابي (1.92) وانحراف معياري (0.66)، وعبارة "أخطائي البسيطة تجعلني أشعر بأنني إنسان سيء" بالموافقة بنسبة (44.9%) بمتوسط حسابي (1.82) وانحراف معياري (0.83)، وعبارة "وضعي الحالي يهدد استقرار حياتي كلها" بالموافقة بنسبة (53.1%) بمتوسط حسابي (1.82) وانحراف معياري (0.88).

عند تحليل الخصائص الديموغرافية لعينة البحث من خلال الجدول رقم (1) أن 29% من عينة البحث تقع في المرحلة العمرية من 30 إلى أقل من 40 سنة، ونسبة 42% كذلك من العينة متزوجون، ونسبة 37.4 من العينة حاصلين على الثانوية، ونسبة 55% منهم لا يعمل منهم 6.30% من أصحاب الأعمال، أما من حيث نوع المخدر فنسبة 1.55% من عينة البحث تتناول الكوكايين.

2– عرض ومناقشة النتائج الإحصائية:

جدول رقم (2): الرضا عن الذات (أ) (أبعاد التوافق الشخصي)

م	العبارة	موافق		موافق إلى حد ما		غير موافق		مجموع الأوزان	المتوسط الحسابي	الإنحراف
		العدد	النسبة %	العدد	النسبة %	العدد	النسبة %			
1	أشعر بالإرتياح منذ تواجدي مع الآخرين	25	17	40	27.2	82	55.8	351	2.38	0.76
2	أشعر بأنني إنسان مخطئ مذنب بحق نفسي	64	43.5	44	29.9	39	26.5	269	1.82	0.82
3	أتضايق إذا تركت عملاً دون أن أتممه	23	15.6	26	17.7	98	66.7	369	2.51	0.75
4	أشعر باليأس عند عدم تحقيق أي من أهدافي	64	43.5	38	25.9	45	30.6	275	1.87	0.85
5	أفكر في التخلص من نفسي	104	70.7	22	15.0	21	14.3	211	1.43	0.73
6	أشعر بالحزن لما وصلت إليه الآن	63	42.9	32	21.8	52	35.4	283	1.92	0.66
7	أرى أن آرائي الخاصة معقولة	18	12.2	60	40.8	69	46.9	345	2.34	0.68
8	ألوم نفسي عندما أعجز عن مواجهة مشاكلي	49	33.3	41	27.9	57	38.8	302	2.05	0.85
9	وضعي الحالي يهدد استقرار حياتي كلها	78	53.1	25	17.0	44	29.9	260	1.76	0.83

جدول رقم (3): الإعتماد على الذات

م	العبارة	موافق		موافق إلى حد ما		غير موافق		مجموع الأوزان	المتوسط الحسابي المرجح	الإنحراف المعياري
		العدد	النسبة %	العدد	النسبة %	العدد	النسبة %			
1	أتوقع الفشل في أي عمل أقوم به	77	52.4	37	25.2	33	22.4	250	1.7	0.81
2	لا أعتمد على نفسي في القيام ببعض الأشياء	41	27.9	32	21.8	74	50.4	327	2.22	0.85

3	ألجأ لمساعدة الآخرين في مواجهة مشاكلي	44	29.8	55	37.4	48	32.7	298	2.02	0.79
4	أتهرب من المواقف التي يطلب مني فيها رأيي	68	46.3	45	30.6	34	23.1	260	1.67	0.80
5	أتجنب مساعدة أي أفراد أسرتي في إنجاز أي عمل	88	59.9	29	19.7	30	20.2	236	1.60	0.80
6	أخطط أمور حياتي بنفسي	18	12.2	38	25.9	91	61.9	367	2.49	0.70
7	أستمر في عملي ولو كان متعباً	24	16.3	39	26.0	84	57.1	354	2.40	0.75
8	أفتقد القدرة على التعاون مع الآخرين	66	44.9	44	29.9	37	25.2	265	1.80	0.81
9	أكون رأي عم أي موضوع بعد دراسة عميقة	31	21.1	51	34.7	65	44.2	328	2.23	0.77
10	أعجز عن تنفيذ التزامي مع الآخرين	74	50.3	45	30.6	28	19.0	248	1.68	0.77
	المتوسط الحسابي			**1.99**						
	متوسط الوزن النسبي			**32.5**						
	القوة النسبية			**66.5**						

من خلال الجدول رقم (3) يتضح أن مستوى الإعتماد عن الذات لدى عيّنة البحث منخفض حيث إن متوسط الوزن النسبي للبعد (29.34) والقوة النسبية للبعد (66.53) بمتوسط عام للبعد (1.992)، ومما يؤكد ذلك استجابتها على العبارات التالية: "أتوقع الفشل في أي عمل أقوم به"، بالموافقة بنسبة (52.4%) بمتوسط حسابي مرجح (1.79 وانحراف معياري (0.81)، وعبارة "ألجأ لمساعدة الآخرين في مواجهة مشاكلي"، بالموافقة إلى حد ما بنسبة (79.0)، وعبارة "أخطط أمور حياتي بنفسي"، بعدم الموافقة بنسبة (61.9)، بمتوسط حسابي مرجح (2.49)، وإنحراف معياري (0.70)، وعبارة "أكوّن رأي عن أي موضوع بعد دراسة عميقة"، بعدم الموافقة بنسبة (44.2)، بمتوسط حسابي مرجح (2.23) وإنحراف معياري (0.77).

جدول رقم (4): الإحساس بالقيمة الذاتية

م	العبارة	موافق		موافق إلى حد ما		غير موافق		مجموع الأوزان	المتوسط الحسابي	الإنحراف المعياري
		العدد	النسبة %	العدد	النسبة %	العدد	النسبة %			
1	أشعر بأن معظم الناس الذين أعرفهم لا يحبونني	52	35.4	52	36.1	42	28.6	284	1.93	0.79
2	يهتم أصدقائي بكل ما أقوم به	49	33.3	60	4.8	38	25.9	283	1.92	0.76
3	المصلحة الشخصية أساس العلاقات بين الناس	62	42.2	33	22.4	52	35.4	284	1.93	0.88
4	لا أندفع عند اتخاذ قرارات هامة في حياتي	26	17.7	52	35.4	69	46.9	337	2.29	0.75
5	أشعر بالراحة عندما أكون بمفردي	31	21.1	35	23.8	81	55.1	344	2.34	0.80
6	أتقبل بصدر رحب نقد أصدقائي	22	15.0	30	20.1	94	63.9	374	2.56	1.01
7	يظهر الضيق بين أفراد أسرتي	95	66.3	25	17.3	27	18.4	250	1.70	0.51
8	أتجنب الذهاب للأماكن العامة حتى لا أواجه الناس	78	53.1	32	21.8	37	25.2	253	1.72	0.77
9	أشعر بالضيق إذا ناقضني أحد في أخطائي	43	29.3	40	27.2	64	43.5	315	1.67	0.74
	المتوسط الحسابي			2.109						
	متوسط الوزن النسبي			266.30						
	القوة النسبية			68.63						

تؤكد عبارات مؤشر الإحساس بالقيمة الذاتية، على أن إحساس عيّنة البحث بالقيمة بسيط ويتضح ذلك من متوسط الوزن النسبي الذي بلغ (29.34) والقوة النسبية (66.53) للبعد، حيث كان استجابة العيّنة على العبارات التالية: "أشعر بالراحة عندما أكون بمفردي" بعدم الموافقة بنسبة (55.1)، بمتوسط حسابي مرجح (2.34) وانحراف معياري (0.80)؛ وعبارة "أتقبل بصدر رحب نقد أصدقائي" بعدم الموافقة بنسبة (63.9%)؛ بمتوسط حسابي (2.56) وانحراف معياري (1.01)؛ وعبارة "يظهر الضيق بين أفراد أسرتي عندما أجلس بينهم"، الموافقة بنسبة (66.3 %) بمتوسط حسابي (1.700) وانحراف معياري (0.51)؛ وعبارة "أتجنب الذهاب للأماكن العامة حتى لا أواجه الناس" بالموافقة بنسبة (53.1 %) بمتوسط حسابي مرجح (1.67) وانحراف معياري (74.0)، وعبارة "أشعر بالضيق إذا ناقشني أحد في أخطائي" بعدم الموافقة بنسبة (43.5 %) بمتوسط حسابي (1.67) وانحراف معياري (74.0).

ب- أبعاد التوافق الاجتماعي:

جدول رقم (5): شعور الفرد بالمسؤولية الاجتماعية

م	العبارة	موافق		موافق إلى حد ما		غير موافق		مجموع الأوزان	المتوسط الحسابي المرجح	الإنحراف المعياري
		العدد	النسبة %	العدد	النسبة %	العدد	النسبة %			
1	إذا كلفت بمسؤولية أبذل الجهد لإتمامها بنجاح	40	27.2	46	31.3	61	41.5	37.2	2.14	0.80
2	لا أهتم بما يدور حولي من أحداث	15	10.2	33	32.4	99	67.3	291	2.57	0.67
3	أتظاهر بالمرض كي أتهرب من أحداث	53	36.1	44	29.9	50	34.0	242	1.97	0.80
4	أتشاور مع من أثق بهم عندما تواجهني مشكلة	83	56.5	33	22.4	34	21.1	354	1.64	0.70
5	أحرص على المناقشة وإبداء الرأي داخل أسرتي	28	19.0	29	7.19	90	61.2	350	2.42	0.72
6	أرى أن حقوق المجتمع أهمّ من حقوق الفرد	21	14.1	48	32.7	78	53.1	318	2.39	0.71
7	إتلاف الممتلكات العامة للمجتمع سلوك خاطئ	36	24.5	48	32.7	63	42.9	340	2.17	0.80
8	لا يهمني إلاّ شعوري	31	21.1	36	24.5	80	54.4	347	2.34	0.80

9	لم أتعود على تحمل المسؤولية من صغر سني	43	29.3	25	16.3	79	53.7	320	2.37	0.84
10	أهتم بالمصلحة العامة أكثر من مصلحتي	41	27.9	36	24.5	70	47.6	360	2.46	0.73
	المتوسط الحسابي			**2.207**						
	متوسط الوزن النسبي			**66.25**						
	القوة النسبية			**32.46**						

باستعراض نتائج مؤشر "شعور الفرد بالمسؤولية الاجتماعية" يتضح أن عيّنة البحث لديها قصور في الشعور بالمسؤولية الاجتماعية وذلك يتضح من خلال متوسط الوزن النسبي للمؤشر حيث بلغ (66.25) والقوة النسبية للبعد قد بلغت (32.46)، حيث كانت استجابة العينة على عبارات المؤشر كالتالي: "أتظاهر بالمرض كي أتهرب من مسؤولياتي"، بالموافقة بنسبة (36.1%)، بمتوسط حسابي مرجح (1.97) وإنحراف معياري (0.80)، وعبارة "أحرص على المناقشة وإبداء الرأي داخل أسرتي"، بعدم الموافقة بنسبة (61.2%)، بمتوسط حسابي مرجح (2.42) وانحراف معياري (0.72)، وعبارة "لا يهمني إلاّ شعوري بالراحة والسرور"، بعدم الموافقة بنسبة (54.4%)، بمتوسط حسابي مرجح (2.34)، وانحراف معياري (0.80)، وعبارة "أهتم بالمصلحة العامة أكثر من مصلحتي الشخصية بعدم الموافقة بنسبة (47.6%)، بمتوسط حسابي مرجح (2.46)، وانحراف معياري (0.73).

جدول رقم (6): شعور الفرد بالمسؤولية الاجتماعية

م	العبارة	موافق		موافق إلى حد ما		غير موافق		مجموع الأوزان	المتوسط الحسابي المرجح	الإنحراف المعياري
		العدد	النسبة %	العدد	النسبة %	العدد	النسبة %			
1	علاقتي الاجتماعية طيبة مع الآخرين	57	38.8	43	29.5	47	32.0	282	1.93	0.84
2	أرى صعوبة في تكوين علاقات دائمة مع الآخرين	37	25.2	48	32.7	62	42.2	316	2.16	0.80
3	أحرص على المشاركة في المناسبات	64	31.3	53	36.3	48	32.7	294	2.01	0.80

4	أشعر بالرهبة عند مقابلتي لشخص جديد لا أعرفه مسبقاً	35	23.8	38	25.9	74	50.4	330	2.26	0.82
5	أشعر بالسعادة إذا تعرفت على صديق جديد	71	48.3	43	29.3	33	22.4	255	1.74	0.80
6	أتشاجر مع الناس لأتفه الأسباب	52	35.4	45	3.6	50	34.0	289	1.109	0.83
7	إذا شعرت بوحدة أسارع بالتعرف على صديق جديد	43	29.3	44	29.9	60	40.8	308	1.97	0.80
8	ألجأ إلى أسرتي إذا واجهتني مشكلة لمساعدتي في حلها	30	20.4	47	32.0	70	47.6	332	2.109	0.83
9	لا أخاف من العقاب إذا خالفت القانون	35	37.4	33	22.4	59	40.2	295	2.27	0.78
	المتوسط الحسابي			**2.028**						
	متوسط الوزن النسبي			**30.011**						
	القوة النسبية			**68.052**						

من خلال استجابة عيّنة البحث على عبارات مؤشر "تكوين العلاقات الاجتماعية الناجحة"، يتضح أن قدرة العيّنة على تكوين العلاقات الاجتماعية متوسطة حيث بلغ متوسط الوزن النسبي للبعد (30.011) وبلغت القوة النسبية للبعد (68.052) وذلك يتضح من خلال استجابة العينة على العبارات التالية: "علاقاتي الاجتماعية طيبة مع من حولي"، بالموافقة بنسبة (38.8%)، بمتوسط حسابي مرجح (1.93) وانحراف معياري (0.84)، وعبارة "أرى صعوبة في تكوين علاقات دائمة مع الآخرين"، بعدم الموافقة بنسبة (42.2%)، بمتوسط حسابي مرجح (2.16) وانحراف معياري (0.80)، وعبارة "أحرص على المشاركة في المناسبات الاجتماعية"، بالموافقة إلى حدٍ ما بنسبة (36.3%)، بمتوسط حسابي مرجح (2.01) وانحراف معياري (0.80)؛ وعبارة "أشعر بالرهبة عند مقابلتي لشخص جديد لا أعرفه مسبقاً"، بعدم الموافقة بنسبة (50.4%)، بمتوسط حسابي (2.26) وانحراف معياري (0.82).

جدول رقم (7): التصرف في حدود المعايير الاجتماعية السائدة

م	العبارة	موافق		موافق إلى حد ما		غير موافق		مجموع الأوزان	المتوسط الحسابي المرجح	الإنحراف المعياري
		العدد	النسبة %	العدد	النسبة %	العدد	النسبة %			
1	أشعر بسعادة عندما يحطم شخص ما الممتلكات العامة	35	23.8	33	22.4	79	53.7	202	1.69	0.82
2	أحرص على أن أكون مثلاً طيباً بين أفراد أسرتي	41	27.9	79	53.8	27	18.4	376	2.24	0.87
3	لي علاقات مع بعض الخارجين عن السلوك	24	15.6	76	51.7	47	32.0	281	1.92	1.82
4	أتمسك برغباتي الخاصة حتى لو اعترض عليها الآخرون	58	39.5	42	28.6	47	32.0	280	1.91	0.84
5	أعمل على تحسين صورتي أمام الناس باستمرار	96	65.3	31	21.1	20	13.6	367	2.51	0.70
6	أحترم العادات والتقاليد عند التعامل مع الناس	12	8.2	22	15.0	113	76.8	392	2.68	0.61
7	أحترم كبار السن وذوي الخبرة قيمة يجب اتباعها	112	76.2	23	15.6	12	8.2	391	2.67	0.62
8	أفضل الالتزام بتقاليد جماعتي عن الخروج عنها	20	13.6	29	19.7	98	66.7	370	2.53	0.72
9	استخدام العنف أفضل السبل على الحقوق	17	11.6	34	23.1	96	65.3	213	1.45	0.60
	المتوسط الحسابي			**2.167**						
	متوسط الوزن النسبي			**31.85**						
	القوة النسبية			**72.23**						

باستعراض استجابة عيّنة البحث على عبارات مؤشر "التصرف في حدود المعايير الاجتماعية السائدة في المجتمع"، يتضح أن العينة لديها التزام إلى حد كبير في التزامها بالعادات والتقاليد السائدة في المجتمع، حيث بلغ متوسط الوزن النسبي للبعد (31.85) والقوة النسبية للبعد (72.23) وذلك يتضح من خلال استجابتها على العبارات التالية: "أشعر بسعادة عندما يحطم شخص ما الممتلكات العامة"، بعدم الموافقة بنسبة (53.7%)، بمتوسط حسابي (1.69) وانحراف معياري (82.0)، وعبارة "أحرص على أن أكون مثلاً طيباً بين أفراد أسرتي"، بالموافقة إلى حدٍ ما بنسبة (53.8%) بمتوسط حسابي (2.24)، وانحراف معياري (0.87)، وعبارة "لي علاقات مع بعض الخارجين عن السلوك" بالموافقة إلى حدٍ ما بنسبة (51.7%) بمتوسط حسابي (1.92) وانحراف معياري (1.82)، وعبارة "أعمل على تحسين صورتي أمام الناس باستمرار"، الموافقة بنسبة (65.3%)، بمتوسط حسابي (2.51) وانحراف معياري (70.0)، وعبارة "أستخدام العنف أفضل السبل للحصول على الحقوق" بالموافقة بنسبة (65.3%) غير موافقين على العبارة، بمتوسط حسابي (1.45) وانحراف معياري (60.0).

II- نتائج البحث:

السؤال الأول:

من خلال استجابات عيّنة البحث هناك سوء توافق نفسي واجتماعي للعينة حيث أن القوة النسبية للمقياس (69.69) بمتوسط حسابي مرجح (2.082).

السؤال الثاني:

إتضح من نتائج القوة النسبية والمتوسط الحسابي المرجح للبعد الأول على مقياس التوافق الشخصي والاجتماعي أن مدمني المخدرات كان القوة النسبية لاستجاباتم (67.175) ومتوسط استجاباتهم على بعد التوافق الشخصي قد بلغت (2.030) بانحراف معياري (7.8)، والبعد الثاني كانت القوة النسبية لاستجاباتهم (71.30) ومتوسط استجاباتهم على بعد توافق اجتماعي قد بلغت (2.134) بانحراف معياري (8.172).

السؤال الثالث:

من خلال استجابات العينة على مؤشرات بعد التوافق الشخصي كانت كالتالي: بالنسبة للرضا عن الذات بنسبة (1.92)، والاعتماد عن الذات (1.99)، والإحساس بالقيمة (2.109).

السؤال الرابع:

استجابات عيّنة البحث على مؤشرات بُعد التوافق الاجتماعي كانت كالتالي: بالنسبة لشعورهم بالمسؤولية الاجتماعية (2.207) وقدراتهم على تكوين علاقات اجتماعية ناجحة (2.028) وتصرفاتهم في حدود المعايير الاجتماعية (2.167) كمتغيرات للتوافق الاجتماعي، مما أثر سلبياً على توافقهم الاجتماعي داخل المجتمع.

السؤال الخامس:

اتضح من نتائج العلاقة الارتباطية بين مؤشرات كل نوع من أنواع التوافق أنه يوجد علاقة ارتباطية قوية بين الرضا عن الذات والاعتماد على الذات والإحساس بالقيمة، وكذلك يوجد علاقة ارتباطية قوية بين الشعور بالمسؤولية الاجتمعية والقدرة على تكوين علاقات اجتماعية ناجحة والتصرف في حدود المعايير الاجتماعية، وهذه العلاقات لها دلالة معنوية.

كما اتضح من نتائج العلاقة الارتباطية بين أبعاد المقياس أن الارتباط بين البعدين (299.0) مما يؤكد على أن هناك فروقاً ذات دلالة إحصائية بين البعدين عند مستوى معنوي (01.0).

- اتضح من نتائج العلاقة الارتباطية بين متغيرات **السن والحالة الاجتماعية ونوع الوظيفة والتوافق الشخصي والاجتماعي** الناتج عن **إدمان المخدرات** أن هناك **علاقة عكسية ضعيفة** غير دالة معنوياً حيث بلغ معادل الارتباط بينهما (72.0) و (0.103).
- كذلك اتضح من نتائج العلاقة الارتباطية بين متغير **الحالة التعليمية والتوافق الشخصي والاجتماعي** الناتج عن **إدمان المخدرات** بمقدار الارتباط (10.203) عند مستوى ثقة (0.05).
- كذلك اتضح من نتائج العلاقة الارتباطية بين متغير الحالة **العملية والتوافق الشخصي والاجتماعي** الناتج عن **إدمان المخدرات** أن هناك ارتباطاً ذا دلالة إحصائية عند مستوى ثقة (0.001) بنسبة (0.269).

مقترحات

في ضوء النتائج التي حصلنا عليها من خلال بحث التوافق النفسي والاجتماعي لظاهرة إدمان المخدرات نقترح ما يلي:

- من الضروري أن يكون هناك توعية للأسر توضح لهم كيفي يتم إكتشاف حالات التعاطي لأي نوع من أنواع المخدرات وكيفية التعاطي معه.
- من الضروري أن يكون هناك علاج ذاتي وبيئي للمدمنين لإستعادة توافقهم الشخصي والاجتمعي.
- ضرورة عقد ندوات طبية ونفسية واجتماعية لمدمني المخدرات بهدف تبصيرهم بجوانب عدم التوافق الشخصي والاجتماعي لهم والعمل على استعادة توافقهم نفسياً واجتماعياً.
- بما أن معظم عينة البحث ممثلة في الفئة العمرية (30 وأقل من 40 سنة)، وهي مرحلة الشباب، فهذا يؤكد على تأثير الجماعة (الصحبة) في الإيقاع في جحيم الإدمان، لذا نقترح ضرورة استخدام نفس الأداة في مواجهة هذه المشكلة والتي من خلالها يفهم الأبعاد الحقيقية للمشكلة ويصل إلى الاستقرار الإنفعالي وينمو لديه مفهوم الذات وتتغير فكرته عن نفسه، وبالتالي يكتسب السمات الاجتماعية بما يحقق التوافق.
- استخدام سيكولوجية الذات مع مدمني المخدرات وتشجيع الأنشطة الرياضية والترفيهية بين الشباب.

المراجع:

- Allen .B : (1990), Personality, social and Biological Perspective on personal Adjustment – california : Brooks cole Publishing co.
- Calhoun. M.Z., varma S.L. : (1990) – Psycology of Adjustment and Human Relationships – New – York : Mc Grow Hill.
- Norman. T. : (1998) – Psycology of Adjustment : understanding ourselves and others – New – York : Published by D. Van nostrand company.
- Schwebel. A , Reichman. H. : (1990) Personal Adjustment and growth – New – York : C. Brow Publishers.

المراجع العربية:

1-العيسوي، عبد الرحمن: الجريمة والإدمان– دار الراتب – بيروت 2000.
2–الدليمي، إبراهيم: المخدرات والأمن القومي العربي – مركز الإمارات – الإمارات 2003.
3–القحطاني، محمد: الخصائص الإجتماعية لمتعاطي المخدرات – دار الكتب – الرياض 2002.
4–السعد، صالح: الوقاية من المخدرات – دار صفاء – عمان 1999.
5–العويني، مصطفى: آثار المخدرات على المجتمع – الهيئة المصرية – القاهرة 2002.
6–الديدي، رشا: المرأة والإدمان – الأنجلو – القاهرة 2001.
7–الحازمي، صالح: تعاطي المخدرات – النهضة العربية – القاهرة 2002.
8–أبو زيد، أحمد: سيكولوجية الذات والتوافق – المعرفة الجامعية – الإسكندرية 2011.
9–دسوقي، كمال: علم النفس ودراسة التوافق – النهضة العربية – القاهرة 2000.
10–رجعية، عبد الحميد: الآثار النفسية لتعاطي وإدمان المخدرات – مركز الدراسات –القاهرة 2009.
11–زين العابدين، درويش: علم النفس الاجتماعي – الفكر العربي – القاهرة 1999.
12–زهران، حامد: الصحة النفسية والعلاج النفسي – عالم الكتب – القاهرة 1997.
13–عبد المنعم، عفاف: الإدمان، دراسة نفسية لأسبابه ونتائجه – المعرفة الجامعية – الإسكندرية 1999.
14–عبد الحميد، محمد: الآثار الإجتماعية لتعاطي المخدرات – المركز العربي – الرياض 2003.
15–عبد القهار، فهد: مشكلات الشباب العربي – مكتبة التوبة – الرياض 2000.
16–غانم، محمد: الإمان، أضراره، نزظرياته، تفسيره – دار غريب – القاهرة 2004.
17–فهمي، مصطفى: التوافق الشخصي والاجتماعي – الخانجي – القاهرة 1999.
18–قديح، سلمان: الخصائص النفسية والاجتماعية لمتعاطي المخدرات – مركز الدراسات – القاهرة 2009.
19–كمال، علي: النفس، انفعالاتها، أمراضها وعلاجها – الدار الشرقية – بيروت 1976.
20–معيقي، عبد الرحمن: الشباب والمخدرات – الريعان – الكويت 1995.
21–متولي، فؤاد: ظاهرة انتشار وإدمان المخدرات – مركز الإسكندرية – الإسكندرية 2001.
22–ياسين، أحمد: تأثير تعاطي المخدرات على الفرد والمجتمع – الهيئة المصرية – القاهرة 2009.

المجلات

23– سويف، مصطفى: المخدرات والمجتمع – المجلس الوطني – الكويت 2010.
24– الركابي، لمياء: أسباب تعاطي المخدرات لدى طلبة المرحلة الإعدادية – مجلة «العلوم النفسية»، عدد (19)، النهضة – القاهرة 2011.
25– غيث، أحمد: قاموس علم الاجتماع – الهيئة المصرية – القاهرة 1979.

(Endnotes)

(1) سويف، مصطفى: المخدرات والمجتمع – المجلس الوطني – الكويت 2010 – ص 168، 169.

(1) أحمد غيث: قاموس علم الاجتماع – الهيئة المصرية – القاهرة 1979 – ص 45.

(2) زين العابدين درويش: علم النفس الاجتماعي – دار الفكر العربي – القاهرة 1999 – ص 34.

(3) حامد زهران: الصحة النفسية والعلاج النفسي – عالم الكتب – القاهرة 1997 – ص 28.

(4) مصطفى فهمي: التوافق الشخصي والاجتماعي – الخانجي – القاهرة 1999 – ص 213.

(5) الركابي، لمياء: أسباب تعاطي المخدرات لدى طلبة المرحلة الإعدادية – مجلة العلوم النفسية – عدد (199 – النهضة – القاهرة 2011 – ص 75.

(1) عبد الرحمن العيسوي: الجريمة والإدمان – دار الراتب – بيروت 2000 – ص 86.

(2) أحمد ياسين: تأثير تعاطي المخدرات على الفرد والمجتمع – الهيئة المصرية – القاهرة 2009 – ص 5.حمن العيسوي: الجريمة والإدمان – دار الراتب – بيروت 2000 – ص 86.

(1) إبراهيم الدليمي: المخدرات والأمن القومي العربي – مركز الإمارات – الإمارات 2003 – ص 80.

(2) إبراهيم القحطاني: الخصائص الاجتماعية لمتعاطي المخدرات – دار الكتب – الرياض 2002 – ص 134.

(3) عبد الرحمن معيقي: الشباب والمخدرات – الريعان – الكويت 1995 – ص 35.

(4) فؤاد المتولي: ظاهرة انتشار وإدمان المخدرات – مركز الإسكندرية، الإسكندرية 2001، ص 79.

(1) محمد غانم: الإدمان، أضرار، نظرياته، نفسيره – دار غريب – القاهرة 2004، ص 26.

(2) صالح السعد: الوقاية من المخدرات – دار صفاء – عمان 1999 – ص 98.

(1) أحمد ياسين: تأثير المخدرات على الفرد والمجتمع – مرجع سابق – ص 30.

(2) علي كمال: النفس انفعالاتها، أمراضها وعلاجها – الدار الشرقية– بيروت 1976 – ص 87.

(3) فهد عبد القهار: مشكلات الشباب العربي – مكتبة التوبة – الرياض 2000 – ص 87.

(1) مصطفى العويني: آثار المخدرات على المجتمع – الهيئة المصرية العامة – القاهرة 2002، ص 38.

(2) عبد الحميد رجعية: الآثار النفسية لتعاطي وإدمان المخدرات – الدار المصرية – القاهرة 2009 – ص 98.

(3) سلمان قديح: الخصائص النفسية والاجتماعية لمتعاطي المخدرات، مركز الدراسات والبحوث، القاهرة 2009 – ص72.

(1) محمد حسن غانم: الإدمان أضراره، نظرياته، تفسيره، علاجه – دار غريب – القاهرة 2004 – ص 68.

(2) رشا الديدي: المرأة والإدمان – الأنجلو– القاهرة 2001 – ص 72.

(3) صالح الحازمي: تعاطي المخدرات – دار النهضة العربية – القاهرة 2002 – ص 40.
(1) عفاف عبد المنعم: الإدمان دراسة نفسية لأسبابه ونتائجه – المعرفة الجامعية – الإسكندرية 1999 – ص 48.
(2) المرجع نفسه: ص 53.
(3) محمد عبد الحميد: الآثار الاجتماعية لتعاطي المخدرات – المركز العربي – الرياض 2003 – ص 40.
(4) سلمان قديح: الخصائص النفسية والاجتماعية لمتعاطي المخدرات – مركز الدراسات – القاهرة 2009 – ص 44.
(1) كمال دسوقي: علم النفس ودراسة التوافق – دار النهضة العربية – القاهرة 2000 – ص 38.
(2) أحمد أبو زيد: سيكولوجية الذات والتوافق – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية 2011 – ص 103.
(3) مصطفى فهمي: التوافق الشخصي والاجتماعي – الخانجي – القاهرة 1999 – 79.
(1) كمال دسوقي: علم النفس ودراسة التوافق – دار النهضة العربية – القاهرة 2000 – ص 78.
(2) كمال دسوقي: علم النفس ودراسة التوافق – مرجع سابق – ص 85.

إضطراب مابعد الصدمة وسبل المعالجة *

احمد رضوان نصرالله

استاذ متفرغ في الجامعه اللبنانية

المقدمة

تستمر الأزمة السورية منذ عشر سنوات، وتلقي بظلالها الثقيلة على كل مناحي الحياة, وتتفاقم معها مآسي الحرب بكل صورها, والتي طبعت في أذهان أبنائها.

كثير من المآسي والآلام النفسية نجمت عن هذه الحروب، ولا يزال الآلاف من الناجين يعانون منها حتى الآن، ولكن دون أن يدري بهم أحد، وذلك لندرة الدراسات الإكلينيكية و الميدانية. حيث إن هذه الدراسات تهدف بالدرجة الأولى إلى مساعدة الناجين على استعادة تكيفهم من جديد، حتى يستطيعوا المساهمة الفعالة في بناء أسرة سليمة و مجتمع متقدم.

إن الاضطراب البارز الذي يعاني منه الناجون من التعذيب وأهوال الحروب و أعمال العنف و الإرهاب و الكوارث يعرف باسم اضطراب ضغوط مابعد الصدمة، أو اضطراب مابعد الصدمة، Post–Traumatic Stress Disorder وهو اضطراب مستقل له مواصفاته وعوارضه المميزة، وقد تم تصنيفه كفئة مرضية عام 1980. (جمعية الطب الأميركية).

يختلف الأفراد عن بعضهم البعض بوجود أنماط متباينة يتسمون

* دراسة ميدانيه على عيّنة من الطلاب السوريين النازحين في مدرسة النجاريه الرسمية - جنوب لبنان.

بها، تتعلق بأفكارهم, ومشاعرهم, وانفعالاتهم المعقدة, لذا فإنه من الطبيعي التفاعل بشكل مختلف تماماً مع الأحداث التي يمرون بها وبطرق مختلفة.

ومن بين هذه الأحداث التي يستجيبون لها، الأحداث الصدمية, تلك الأحداث تعمل على تغيير شخصيات الأفراد، من حيث الفكر و المزاج و الخلق و السلوك.

تعد الأحداث الصدمية من الأسباب الرئيسية للإصابة باضطراب مابعد الصدمة، وتؤثر بشكل مباشر على الفرد، ويتعلق هذا التأثير بالفئة العمرية، والجنس، والوضع الاجتماعي، والتكوين النفسي.

إن الانتهاكات والجرائم المرتكبة في سوريا، لا يقتصر أثرها على مجموعات المحاربين، وإنما تطال مختلف فئات المجتمع, وقد نالهم من الويلات ما يخالف جميع القوانين والأعراف الإنسانية، وحُرم أغلبهم من التعليم, وهُجِّر أكثرهم إلى حيث الأمان والسلام، وغرق بعضهم، وفقد آخرون، بل وتوجر بأعضائهم، كل ذلك تحت مرأى ومسمع المجتمع الدولي، الذي لم تتجاوز ردود أفعاله تصريحات التنديد والشجب والقلق، بالرغم من وجود عشرات الإتفاقيات والقوانين التي تحمي حقوقهم، لكنه وقف عاجزاً عن تحقيقها، فهل لنا أن ندرك التداعيات النفسية التي مروا بها خلال الحرب. (قيسون, 2017، ص2).

وما نشهده اليوم في سوريا منذ أكثر من عشر سنوات، من دمار وخراب وتدهور اقتصادي، فضلاً عن المشاكل الاجتماعية النفسية والصحية، التي انعكست على المواطنين، ما دفع بالعديد من السوريين للنزوح هرباً من الخطر, وبحثاً عن حياة أفضل نتيجة الأوضاع السيئة التي يعيشون فيها، والتي أثّرت على حياتهم، وجعلتهم يمرون بأسوأ ظروف على المستوى الإنساني، كارثة إنسانية لم تشهدها سورية منذ مئات السنين،حيث تحولت إلى دولة طاردة لسكانها بسبب حالة العنف المنتشرة في الواقع السوري.

لا توجد أرقام دقيقة للّاجئين داخل سورية، ولا للّاجئين خارجها, لكن نستطيع أن نحدد ولو بشكل تقريبي ومن مصادر عدة، أرقاماً نسبية لهذا العدد, ففي معطيات متقاطعة مع أكثر من طرف سواء من قبل الحكومة السورية، أو من المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، فقد قدرت المفوضية السامية أن عدد النازحين يتجاوز المليون ونصف المليون.

فإذا تحدثنا عن وضع اللّاجئين السوريين في لبنان، البلد الصغير من حيث عدد سكانه ومساحته، فإنه يستقبل أكبر عدد من اللاجئين بالمقارنه مع الدول الأخرى.

استقبل لبنان أكثر من (835,735) لاجئاً سورياً، وقدرت الحكومة اللبنانية أن عدد اللاجئين السوريين الحقيقي يتعدى المليون على أقل تقدير،كما أنهم يعيشون

في المخيمات، والبعض الآخر في المناطق النائية التي تفتقر إلى أبسط الخدمات الأساسية، من مسكن، وتعليم، وغذاء، وتأمين صحي، وغيرها من الخدمات. (الغزالي، 2012 ،ص6).

تُعد الآثار التي خلفتها الحرب السورية كارثية على كافة فئات المجتمع, فلم يسلم منها الراشد، ولا الطفل، ولا النساء، ولا الرجال, فالأطفال هم الأكثر ضعفاً من الناحية النفسية والجسدية، بالرغم من أن الطفولة تعتبر عادة فترة سعيدة. (الببلاوي، 1990 ،ص 3).

قضيةُ البحثِ ومُشكلتُهُ

في ظل الظروف والصراعات التي تعاني منها سوريا, نزح عدد كبير من العائلات إلى لبنان, ويشكل الأطفال النسبة الأكبر من هذا النزوح, ومن المعلوم أن تأثر الأطفال أكثر من باقي الفئات العمرية، بسبب ضعف المناعة النفسية لديهم، ولعدم قدرتهم على التعبير عن الاضطرابات النفسية التي تعتريهم.

ويعد اللجوء من أهم مصادر الضغوط النفسية، والاضطرابات النفسية، كالقلق، والاكتئاب، والرهاب، واضطراب ما بعد الصدمة.

(Post–Traumatic Stress disorder PTS)

إن اللاجئ ينتقل من بيئة إلى أخرى،بيئة تتصف بعدة متغيرات اجتماعية، ونفسية غير مألوفة بالنسبة له. مما يؤدي إلى تطور الأعراض النفسية والجسدية السلبية، التي تؤثر على مسار حياته في بلد اللجوء، وقد يتعرض اللاجئون أثناء هجرتهم القسرية إلى بعض الأحداث المؤلمة والعنف، وغالباً ما يعيشون تحت ظروف حياتية قاسية في بلد اللجوء, كما أن عملية إعادة التوطين في بلد جديد ينطوي عليه التعرض لضغوطات نفسية متعلقة بالتكيف. (المومني، الفريحات2016, ص 306).

وبالنظر إلى تنوع المخاطر التي تحملها الحروب على الأطفال، فقد تزايدت في العصر الحديث الدراسات والبحوث والتقارير المعنية بتحليل آثار الحرب ونتائجها، على السكان بصورة عامة والأطفال بشكل خاص. (دكاك، 2010 , ص 400,401).

من هنا تشتد الحاجة في هذه الأيام إلى مثل هذه الدراسات، لمعرفة نتيجة هذه الأحداث وتأثيراتها السلبية على الأطفال من مختلف الجوانب, الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، وبخاصة النفسية منها.

ينجم الاضطراب عندما يتعرض شخص ما لحدث مؤلم جداً، (صدمة) يتخطى حدود

التجربة الإنسانية المألوفة، (أهوال الحروب, رؤية أعمال العنف والقتل, التعرض للتعذيب والاعتداء الجسدي الخطير، والاغتصاب, كارثة طبيعية, الاعتداء الخطير على أحد أفراد العائلة, ...الخ), بحيث تظهر لاحقاً عدة عوارض نفسية وجسدية، (التجنب والتبلد, الأفكار والصور الدخيلة, اضطراب النوم والتعرق،الخوف والاحتراز, ضعف الذاكرة والتركيز... الخ).

في الواقع ليس جميع الأشخاص الذين يتعرضون لصدمة أو كارثة يسقطون في اضطراب مابعد الصدمة، إذ إن هناك عوامل معينة قد تساعد على ظهور الاضطراب بما في ذلك طبيعة الصدمة, سن الضحية, طبيعة الشخصية، واستعدادها المرضي, ودور البيئة.

إن فئة الأطفال في مرحلة الطفولة المتأخرة، هي الأكثر تضرراً جراء الحروب والنزاعات، وذلك بسبب حساسية هذه المرحلة التي تعتبر بوابة سن المراهقة. وهي مرحلة ذات أهمية كبيرة في تكوين شخصية الفرد، وذلك لأنها تضع البذور الأولى للشخصية، فعلى ضوء ما يتلقى الفرد من خبرات تتحدد شخصيته, فإذا كانت تلك الخبرات سوية وسارة، يشب رجلاً متكيفاً مع نفسه ومع المجتمع الذي يحيط به، وإذا كانت الخبرات مؤلمة ومريرة، فإنها لاشك ستترك آثار سلبية على صحته النفسية والجسدية.

تشير تقديرات صندوق الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسيف) أن 80% من ضحايا الحروب هم من النساء والأطفال, وأن ربع اللاجئين تقريباً في جميع أنحاء العالم هم من الأطفال, لذلك وجدت من الأهمية بمكان أن أسلط الضوء على هذه الفئة الأساسية في تكوين المجتمعات, فوجهت دراستي إلى مجموعة من الأطفال النازحين الذين تتراوح أعمارهم بين 10 و12 سنة, وهي مرحلة الطفولة المتأخرة قبيل سن المراهقة, وحاولت من خلال الدراسة معرفة مستوى اضطراب مابعد الصدمة لديهم، والمساعدة في إيجاد الحلول المناسبة لاضطراب مابعد الصدمة الذي تعرضوا له خلال سنين الحرب، وذلك من خلال تطوير خطة لخفض أعراض الاضطراب، باستخدام العلاج السلوكي المعرفي وتقنيات علاجية جماعية.

ويمكن القول هنا؛ إذا تمتع الطفل بالمناعة اللازمة، وحصل على المساندة والدعم في هذه المرحلة، استطاع اجتيازها بأقل التأثيرات, وكوّن شخصية سليمة قادرة على مواجهة الصعوبات والتحديات، وأصبح عضواً فاعلاً في بناء مجتمعٍ خالٍ من الاضطرابات.

مشكلةُ البحث

المشكلة هي ضمن إطار علم النفس المدرسي؛ في مدرسة النجاريه الرسمية؛ , وتقع

في قضاء الزهراني جنوب لبنان, وتضم مراحل الروضات والتعليم الأساسي للطلاب اللبنانيين, وقد خصصت من قبل الوزارة لاستقبال الطلاب السوريين النازحين في الدوام المسائي, فبلغ عددهم الإجمالي فيها (380 طالباً), عددهم في الصف الخامس والسادس 65 طالباً, حيث تسجل في الصف الخامس 40 طالباً، ولكن العدد الفعلي الذي التحق بالمدرسة هو25 طالب, وفي الصف السادس تسجل25 طالباً، ولكن العدد الفعلي الذي التحق بالمدرسه20 طالباً, عدد الإناث 25 طالبة, وعدد الذكور20 طالباً, ويعود التغيير في الأعداد إلى التسرب المدرسي الكبير الحاصل بسبب الأوضاع الصحية والاقتصادية، حيث اضطرت العديد من العائلات إلى عدم إرسال أولادها إلى المدرسة،وأصبح العديد من الأطفال يضطرون إلى ترك المدرسة، من أجل مساعدة عائلاتهم في توفير احتياجاتهم، وذلك من خلال العمل في سن صغيرة.

تتكون البنية الاجتماعية للمدرسة من المدير، والكادر الإداري، والمدرسين، والطلاب وأهاليهم، والأخصائي النفسي، والمرشد الصحي، ومتطوعين مع منظمة كاريتاس الشريكة للأمم المتحدة ECL؛ والمستخدمين.

يوجد في المدرسة أخصائيتين نفسيتين، وهما مكلفتان من قبل وزارة التربية، وتنفذان مهامهما بإشراف منظمة اليونيسف, وتقومان بتطبيق برامجها في الإرشاد النفسي والتوجيه, حيث قامت اليونيسف بتدريبهم على منهج خاص، صفي، ولا صفي، للإرشاد النفسي والتوجيه, ويتمحور حول الحماية وتعزيز الثقة بالنفس للطلاب, وتوجد مرشدة صحية داخل المدرسة، تقوم بمتابعة الأمور الصحية والفحوصات الدورية للطلاب.

أهميةُ موضوع البحث

لا يمكن لأي شخص مهما كانت مناعته قوية أن يقف في وجه بعض المواقف المؤلمة التي قد تهدد كيانه، وتسلبه الراحة والأمان، فتعرّض الإنسان للخوف، والرعب، والمواقف المقلقة التي يشعر بالضعف أمامها، تجعله عاجزاً عن مقاومة هذه المواقف المحبطة التي لها تأثير بالغ على تكامل الشخصية واتزانها، مما يعرضه لأزمات نفسية متعددة لاحقاً.

إن الحروب تترك آلاماً لايمحوها الزمن، وخاصة في ذاكرة أبنائنا, فبين من يعيش الحرب ومن يشاهدها منهم، تضيع فرص كبيرة لنموهم, وتزداد معاناتهم، إذ تبين من خلال إحصائيات اليونيسف أن حروب العالم قتلت مليون طفل تقريباً, ويتَّمَتْ مثلهم, وخلفت (4.5) مليون إعاقة, وشردت مليون طفل, وعرضت 10 ملايين للاكتئاب, والصدمات النفسية, والجزء الأكبر من هذه الأرقام يقع في البلدان العربية، خاصة في سوريا

والعراق، ولبنان داعية إلى توفير الدعم اللازم والرعاية الصحية والنفسية للأطفال واليافعين. (اليونيسف, 2013, 3).

لذلك تكمن أهمية البحث بأنها:

تهتم بواقع الطلاب اللاجئين السوريين وما يعانوه من اضطرابات داخل المدرسة ميدان البحث.

ويُعنَى هذا البحث بالمرحلة العمرية, وهي مرحلة الطفولة المتأخرة التي تسبق مرحلة المراهقة.

يتناول الظروف الصعبة التي يمر بها الطلاب السوريون .

يساعد هذا البحث المدرسة (ميدان البحث) لاتخاذ إجراءات مناسبة تسهم في إنشاء برامج متخصصة، (إرشادية وعلاجية)، لتقديم الدعم اللازم للطلاب الذين يعانون من اضطراب مابعد الصدمة.

أهداف البحث

الهدف العام للبحث

تطوير خطة عمل لخفض أعراض اضطراب مابعد الصدمة لدى عينة من الطلاب اللاجئين السوريين في المدرسة.

الأهداف الفرعية

يهدف إلى معرفة نسبة انتشار اضطراب مابعد الصدمة لدى عينة من الطلاب اللاجئين السوريين في المدرسة.

تطبيق تقنيات علاجية فعالة، كالعلاج السلوكي المعرفي.

تحديد مدى فاعلية العلاج المستخدم واستمراريته بالنسبة لهذه الحالات.

الكشف عن الفروق الفردية في التأثير بين الجنسين.

نوع البحث

نظراً لوجود المشكلة في واقع المدرسة. وبعد مراجعة القسم الإداري الذي اعتبرها مشكلة ويجب حلها, فإن المنهج الإجرائي (التشاركي الواقعي) هو الأكثر ملائمة كون الطالب لاينتمي للمؤسسة، ولأن المشكلة المطروحة هي مشكلة تفاعلية واقعية، تحتاج إلى تشارك جميع المعنيين لإيجاد الحلول المناسبة لها, وهي تتطلب التدخل في ميدان البحث.

العينة/المستفيدون

تتألف العينة من الطلاب السوريين النازحين المسجلين في مدرسة النجاريه الرسمية في الدوام المسائي, من المفترض أن عددهم هو65طالب وطالبة من صفي الخامس والسادس، لكن بسبب التسرب المدرسي أصبح العدد45 طالب وطالبة، تتراوح أعمارهم بين 10 و12 عاماً, تم اختيار عينة البحث باعتماد العينة العشوائية, وتم تطبيق مقياس دافيدسون لاضطراب مابعد الصدمة لهذه العينة، ومن خلال النتائج تبين أن 20 طالباً وطالبة لديهم اضطراب مابعد الصدمة.

الأدوات المستخدمة

- مقياس اضطراب مابعد الصدمة لدافيدسون، وتم استخدامه لأهداف تشخيصية، لتحديد الطلاب الذين يعانون من الاضطراب .

— المقابلات الفردية، والتي تهدف لمعرفة أسباب الاضطراب، وتشخيص الحالات، وذلك باعتماد الأسئلة السقراطية, وتحديد الأحداث الصادمة، والتحليل النفسي.

— تطبيق العلاج السلوكي المعرفي، من خلال عدة جلسات.

مشكلة البحث و أسئلته

— يسعى البحث للإجابة عن الأسئلة التالية:

— كيف يمكن تطوير خطة لخفض أعراض اضطراب مابعد الصدمة، لعينة الطلاب النازحين السوريين؟

— إلى أي مدى سوف يؤثر تطبيق علاج سلوكي معرفي في التخفيف من الأعراض؟

— هل يمكن من خلال تحديد الأحداث الصادمة لدى الحالات من خفض الأعراض؟

— هل يمكن استخدام تقنيات علاجية تعتمد على الأنشطة الجماعية من تخفيف الأعراض، والخروج أو التخفيف من حالة الصدمة؟

إن الحلول المقترحة هي:

— تطبيق مقياس اضطراب مابعد الصدمة على العينة لمعرفة نسبة انتشار الاضطراب، وتحديد الحالات التي سوف يتم التعامل معها.

— استخدام المقابلات الفردية لتحديد الحدث الصادم.

— تطبيق علاج سلوكي معرفي للتخفيف من الاعراض.

— استخدام الأنشطة الجماعية التي تهدف إلى التخفيف من أعراض اضطراب مابعد الصدمة.

إن استجابة عينة البحث للحلول المقترحة، وللتقنيات العلاجية المتبعة معهم، وتعاونهم وتقبلهم لوجود الأحداث الصادمة التي تؤثر على حياتهم، يساعد في إمكانية حل مشكلة البحث التي تسعى لخفض أعراض اضطراب مابعد الصدمة.

تحديد المفاهيم

1– اضطراب مابعد الصدم

تعرّفه الرابطة الأمريكية للطب النفسي في الدليل التشخيصي والإحصائي الخامس للاضطرابات النفسية (APA,2013,DSM), بأنه الأعراض التي تتبع التعرض للحدث الصدمي, وتشمل ظهور عرض أو أكثر من الأعراض التالية المرتبطة بالحدث الصادم, وهي تكرار الأحلام والذكريات بشكل قسري ولاإرادي, والتجنب الدائم للأحداث المرتبطة بهذا الحدث, وحدوث اضطرابات في الإدراك والنوم, وشعور عام بالضيق وعدم القدرة على التركيز والاندماج في العلاقات مع الآخرين (DSM,5,2013).

ويعرّف الحجار اضطراب مابعد الصدمة، بأنه اضطراب قلق، ينجم عن التعرض إلى شدة بيئية قاهرة، ساحقة، راضّة، ويتسم بأعراض متكررة تتضمن تكرار الشعور بالخبرة أو الحادثة الراضّة، ولا مبالاة، وإثارة عامة، وقلق، (الحجار,1998:95).

أما (مكتب الإنماء الاجتماعي, 2001:44)،فيعتبره فئة من فئات اضطرابات القلق، حيث يعقب تعرض الفرد لحدث ضاغط نفسي، وجسمي، غير عادي، وذلك بعد التعرض له مباشرة، وفي أحيان أخرى ليس قبل ثلاثة أشهر، أو أكثر، بعد التعرض لتلك الضغوط.

إن الأعراض المميزة لاضطراب مابعد الصدمة، تتضمن تجربة شخصية مباشرة للحدث، مهددة للذات، تنطوي على موت فعلي، أو تهديد للسلامة الجسدية للذات، أو للآخرين, وتتضمن استجابة الشخص لهذه الأحداث، الخوف الشديد، أو الترويع، أو الكرب, ويظهر أثر ذلك خلال الذكريات المؤلمة للحدث, والأحلام الشديدة المزعجة, ويعيش الإنسان الحدث المؤلم كما لو كان في الواقع, ويتجنب كل مايثير المخاوف, كما تؤثر هذه الأحداث في وظائف الفرد الحياتية.

.(DSM4 TR, 2002.p.463)

إن اضطراب مابعد الصدمة هو عبارة عن: جملة من الأعراض أو مجموعة من المظاهر، أو الملامح المرضية الحقيقية، التي تمثل خطراً على حياة الإنسان، وعلى مستقبل توافقاته, ويكون سببها حدث صدمي يتسم بأنه:

– يحدث للإنسان من الناحية النفسية أقداراً من الكرب، والضيق، والهم، والغم، والقلق.

– يعاني كل مريض من هذا الضيق، والهم، والكرب، بدرجة تختلف عما يعانيه منها مريض آخر.
– يكون فوق طاقة الفرد وقدراته, بمعنى أنه لا قِبَلَ له به، لأنه يقع خارج نطاق الخبرة الإنسانية العادية، التي يمكنها مواجهة أحداث الحياة المثيرة للمشقة، أوالضغوط النفسية على مدار اليوم، أو الحياة بكاملها. (Corsini,1994,v,3,103 & Others)

فقد عرَّف جيمس (James 1989) الخبرة الصادمة بأنها: صدمة انفعالية تؤدي إلى ضرر جوهري واضح في النمو النفسي للفرد، وهي قوية وحادة لا يمكن السيطرة عليها. هذه الخبرات الصادمة، تكون لها أضرار نفسية على الضحايا " الأشخاص المصدومة"، التي تتمثل من خلال مشاعر العجز التي يشعر بها الفرد، وفقدان الشعور بالأمن، أو فقدان السيطرة، والاستسلام. (شعت، 2005، 36) .

العوامل المؤثرة في استجابات الأفراد للخبرة الصادمة: ليس كل الأشخاص الذين تعرضوا إلى صدمة نفسية، يصابون باختلال نفسي؛ لأنه ثمة عوامل وسيطة متعددة، تقوم بدور الحماية، أو الحفظ ؛ مثل: (الشخصية، أو المزاج، والعوامل الجينية، والأمراض النفسية الأخرى، و أساليب مواجهة الصدمة النفسية، والعوامل العائلية، والاجتماعية والثقافية المختلفة).

ويمكن تقسيم العوامل التي تؤثر في استجابة الفرد، إلى ثلاث مجموعات رئيسية؛ هي عوامل تتعلق بالحدث الصادم، وعوامل تتعلق بشخصية الفرد، وعوامل تتعلق بالمحيط الخارجي وهي كالتالي:

1– طبيعة الحدث الصادم: يمكن تحديد طبيعة الحدث الصادم بأبعاد متعددة؛ منها ما يتعلق بنوع الخبرة الصادمة، فالأشخاص الذين يتعرضون لخبرات صادمة، تتضمن تهديداً بالموت، أو الإصابة، وتهديد السلامة الجسدية الشخصية، فالناجون يكونون أكثر تأثراً, ويكونون عرضة للاضطرابات النفسية الناتجة عن الخبرات الصادمة، أكثر من الأفراد الذين يتعرضون لمشاهدة، أو لسماع مواقف، وأحداث صادمة، تتضمن تهديداً بالموت، أو الإصابة، وتهديداً للسلامة الجسدية للآخرين.
(Wenar & Kerig, 2000, 187– 188)

ودرجة القرب من الحدث الصادم، تؤدي دوراً في استجابة الفرد للخبرة الصادمة، فالشخص الذي يتعرض بيته للقصف، أو إطلاق النار، وهو بداخله يتأثر بالحدث الصادم، أكثر من الشخص الذي لا يتعرض بيته للقصف، أو إطلاق النار، و تؤثر شدة الصدمة النفسية من حيث استمرار التعرض للأحداث الصادمة لمدة زمنية طويلة، والتعرض لأكثر من حدث صادم.

إن المناطق التي تشهد حروباً، تلعب أيضاً في درجة استجابة الشخص للخبرة الصادمة، ودرجة التأثر بها، وتجعله أكثر عرضة للإصابة بالاضطرابات النفسية الناتجة عن الخبرات الصادمة. (شعت، 2005، 33).

2- عوامل تتعلق بشخصية الفرد: بينت الدراسات والأبحاث التي أجريت على الأشخاص الذين طوروا اضطرابات نفسية بعد الصدمة، وجود علاقة بين الشخصية السابقة والمزاج، وتطور اضطرابات نفسية لديهم فيما بعد، ووجود اضطرابات نفسية سابقة لدى الفرد الذي يتعرض لخبرات صادمة، يزيد من احتمال تطور الاضطرابات النفسية الناتجة عن خبرات صادمة أكثر من الأفراد الآخرين الذين لا يوجد لديهم اضطرابات سابقة، وفي دراسة أجراها (et, Thabet 1997, al.) على الأطفال الفلسطينيين في قطاع غزة، وجد أن الأطفال الذين كانوا يعانون مشاكل سلوكية انفعالية، كانوا أكثر عرضة للتأثر بالخبرات الصادمة، والإصابة بالأمراض النفسية الناتجة عن مواقف صادمة، وبعد سنة وجد الباحثون بأن هناك انخفاضاً في نسبة المشاكل السلوكية والانفعالية نتيجة ابتعاد الأطفال عن الخبرات الصادمة, ويقول ثابت أيضاً إن الجنس له دور بارز، هنا حيث أظهرت تلك الدراسة أن الفتيات في سن المدرسة يظهرن أعراضاً نفسية أكثر من الأولاد، ولكن مشكلات السلوك العدواني أكثر لدى الأولاد.

.(Thabet, et. Al, 1997, 2)

3- عوامل تتعلق بالمحيط الخارجي: تستند استجابة الطفل للأحداث الصادمة ودرجة التأثر بها إلى حد بعيد, إلى استجابة الوالدين أو الأشخاص الذين يعدون قدوة للمراهق، وتربط المراهق علاقة معهم، مثل المعلم في المدرسة، أو أحد الإخوة والأخوات الكبار، أو ربما بعض الأصدقاء والأقارب، مما ينعكس على درجة الدعم الأسري للطفل حين يتعرض لموقف صادم، ويؤدي مستوى الدعم الاجتماعي في المدرسة والمجتمع دوراً مهماً في الحد من آثار الخبرات الصادمة، على المدى القريب والبعيد، ويقلل من احتمال الإصابة باضطرابات نفسية ناتجة عن الخبرات الصادمة.

. (Turner, 1999, 188)

ويُعرَّف إجرائياً: بأنه الدرجة التي يحصل عليها الطفل من أفراد العينة على مقياس اضطراب مابعد الصدمة.

1- اللاجيء

بحسب اتفاقية عام 1951 بشأن اللاجئين، يُعَرّف اللاجئ على أنه شخص "يوجد خارج دولة جنسيته بسبب تخوف مبرر من التعرض للاضطهاد أو للموت لأسباب ترجع إلى عرقه

أو دينه أو جنسيته أو انتمائه لعضوية فئة اجتماعية معينة أو آرائه السياسية أو بسبب الحروب الدائرة التي يكون هو فيها الضحية والخاسر الأكبر، وأصبح بسبب ذلك التخوف يفتقر إلى القدرة على أن يستظل بحماية دولته التي قد تكون هي لاعباً في الحرب أو يكون مطلوباً لها أو لم تعد لديه الرغبة في ذلك.

3 – مرحلة الطفولة المتأخرة

هي المرحلة التي تمتد من عمر 6 سنوات إلى 12 سنة, بحيث تبدأ هذه المرحلة عند دخول الطفل إلى المدرسة, وتنتهي في سن البلوغ, وتعد هذه المرحلة هي فترة النضج, حيث تتطور اهتمامات جديدة لدى الطفل إلى جانب النضج من الناحية الجنسية , كما ويتطور الطفل من الجانب البدني والعقلي أيضاً, وبشكل عام تتأثر الطفولة المتأخرة سواء في بدايتها أو نهايتها, بالظروف التي تؤثر بشكل كبير من الناحية الشخصية، والاجتماعية للطفل, كما وتتميز بداية الطفولة المتأخرة بدخول الطفل إلى الصف الأول في المدرسة.
الطفل لغة: قال أبو الهيثم الصبي يدعى طفلاً حين يسقط من بطن أمه إلى أن يحتلم ابن منظور(1994). ويعرف الطفل وفق مواثيق الأمم المتحدة بأنه كل إنسان لم يتجاوز السنة الثامنة عشرة (اتفاقية حقوق الطفل 2002–2004).
أما مرحلة الطفولة المتأخرة فتقابل السنوات الثلاثة الأخيرة من التعليم الابتدائي, او السنوات الثلاثة الوسطى من التعليم الأساسي. وتشهد هذه المرحلة فترة من الاستقرار في العديد من مظاهر النمو, حيث يتخطى الطفل توابع المرحلة الانتقالية من المنزل إلى المدرسة, وتتضح ميوله الاجتماعية ويتخفف تدريجياً من الالتصاق بالمدرسة(بركات حسن2000).

4– العلاج السلوكي المعرفي

العلاج السلوكي المعرفي (CBT) هو نوع شائع من العلاج بالكلام (العلاج النفسي). يتم التعامَل فيه مع مُستشار الصحة العقلية (مُعالِج نفساني أو مُعالج) بطريقة منظَّمة، وحضور عددٍ محدود من الجلسات.
تساعدك طريقة العلاج السلوكي المعرفي (CBT) على أن تُدرك التفكير غير الصحيح، أو السلبي، حتى تتمكَّن من عرض المواقف الصعبة بشكل أكثر وضوحاً، والاستجابة لها بطريقة أكثر فعالية.
يمكن أن تكون طريقة العلاج السلوكي المعرفي أداة مُفيدة جداً، إما بمُفردها، أو باشتراكها مع علاجاتٍ أخرى في علاج اضطرابات الصحة العقلية، مثل الاكتئاب، واضطراب الكرب

التالي للصدمة (PTSD)، أو اضطراب الأكل. رغم ذلك، ليس كل من يخضع لطريقة العلاج بالسلوك المعرفي (CBT) مصابًا بحالةٍ صحية عقلية. يُمكن أن تكون طريقة العلاج السلوكي المعرفي (CBT) أداة فعَّالة لمساعدة أيِّ شخصٍ على تعلُّم كيفية إدارة ظروف الحياة المُجهِدة بشكلٍ أفضل.

عرف»آرون بيك» العلاج المعرفي السلوكي، على أنه العلاج النفسي القائم على النموذج المعرفي، الذي يفترض أن التفكير المشوش والسلبي (الذي يوثر على مشاعر وسلوك المرضى) هو الغالب في معظم الاضطرابات النفسية, وأن التقييم الواقعي وتعديل الأفكار يؤدي إلى تحسن في المزاج والسلوك. واستمرار التحسن ينتج عن تعديل المعتقدات السلبية الراسخة لدى المرضى.

(ج. بيك ,11:2007).

إجرائياً يتحدد تحقق العلاج المعرفي السلوكي بتطبيق الخطة المقترحة القائمة على فنيات العلاج المعرفي السلوكي, وفقاً لما اقترحه « آرون بيك»، والذي يهدف إلى إحداث تعديلات ذهنية (معرفية).

الفصل الثاني

الإطار الإجرائي

تمهيد

قدّمنا في الفصل السابق الإطار المنهجي، والمشكلة البحثية للدراسة الحالية، وعرضنا الأدبيات النظرية الخاصة بمفاهيم الدراسة، وذلك لوضع الأسس المنهجية والنظرية التي صاغت هيكلية الدراسة، وسوف نقدّم في هذا الفصل آلية العمل الميداني، ومسار التدخّل الإجرائي، من خلال توصيف حالات أفراد العينة، وعرض نتائجهم، على مقياس ضغوط ما بعد الصدمة للأولاد الذين ظهرت عليهم أعراض اضطراب ما بعد الصدمة، من خلال الإجراء القبليّ للدراسة على المقياس، وسوف نستعرض مسار جلسات التدخّل، والنتائج البعدية للعيّنة، وتحليل ومناقشة نتائج التدخل الإجرائي والخلاصة العامة للدراسة الحالية وللتجربة الإجرائية.

مجتمع البحث

مدرسة النجاريه الرسمية — قضاء الزهراني .

يشكّل مجتمع البحث فئة الطلاب النازحين السوريين داخل المدرسة.

وهي مدرسة تضمّ طلاباً في دوامين: صباحي ومسائي.

تتكون المدرسة من طابقين علويين، وطابق سفلي. تضمّ في دوامها المسائي3 شعب روضات2 شعب صف أول – 2 شعب صف ثاني – 2 شعب صف ثالث – شعبتين صف رابع – شعبة واحدة صف خامس – وشعبة واحدة صف سادس.

وتتألف الإدارة من:

المدير – مساعد المدير– النظّار (ناظر لكل قسم).

الموظفين الإداريين – عامل الإستقبال – عامل الهاتف – امينة السر – المحاسب.

الأساتذة والمعلمين، وهؤلاء لديهم قاعات خاصة بهم – الأخصائي النفسي – المرشد الصحي – متطوعين من منظمة كاريتاس.

العينة

تتألف عينة الدراسة من 20 طالباً، يعانون من اضطراب ما بعد الصدمة من الصف الخامس والسادس:

7 طلاب من الصف السادس (5 إناث – 2 ذكور)

13 طالب من الصف الخامس (8 إناث – 5 ذكور).

اختيار العيّنة

تمّ إجراء تدخّل قبليّ للدراسة لتحديد الطلاب الذين يعانون من أعراض اضطراب ما بعد الصدمة، وتم تطبيق مقياس دايفدسون لاضطراب ما بعد الصدمة على64 طالباً من أصل 75 بسبب التسرّب الحاصل وكانوا40 من الصف الخامس و 24 من الصف السادس.

وأظهرت نتائج المقياس الطلاب الذين لديهم اضطراب ما بعد الصدمة، وبلغ عددهم 20 (13 إناث– 7 ذكور) وعلى أساسه تمّ تحديد العيّنة.

الفئة العمرية

تتراوح أعمارهم بين 12–10 سنة.

أدوات الدراسة

1 – الملاحظة

تمّ القيام بالملاحظة المنظمة داخل مدرسة النجاريه الرسمية ، للطلاب النازحين السوريين، ونتج عن هذه الملاحظة ما يلي:

- انخفاض الرغبة في المشاركة لدى الطلاب النازحين السوريين.
- ظهور أعراض لما بعد الصدمة لدى بعض الطلاب النازحين.
- مشاكل في الأكل والشرب وترتيب الأدوات.

– ارتفاع معدّل التسرّب المدرسي لدى فئة النازحين السوريين.

2 – المقابلة نصف الموجّهة

اعتمدنا المقابلة نصف الموجهة مع الأولاد وأهلهم في المدرسة، لفهم وتوصيف طبيعة الحالة لدى كل ولد، حيث تتيح المقابلة نصف الموجهة حرية توجيه المقابلة تبعاً لاستجابات المفحوص، وتسمح بقدر جيد من حرية التعبير، حيث تمّ خلال هذه المقابلات تحديد أنواع النقص في المهارات، (الحس ، حركية) لدى أفراد العينة، وآثارها الشعورية والسلوكية السلبية، وانخفاض القدرة على التواصل مع أفراد المجموعة وإنجاز النشاطات والمهام.

3– مقياس اضطراب ما بعد الصدمة لـ(دايفدسون)

● توصيف المقياس: يتألف المقياس من 17 بنداً تماثل الصيغة التشخيصية الأمريكية الرابعة للطب النفسي.

وهو مقسّم إلى ثلاثة بنود هي:

1– استعادة الخبرة الصادمة (17–4–3–2–1).

2– تجنّب الخبرة الصادمة (11–10–9–8–7–6–5).

3– الاستثارة (–12 –13 –14 15 – 16).

ويتمّ احتساب نقاط المقياس على خمس درجات من صفر إلى 5 ويكون مجموع درجات المقياس 153.

وتُقسم الدرجات على البنود الثلاثة ومن ثمّ تحوّل إلى نسب مئوية بحيث كلّما ارتفعت النسبة عن 50% تكون الأعراض مرتفعة.

● صدق المقياس: تم احتساب مستوى الصدق للمقياس من خلال تقنية الصدق التلازمي، من خلال قياس نسبة الارتباط مع مقياس الاضطرابات النفسية الناتجة عن مواقف صادمة للإكلينيكيين، وجاءت نتائج معامل الارتباط عالية 0.60% ما يدلّ على معدّل صدق جيد.

● ثبات المقياس: تمّ اعتماد أسلوب test–re–test لاحتساب مستوى ثبات المقياس، حيث تمّ تعبئة المقياس من قبل عينة الدراسة مرتين، يفصل بينهما14 يوماً وجاءت نتائج معامل الارتباط بين المرتين عالية، وكانت 0.88 ما يدلّ على معدّل ثبات مرتفع جداً، (Kiwapinski,2019).

4– برنامج التدخّل الإجرائي:

بناء على نتائج الملاحظة المنظمة والمقابلات نصف الموجّهة ونتائج أفراد العينة على مقياس ضغوط ما بعد الصدمة، تمّ تصميم برنامج التدخّل، وهو برنامج قائم على النظريات السلوكية المعرفية، وتمّ تحديده ضمن جلسات تتضمّن أنشطة متنوعة هادفة

إلى خفض أعراض ما بعد الصدمة لدى الطلاب.

● توصيف البرنامج

يتكون البرنامج من عدة جلسات (11 جلسة) ذات أنشطة متنوعة الأساليب والأهداف, بمعدل جلسة بالأسبوع والبرنامج مصمم على الشكل التالي:

المدة الزمنية للجلسة: تتراوح بين ساعة ونصف وساعتين.

أنواع الأنشطة المستخدمة في البرنامج:

1- نشاطات جسدية تفريغية: (صوت – حركة): غناء – رقص – تقليد حيوان.

2- نشاطات فنّية تفريغية: رسم – معجون – تلوين.

3- نشاطات تعبير ومواجهة: تعرّض سردي– تمثيل أدوار.

4- نشاطات تخيّل، وتصميم مواقف، وحالات جديدة من خلال الكتابة والمسرح.

● الأهداف العامة للبرنامج

1- التنفيس والتفريغ للانفعالات المؤلمة والغير سارة.

2- تعزيز القدرة على التعبير عن الأحداث والمشاعر المؤلمة.

3- تعزيز القدرة على مواجهة الذكريات، والحديث عنها لتخفيف حدّة تأثيرها.

4- تعزيز القدرة على تغيير بنية التفكير بالحدث الصدمي، بطرح احتمالات عدة.

5- تعزيز القدرة على فكّ التثبيت الفكري تجاه الحادث الصدمي.

مراحل تنفيذ الخطة الإجرائية

(جدول 1: توصيف أفراد العينة – مجموعة الإناث)

الحالة	الحدث الصادم
1	تعرّض منزلهم للقصف، وانهدم بالكامل، ثم الهروب والنجاة.
2	تعرّض منزلهم للقصف، وانهدم بالكامل، ثم الهروب والنجاة.
3	تعرّض منزلهم للقصف، وانهدم بالكامل، ثم الهروب والنجاة.
4	تعرّض منزلهم للقصف، وانهدم بالكامل، ثم الهروب والنجاة.
5	فقدان أحد الأقارب، (العم) بسبب القصف.
6	فقدان أحد الأقارب، (الخالة) بسبب القصف.

7	فقدان أحد الأقارب، (الأخ) بسبب القصف.
8	فقدان أحد الأقارب، (ابن العم) بسبب القصف.
9	فقدان (الأب)، بسبب الحرب والأحداث الأمنية.
10	فقدان (الأب)، بسبب الحرب والأحداث الأمنية.
11	فقدان (الأب)، بسبب الحرب والأحداث الأمنية.
12	التعرض لإطلاق نار عشوائي أثناء هروبهم الغير شرعي إلى لبنان.
13	التعرض لإطلاق نار عشوائي أثناء هروبهم الغير شرعي إلى لبنان.

(جدول 2: توصيف أفراد العينة - مجموعة الذكور)

الحالة	الحدث الصادم
1	التعرض للاعتقال لفترة قصيرة، ثم الخروج والهروب إلى لبنان.
2	التعرض للاعتقال لفترة قصيرة، ثم الخروج والهروب إلى لبنان.
3	شاهد عملية قنص وقتل لأحد أبناء الحي الذي يسكنونه.
4	شاهد عملية قنص وقتل لأحد أبناء الحي الذي يسكنونه.
5	شاهد عملية قنص وقتل لأحد أبناء الحي الذي يسكنونه.
6	فقد كل عائلته أثناء الحرب، ويعيش في بيت خاله.
7	فقد كل عائلته أثناء الحرب، ويعيش مع جديه.

الإجراءات القبليّة لبرنامج التدخّل

قبل البدء ببرنامج التدخّل قمنا بإجراء قياسات قبليّة لتحديد الطلاب الذين يعانون من اضطراب ما بعد الصدمة من النازحين السوريين، وتم تحديد عينة الدراسة بناء على هذا الإجراء، وقد جاءت النتائج القبليّة لأفراد العينة على الشكل التالي:

تحليل النتائج

يتبيّن لنا من خلال نتائج أفراد العينة على مقياس ضغوط ما بعد الصدمة ما يلي:

– وجود مستوى مرتفع من أعراض ما بعد الصدمة على الأبعاد الثلاثة.

– مستوى أعراض ما بعد الصدمة لدى جميع أفراد العينة، لا تقلّ عن 60% وهو مستوى مرتفع.

لم يتبيّن وجود فروق بين الإناث في الأعراض تبعاً لنوع الحدث الصادم (تهديم منزل

– فقدان أحد الأقارب – إطلاق نار).

لم يتبيّن وجود فروق بين الذكور في الأعراض تبعاً لنوع الحدث الصادم (اعتقال– مشاهدة قنص– فقدان أهل).

– مستوى التجنّب كانت أعلى لدى الذكور من الإناث، حيث تعدّت ال 70% عند الذكور.

– مستوى الاستثارة لدى مجموعة الإناث أقل بقليل من مستواها لدى الذكور.

– مستوى استعادة الحدث الصادم كانت أقل لدى مجموعة الذكور مقارنة مع الإناث.

التدخّل الإجرائي للدراسة

بعد تحديد الأدوات البحثيّة وإجراء القياسات القبلية لتحديد مستويات أعراض ما بعد الصدمة، تمّ تصميم برنامج التدخّل العلاجي، تمّ تقسيم برنامج التدخّل إلى مجموعات من الجلسات، (11 جلسة) حيث تضمنت (4) مجموعات من الأنشطة.

1 – نشاطات جسدية تفريغية (صوت – حركة): غناء – رقص – تقليد حيوان.

2 – نشاطات فنّية تفريغية: رسم – معجون – تلوين.

3 – نشاطات تعبير ومواجهة: تعرّض سردي – تمثيل أدوار.

4 – نشاطات تخيّل وتصميم مواقف وحالات جديدة من خلال الكتابة والمسرح.

حيث تمّ الاتفاق بشكل جماعي على مواعيد الجلسات بما يتلاءم مع جميع أفراد العيّنة.

مكان الجلسات

القاعة المُخصصة للنشاطات في المدرسة.

(جدول 3 : الجلسة الأولى)

عنوان النشاط	أهداف النشاط	سير النشاط	تقييم النشاط
النشاط 1 غناء جماعي حرّ	– التفريغ. – التعبير. – تحرير الصوت. – تحرير الانفعالات. – الترفيه. – التفاعل مع الآخرين.	طَلب من كل فرد التعريف عن نفسه امام المجموعة بصوت واضح، طَلب من كل فرد اختيار الأغنية التي يحبّها، ويبدأ بغنائها ثم يبدأ الجميع بغنائها معه بحرية مع التصفيق على الإيقاع.	كان التفاعل جيداً بين الأولاد، وغنّوا سوياً بشكل مرح، وكانوا سعداء بحيث استطاعوا الترفيه عن أنفسهم وتحرير أصواتهم وانفعالاتهم.

النشاط 2 غناء عكاظيات	- التفريغ. - التعبير. - تحرير الصوت. - تحرير الانفعالات. - الترفيه. - التفاعل مع الآخرين.	بدأ النشاط باختيار حرف معين، وعلى كل واحد تذكر أغنية تبدأ بهذا الحرف مع استكمال غنائها جماعياً، واستتباع أغنية جديدة من الحرف التي تنتهي معه الأغنية الأولى.	برز التفاعل الايجابي بين المشاركين والتعبير عن السعادة والفرح بعد الانتهاء من النشاط والحث على القيام بهذا النشاط في المنزل.

(جدول4 : الجلسة الثانية)

عنوان النشاط	أهداف النشاط	سير النشاط	تقييم النشاط
النشاط 1 رقص جماعي حرّ	- التفريغ. - التعبير. - تحرير الجسد والحركة. - تحرير الانفعالات. - الترفيه. - التفاعل مع الآخرين.	تمّ الاتفاق على عدّة أغاني محبّبة من جميع الأولاد ووضعت الأغاني على اليوتيوب والمطلوب أن يرقص الأولاد سوياً على الأغاني التي اختاروها بشكل جماعي حرّ مع المتابعة ومراقبة الأولاد الذين لا يتفاعلون والذين لا يقومون بالرقص او ليس لديهم رغبة بالمشاركة بحيث تمّ تحفيزهم وحثّهم على المشاركة الفعلية والرقص.	كان التفاعل مقبولا بين الاولاد حيث رقصوا سوياً بشكل مرح وكانوا سعداء و استطاعوا الترفيه عن أنفسهم وتحرير أصواتهم وانفعالاتهم وكان هناك بعض الأولاد الذين لم يكن لديهم الرغبة الكافية بالرقص ولكن تمّ تشجيعهم لكي يشاركوا ثم عادوا وشاركوا وكان الرقص لدى البعض الأخر متحفظ إلى حدّ ما ولكن أيضاً تمّ تحفيزهم لإطلاق العنان لعفوية الجسد.

النشاط 2 غناء عكاظيات	- التفريغ. - التعبير. - تحرير الصوت. - تحرير الانفعالات. - الترفيه. - التفاعل مع الأخرين.	بدأ النشاط باختيار حرف معين وعلى كل واحد تذكر أغنية تبدأ بهذا الحرف، مع استكمال غنائها جماعياً، واستتباع أغنية جديدة من الحرف التي تنتهي معه الأغنية الأولى.	التفاعل الايجابي بين المشاركين، والتعبير عن السعادة والفرح بعد الانتهاء من النشاط، والحث على القيام بهذا النشاط في المنزل.

خلاصة مجموعة الأنشطة الجسدية التفريغية

كانت هذه المجموعة من الأنشطة مفيدة للأولاد، وقد حقّقت أهدافها من خلال التفريغ النفسي الانفعالي من خلال الصوت، وحركة الجسد، بحيث تمّ اختيار الغناء والرقص، لأنه يشتمل على عنصر التعبير الصوتي، والحسي الحركي، وأيضاً عنصر التفاعل والتواصل الجماعي، والمشاركة وعلى عنصر التحرّر، وقد كانت الجلسة الأولى والثانية جيدة بشكل عام، وحققت أهدافها إلى حدّ كبير.

(جدول5: الجلسة الثالثة)

عنوان النشاط	أهداف النشاط	سير النشاط	تقييم النشاط
النشاط 1 رسم الولد لنفسه وعائلته.	- التعبير. - التفريغ. - تعبير الولد عن رؤيته لذاته. - تحرير الانفعالات. - تفريغ الأفكار على الورق. - تعبير الولد عن نظرته ومشاعره تجاه عائلته.	يُعطى الأولاد أوراق بيضاء وأقلام، ويُطلب منهم أولاً رسم صوره لأنفسهم، ثم يُطلب منهم رسم صورة لأنفسهم مع عائلاتهم، ثم بعد انتهاء الرسم يتم التحدّث مع كل ولد عن رسماته، ويُطرح عليه أسئلة حول تفاصيل تلك الرسمة.	كانت رسومات الذكور تميل إلى الاختصار والتجنّب، وعدم الاهتمام بالرسم وخاصة عند الصبيان الذين فقدوا أهلهم، حيث ظهر عدم رغبتهم برسم العائلة، وكانت إجاباتهم مقتضبة. بينما الإناث كنّ أكثر تعبيراً وتفصيلاً برسوماتهن، وقاموا بالحديث أكثر عن الأسئلة المطروحة.

النشاط 2 رسم حر - شيء من اختياره	- التفريغ. - التعبير. - تحرير الصوت. - تحرير الانفعالات.	تم الطلب من أفراد العينة أن يرسموا رسماً حراً كما يرغبون.	بشكل عام رسمت الإناث رسمات تدلّ على الحدث الصادم الذي تعرّضوا له. بينما رسم الذكور رسومات لما يتمنون لو يعود أو أن يحصل.

(جدول6 : الجلسة الرابعة)

عنوان النشاط	أهداف النشاط	سير النشاط	تقييم النشاط
النشاط 1 تلوين الذات والعائلة واختيار الألوان التي يريدها بنفسه.	- التفريغ. - التعبير. - تحرير الانفعالات. - الترفيه. - التعبير عن الأحاسيس من خلال الألوان. - التفاعل مع الآخرين.	طلب من الأولاد أن يلوّنوا كل رسمة رسموها بألوان معيّنة يختارونها مسبقاً.	مالت الألوان لرسمة العائلة والشخص لنفسه إلى ألوان زاهية بالنسبة للفتيات، بينما مالت الألوان على رسم الذات والعائلة لدى الصبيان إلى أن تكون داكنة إلى حدّ ما.
النشاط 2 تلوين الرسمة الحرة.	- التفريغ. - التعبير. - تحرير الصوت. - تحرير الانفعالات. - الترفيه. - التفاعل مع الآخرين.	طلب من الأولاد تلوين الرسمة الحرة التي رسموها.	كانت الرسمة الحرة ألوانها لدى الإناث بشكل عام داكنة، ولدى الذكور زاهية.

(جدول7: الجلسة الخامسة)

عنوان النشاط	أهداف النشاط	سير النشاط	تقييم النشاط
النشاط 1 تشكيل أشخاص من المعجون من اختيار الفرد.	- التفريغ. - التعبير. - الانفعالات. - الترفيه. - تحرير المشاعر من خلال النشاط اليدوي. - إسقاط الرغبات من خلال التشكيل.	يعطى المعجون المختلف الألوان للأولاد ويُطلب منهم تشكيل عدّة أشخاص من اختيارهم.	بشكل عام فقد شكّل الأولاد جميعهم أفراد عائلتهم من المعجون، بحيث أن جميع الأولاد شكّلوا آباءهم وأمهاتهم وإخوتهم (الإناث والذكور)، والفاقدين لأحد أفراد إسرتهم أو أهلهم فقد قاموا أيضاً بتشكيل الشخص الذي فقدوه.
النشاط 2 تشكيل شيء من اختيارهم من المعجون.	- التفريغ. - التعبير. - تحرير الانفعالات. - الترفيه. - تجسيد المواقف المؤثرة.	طلب من الأفراد تشكيل شيء معين من اختيارهم بواسطة المعجون.	قامت الفتيات بتشكيل منازل وأزهار وأشخاص يحبونهم. بينما قام الذكور بتشكيل أشكل أسلحة وضباط .

خلاصة مجموعة النشاطات الفنّية التفريغية

كانت الأنشطة الفنية التفريغية مفيدة جداً لناحية التعبير وتحرير الانفعالات، ومواجهة الأشخاص المؤثرين، والمواقف، من خلال الرسم والتجسيد والتلوين.

(جدول8: الجلسة السادسة)

عنوان النشاط	أهداف النشاط	سير النشاط	تقييم النشاط
النشاط 1 الحديث عن الحياة قبل المواقف الصادمة.	- المواجهة. - التفريغ. - التعبير. - تحرير الأفكار. - تحرير الانفعالات. - تبادل الخبرات. - التفاعل مع الآخرين. - تحرير المخاوف.	الطلب من كل فرد التحدّث عن حياته قبل حدوث الموقف الصدميّ.	كانت مجموعة الإناث أكثر ميلاً للحديث والتعبير من الذكور الذين كانوا مُقتضبين بالكلام.
النشاط 2 الحديث التفصيلي الوصفي عن الحدث الصدمي.	- التفريغ. - التعبير. - تحرير الصوت. - تحرير الانفعالات. - فك الارتباط السلبي للصدمة. - التفاعل مع الآخرين.	طلب من كل فرد التحدّث عن الموقف الصادم وتذكّره بتفاصيله المكانية والوصفية والمشاعر والأفكار.	كان النشاط مثمراً جداً لناحية مواجهة الموقف الصدمي والحديث عنه بتفاصيله، والمشاعر المترافقة معه، بشكل عام جميع أفراد العينة قاموا بنشاط التعرّض السردي بشكل مثمر.

(جدول 9: الجلسة السابعة)

عنوان النشاط	أهداف النشاط	سير النشاط	تقييم النشاط
النشاط 1 إعادة الحديث التفصيلي عن الحدث الصادم بشكل متضمّن للنقاش والأسئلة حول الأفكار المترافقة مع التحدّث عن الحادث.	– المواجهة. – فكّ التثبيت لمفهوم الصدمة. – التفريغ. – التعبير. – تحرير الجسد والحركة. – تحرير الانفعالات. – التفاعل مع الآخرين.	طلب من كل فرد إعادة سرد الموقف الصدمي بتفاصيله مرة ثانية، مع مناقشته حول أفكاره ومشاعره وتقييمه للحدث.	كان النشاط مثمراً على صعيد المواجهة التعبيرية، والإضاءة على تفاصيل الأفكار والمشاعر الصادمة، وكانت مثمرة على صعيد تحرير الانفعالات الحادة بشكل جيد.
النشاط 2 تصميم مشهد تمثيلي للموقف الصدمي.	– التفريغ. – التعبير. – تحرير الصوت. – تحرير الانفعالات. – تحرير الصدمة عبر تجسيدها. – التفاعل مع الآخرين وتبادل الخبرات.	طلب كل فرد تصميم مشهد تمثيلي يكون هو بطله ، وتساعده بعض الشخصيات من اختياره، وهو تمثيل للموقف الصدمي الذي تعرض له.	كان النشاط مفيداً جداً من خلال تكرار المواجهة الحسّية مع الصدمة، وتحريرها وتجسيدها، بحيث عبّر الأولاد جميعهم عن الموقف الصادم ، وبشكل خاص الذكور الذين كانوا أقل تعبيراً في الجلسات السابقة لناحية التعبير الكلامي.

(جدول 10: الجلسة الثامنة)

عنوان النشاط	أهداف النشاط	سير النشاط	تقييم النشاط
النشاط 1 تمثيل المشهد الذي تمّ تصميمه مجموعة الإناث.	- التفريغ. - التعبير. - تحرير الجسد والحركة. - تحرير الانفعالات. - التفاعل مع الآخرين. - المواجهة.	قامت كل فتاة من أفراد العينة بتمثيل المشهد الذي قامت بتصميمه بنفسها على خشبة المسرح.	كان النشاط مثمراً بحيث تمّت مواجهة الموقف بشكل فعلي وكامل، باستخدام جميع الحواس ومن خلال الكلام وإعادة تمثيل المشهد وقد بدا أن ذلك أعطى مشاعر إيجابية.
النشاط 2 تمثيل المشهد الذي تمّ تصميمه مجموعة الذكور.	- التفريغ. - التعبير. - تحرير الصوت والجسد. - تحرير الانفعالات. - الترفيه. - التفاعل مع الآخرين. - المواجهة.	قام كل صبي من أفراد العينة بتمثيل المشهد الذي قام بتصميمه بنفسه على خشبة المسرح.	كان النشاط مثمراً بحيث تمّت مواجهة الموقف بشكل فعلي وكامل باستخدام جميع الحواس، ومن خلال الكلام وإعادة تمثيل المشهد، وقد بدا أن ذلك أعطى مشاعر إيجابية وخاصة للفتيان الذين كانوا متجنبين أكثر من غيرهم للموقف الصدمي.

خلاصة مجموعة أنشطة التعبير والمواجهة:

كانت مجموعة نشاطات المواجهة التعبيرية والتمثيلية مثمرة وإيجابية جداً، بحيث أدّت إلى تخفيف حدّة المشاعر السلبية المترسّخة اتجاه الصدمة، وتعزيز القدرة على مواجهتها، وبالتالي تقليل الميل إلى التجنّب.

(جدو ل11: الجلسة التاسعة)

عنوان النشاط	أهداف النشاط	سير النشاط	تقييم النشاط
النشاط 1 تخيّل أحداث مختلفة للموقف الصادم.	– تحفيز القدرة على التعلم من خلال المواجهة. – تعزيز القدرة على فتح مسارات فكرية جديدة لفك الارتباط الصدمي.	طلب من الأولاد تخيّل وتصميم أحداث مختلفة للموقف الصادم.	كان النشاط مُحفزاً للأولاد لطرح بدائل فكرية وتخيّل لمواقف مختلفة، وكانت تخيلاتهم بشكل عام تميل إلى أن تجعل الحدث الصادم أكثر إيجابية.
النشاط 2 تخيّل سلوك مختلف للأشخاص الذين كانوا في الحادث.	– تحفيز القدرة على التعلم من خلال المواجهة. – تعزيز القدرة على فتح مسارات فكرية جديدة لفك الارتباط الصدمي.	طلب من الأولاد تصميم سلوكات وردّات فعل بديلة للأشخاص الذين كانوا معهم في الموقف الصدمي.	فتح هذا النشاط الباب لدى الأولاد لطرح بدائل فكرية وسلوكية إيجابية كحلّ بديل وأفضل لسلوكات الآخرين في تلك المواقف.

(جدول12: الجلسة العاشرة)

عنوان النشاط	أهداف النشاط	سير النشاط	تقييم النشاط
النشاط 1 تخيّل وتصميم سلوك وردود فعل ذاتية جديدة تجاه الموقف الصدمي وذكرياته.	– تحفيز القدرة على التعلّم من خلال المواجهة. – تعزيز القدرة على فتح مسارات فكرية جديدة لفكّ الارتباط الصدمي.	طُلب من الأولاد إعادة تصميم الموقف الصادم الذي تعرّضوا له مع استبدال سلوكهم الخاص وردود أفعالهم في خضم ذلك الحدث.	أثمر هذا النشاط عن قيام الأولاد بتقييم ذاتي لسلوكهم السابق وطرح سلوك جديد أكثر إيجابية.
النشاط 2	– تحفيز القدرة على التعلّم من خلال المواجهة. – تعزيز القدرة على فتح مسارات فكرية جديدة لفكّ الارتباط الصدمي.	تمثيل الحدث الصدمي الذي تم تعديله من خلال تغيير السلوك الذاتي لكل ولد.	كان النشاط مفيداً جداً لناحية فكّ التثبيت الصادم بطرح بدائل جديدة إيجابية تفتح آفاق تخطّي التفسير السلبي للحدث.

خلاصة مجموعة نشاطات التخيّل والتصميم للمواقف والحالات الجديدة
كانت نشاطات التخيّل والتصميم للمواقف والحالات مثمرة جداً، ومفيدة، وقد ظهرت نتائجها من خلال تصرفات الأولاد وتفاعلهم خلال تلك النشاطات، بحيث كانوا أكثر تعبيراً وإيجابية ورغبة في المشاركة.

نتائج البحث

الإجراءات البعدية لبرنامج التدخّل

تحليل النتائج

يتبيّن لنا من خلال نتائج أفراد العينة على مقياس ضغوط ما بعد الصدمة ما يلي:

– انخفضت مستويات أعراض ما بعد الصدمة على الأبعاد الثلاثة لدى جميع أفراد العينة.

– انخفضت مستويات أعراض ما بعد الصدمة لدى جميع أفراد العينة بحيث باتت لا تزيد عن 54% وهو مستوى متوسط.

– تراجعت مستويات الأعراض على الأبعاد الثلاثة لدى مجموعة الإناث بمعدّل أعلى من مجموعة الذكور، خاصة على بُعديّ الاستثارة والتجنّب، بحيث باتت مستوياتها لدى الإناث أقل من المتوسط بحدود 49–42 %.

– بقيت مستويات الأعراض لدى مجموعة الذكور متوسطة ولم تنخفض عن ال 50 %.

– لم يكن هناك فروق في مستويات انخفاض الأعراض لدى أفراد العينة تبعاً لنوع الحدث الصادم.

تقييم نتائج التدخّل الإجرائي

كان مسار البرنامج جيداً وسلِساً، وقد كان هناك تجاوب لدى أغلب الأولاد وخاصة الفتيات، ورغم أن الذكور كانوا في بداية الجلسات أقلّ تعبيراً ورغبة في التغيير من الإناث. إلا أنهم وفي الجلسات اللاحقة أبدوا تجاوبهم، وعبّروا عن ما في داخلهم وقاموا بالمشاركة في كافة النشاطات.

وقد بيّنت الجلسات وتتابعها التحسّن الذي بدا على الأولاد لناحية التعبير والتفريغ لانفعالاتهم ومخاوفهم، وقد تمكّنوا من تحقيق النشاطات المطلوبة من ناحية التعبير عن الموقف الصدمي لأساليب مختلفة كلامية وجسدية، ومن ناحية مواجهة المواقف المؤلمة وتذكّر الأشخاص المؤثرين لديهم، وقاموا بمواجهة كل هذه الأمور من خلال رسوماتهم، ولاحقاً من خلال التمثيل الواقعي للمواقف الصادمة التي كانت جداً مفيدة في تحرير الكثير من الانفعالات والمخاوف لدى الأولاد.

كما أن نشاطات التخيّل وتصميم المواقف الجديدة فتحت آفاقاً فكرية وشعورية وسلوكية لدى الأولاد، بتبديل نظرتهم وتقييمهم للحادث الصادم، ولتقييمهم لذواتهم، وللآخرين في خضمّ الحادث، بحيث عزّزت قدرتهم على طرح بدائل وحلول فكرية وسلوكية أكثر تكيّفاً وإيجابية، وبالتالي فقد عزّز مسار النشاطات التي بدأت بأنشطة التفريغ والترفيه، واستُتبعت بنشاطات التعبير الفني والحركي والجسدي، وما تلاها من نشاطات رسم وتشكيل خاص بالمواقف والأشخاص المهمين في حياتهم ولذواتهم، ولاحقاً نشاطات المواجهة للموقف الصدمي بأساليب مختلفة، كلامية، وسردية، وتمثيلية، والتي كانت صعبة إلى حدٍّ ما، ولكنهم أنجزوها فكانت النتائج جيدة جداً لناحية القدرة على مواجهة الصدمة من دون مخاوف، وأخيراً أتت النشاطات التغييرية التي تطرح بدائل واحتمالات وسلوكيات ومواقف جديدة ومختلفة للأحداث؛ لكي تُرسّخ إمكانية الأولاد على فكّ التثبّت الصدمي، والخروج إلى مسارات فكرية جديدة.

الخلاصة

أثمر البحث الإجرائي الحالي عن تحقيق أهدافه الأساسية، والتي تمحورت حول:

- مساعدة الأولاد على تخطّي الأحداث الصادمة.
- إدخال مشاعر الراحة والمرح إلى الأولاد.
- مساعدة الأولاد على التعبير عن مكبوتاتهم ومخاوفهم؛ لناحية الحدث الصدمي.
- مساعدة الأولاد بأساليب مختلفة للتفريغ والتعبير.
- تعزيز قدرة الأولاد على خلق رؤية ونظرة جديدة تجاه المواقف وتجاه الذات.
- تصميم برنامج يساهم في خفض أعراض ما بعد الصدمة لدى الأولاد النازحين السوريين.
- تحقيق البرنامج لأهدافه من ناحية خفض أعراض ما بعد الصدمة بشكل فعلي، كما تبيّن من نتائج المقياس البعديّ لأعراض ما بعد الصدمة.

كما أبدى فريق العمل داخل المدرسة عن فاعلية البرنامج وإيجابيّاته في خفض أعراض ما بعد الصدمة، مثل التجنّب، والاستعادة، والاستثارة. وحتى تعزيز القدرات على التكيّف وتخطّي التثبيت الصدمي، وتعلّم بدائل فكرية جديدة، كما أنها كانت تجربة مفيدة جداً على الصعيد الشخصي، من حيث إكتساب الخبرة بالنسبة لأساليب العمل الجماعي، وتنفيذ البرامج داخل المدارس، وأساليب التفاعل وتنفيذ النشاطات، كذلك بالنسبة للمقابلات والتدخّل الإرشادي.

لقد كانت مسيرة إجراء الدراسة الحالية مفيدة جداً على الصعيد الشخصي، من ناحية تطوير مهارات الإرشاد النفسي، والتدخّل مع الأولاد، من خلال الأنشطة المختلفة، على

صعيد العمل الجماعي وتحديداً مع الأولاد من فئة مرحلة الطفولة المتأخرة والمعرّضين لصدمات، وكانت تجربة مميزة جداً من ناحية التواصل والتحفيز والتفاعل مع الأولاد، وكان الأثر النفسي إيجابي جداً، خاصة مع التغيير والراحة التي ظهرت على الأولاد.

الصعوبات التي واجهت الدراسة

– ظهرت الصعوبات في بداية التحضير لبرنامج التدخل الإجرائي، من ناحية تحديد طبيعة الأولاد لوضع الأنشطة الملائمة لتحقيق الأهداف.

– واجهنا بعض الصعوبات أيضاً من ناحية تنسيق العمل بين الفريق.

– ومن ثم في بداية البرنامج كانت هناك بعض الصعوبات التنظيمية، لضبط وتوجيه الأنشطة بشكل موجّه، لحثّ الأولاد على التعبير والمشاركة، ولترسيخ الثقة والارتياح بينهم، وأيضاً لتنفيذ وتأدية النشاطات المطلوبة.

– لاحقاً أصبحت مسيرة الأداء أفضل، واستكملت تحسّنها بشكل تصاعدي، حتى نهاية برنامج التدخّل.

ابرز توصيات البحث

تتمحور توصيات الدراسة الحالية حول الامور الاتيه :

– إجراء المزيد من الدراسات التطبيقية.

– إجراء المزيد من الدراسات الإجرائية مع الأولاد الذين تعرّضوا لصدمات مختلفة.

– إجراء المزيد من الدراسات والتدخّلات الإجرائية لتحسين المهارات التكيّفية لدى الأولاد الذين عانوا من مواقف صادمة.

– إجراء المزيد من الدراسات الإجرائية التي تعمل على تطوير وتنفيذ برامج تساعد على خفض الأعراض الصدمية لدى الأولاد المشردين والنازحين.

– إجراء المزيد من الدراسات الإجرائية لتقديم التدخلات العلاجية المختلفة تبعاً للمشكلات القائمة.

– إجراء المزيد من التدخلات العلاجية عبر الأنشطة في مجال المدارس.

– استثمار البرامج التي يتم تصميمها في الدراسات الإجرائية داخل ميادين العمل مع الأولاد.

– العمل على تطوير وتعديل البرامج من خلال تحديد مكامن النقص وتعديلها.

– اعتماد برامج الأنشطة التعبيرية وأنشطة المواجهة في المؤسسات التي تُعنى بالأولاد النازحين؛اوالمهمشين والمهشمين نفسيا.

الخاتمة

كانت الدراسة الإجرائية الحالية مثمرة ومفيدة جداً، لناحية تحقيق أهدافها الأساسية في خفض أعراض ما بعد الصدمة لدى الأولاد النازحين السوريين في مدرسة النجاريه الرسميه والذين ظهرت لديهم مستويات مرتفعة من أعراض ما بعد الصدمة.

لقد كان برنامج التدخّل منظماً، وممنهجاً، وأثمر عن تحسّن جيد لدى الأولاد، سواء عبر الملاحظة لسلوكاتهم، ومشاعرهم، وتصرفاتهم، خلال الجلسات، أو من الناحية الفعلية عبر إعادة تطبيق مقياس أعراض ما بعد الصدمة والتي انخفضت بنسبة جيدة خلال فترة ليست بطويلة.

كما أن نتائج الدراسة الإجرائية كانت مفيدة على الصعيد الشخصي، كتدريب مهم جداً في تصميم برامج التدخّل مع الأولاد داخل المدارس، وتنفيذها ضمن جلسات جماعية.

وقد أبدى فريق العمل في المؤسسة فرحهم بالنتائج الإيجابية للبرنامج، من ناحية تحسين الحالة النفسية لهؤلاء الأولاد، وتعزيز رغبتهم في المشاركة والدراسة والنجاح.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربيه

1 – الببلاوي، فيولا(1990) مشكلات السلوكية عند الأطفال الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ,مصر.

2 – بركات حمزة حمزة حسن / علم النفس المدرسي / الدارالدولية للإستثمارات الثقافية القاهرة – مصر2008

3 – تقرير UNRWA (2016) الأنشطة الترفيهية للدعم النفسي الاجتماعي.

4 – ثابت، عبد العزيز. (1998)الخبرات الصادمة وتأثيراتها النفسية والاجتماعية على الأطفال الفلسطينيين. برنامج غزة للصحة النفسية، غزة، فلسطين.

5 – ثابت، عبد العزيز. (1998)الخبرات الصادمة وتأثيراتها النفسية والاجتماعية على الأطفال الفلسطينيين. برنامج غزة للصحة النفسية، غزة، فلسطين.

6 – ثابت، محمد، وآخرون (2001)أثر الصدمة النفسية على الأطفال الفلسطينيين والصحة النفسية لأمهاتهم في قطاع غزة. برنامج غزة للصحة النفسية.

7 – الحجار محمد حمدي. (1998). علم النفس المرضي.بيروت: دار النهضة.

8 – دكاك، أمل (٢٠١٠) "الاحتلال الأمريكي للعراق وانتهاك حقوق الأطفال العراقيين"، دراسة ميدانية لعينة من الأطفال العراقيين اللاجئين في دمشق، مجلة جامعة دمشق، العدد ٢٦، العدد الثالث والرابع.

9 – سليم، مريم (2002) علم نفس النمو، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية،
10 – شعت، ناضل. (2005) تأثير الصدمة النفسية في تطور كرب ما بعد الصدمة والحزن بين الأطفال. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القدس، فلسطين.
11 – شعت، ناضل. (2005)تأثير الصدمة النفسية في تطور كرب ما بعد الصدمة والحزن بين الأطفال. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القدس، فلسطين.
12 – الغزالي، ناصر. (2012) "تقرير النازحون في سورية واللاجئون السوريون في لبنان، الأردن، تركيا، العراق، مصر". www.dctcrs.org
13 – فرويد، سيغموند (١٩٩٤) ما فوق مبدأ اللذة، ترجمة p.gov.moh.www ، الطبعة الخامسة، دار المعارف.
14 – قيسون، ابراهيم(2017) أطفال سوريا في زمن الحرب، طوران للأبحاث والدراسات.
15 – مكتب الإنماء الاجتماعي (2001) سلسلة تشخيص الاضطرابات النفسية واضطرابات الضغوط التالية للصدمة. التشخيص. الكويت. لديوان الملكي.
16 – مكتب الإنماء الاجتماعي (2001) سلسلة تشخيص الاضطرابات النفسية واضطرابات الضغوط التالية للصدمة. العلاج. الكويت. الديوان الملكي.
17 – مكتب اليونيسف في الشرق الأوسط (1995) مساعدة الطفل الذي يعاني من الصدمة النفسية دليل العاملين الاجتماعيين والصحيين. عمان.
18 – منظمة الصحة العالمية (2009) مبادئ الدعم والاسعاف النفسي الأولي للقائمين على الرعاية النفسية للمصابين بالصدمة النفسية الناجمة عن حوادث العنف والكوارث. العراق. مكتب المنظمة.
19 – منظمة اليونيسف (2010) الصحة النفسية والدعم النفسي الاجتماعي في حالات الطوارئ، الاصدار العربي، منشورات اليونيسف.
20 – المومني، فواز، الفريحات، إسراء (2016) "القدرة التنبوئية لبعض العوامل الاجتماعية والديموغرافية بحدوث الاضطرابات السيكوسوماتية لدى اللاجئين السوريين"، ادلة الأردنية للعلوم الاجتماعية: العدد ٩، العد د٤.
21 – نصر الله، أحمد (2019)، مسارك المنهجي، نحو إعداد بحثي الماجستير والدكتوراه، دار المحجة البيضاء.

المراجع والمصادر الأجنبية

1- American Psychiatric Association (2013). Diagnostic and statistical manual of Disorder: DSM-5, Washington, DC: Condon, England
2- Cohen, A; et. Al. (2006). A multi–Site, Randomized Controlled Trail For Children With Posttraumatic Stress Disorder after Incident Stressor. Journal of community psychology, vol 34, issue 3, p. p: 118- 149.
3 - Corsini,R.J,& wedding, D (2011) current psychotherapies. 9 the Edition. USA.Brooks\cole.

4- Davision, D. Necle. C.C (1998). Abnormal psychology seventh Edition. John wiley and sonsinc. Harcourt. Brece and woldinc. New York.
5- Famularo, R Fenton, t. (1994). "Early development history and pediatric PTSD. Arch. pediatric. Ad plesemed Oct. 148(10) – 1032(8).
6- Goldstein, R. wampler, N, & Wise, B (1997) War experiencesand stress symptoms of Bosnian children, pediatrics, n 100 (5), p873-88
Hafmann ,S(2012) An introduction to modern CBT.UK:wiley-7
8- Ingo, Schafer; et, al. (2006). Post Trauma syndromes in children an Adolescents After Road Traffic Accidents – Aprospe Chort Study . In Ternational Journal of Descriptive and Experimental Psychopathology, vol .39 .No .4
9- Sadock, B,& Sadock, V (2000): Comprehensive Text Book of New York
10-Schirald, G. (2009). The post-Traumatic stress disorders second Edition.
11- Thabet, A. (1996). Notes in General Psychiatry. 1st ed. Gaza, p. p: 73-78-
12- Turner, F. (1999). Adult Psychopathology, second edition. the free press, New York, p.p: 638_658. 96.
13-Turner, Wilson. (2006). Relious orientation and social support on healthpromoting behaviors of African American college students. Journal of community psychology, Jan. vol 34, issue 1, p.p: 105-115. 97.
-UNHCR (2007): united nation high commissioner for Refugees14
Iposs survey on Iraq Refugees 31- (11-25), Final results
15-Wenar,C; Kerig, p. (2000). Developmental Psychopathology: from infancy through adolescence. fourth ed, New York: Mc Graw- hill, Inc, p. p: 185-188.
16-Williams & wilkins, Lippicott psychiatry, Seven edition., USA, pp 1461-1478

الصفحات الالكترونية

https://www.unhcr.org/ar/4be7cc27201.html لتعريف اللاجئ

https://e3arabi.com/?p=542592: مراحل الطفولة المتأخرة
http://www.alaraby.com.uk 2015

http://www.questia.com. . 1996 دافيدسون وزملاؤه وبرسيلو

إشكالية اللغة السردية والسلطة في رواية (إعجام) ل سنان أنطون

هبه محمد الحشيمي

أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية

المقدّمة:

قبل التعريف بالموضوع علينا التوقف أمام روائي باهر هو: "سنان أنطون"، بوصفه من كتّاب الرواية العراقيين البارزين، وقد قدّم هذا الأديب مجموعة من الأعمال الروائيّة التي حظيت بإعجاب القرّاء. وتتناول رواياته الأربع المنشورة (إعجام، وحدها شجرة الرمان، يا مريم، فهرس) تاريخ العراق، والأحداث التي عصفت بالعراقيين خلال العقود الأخيرة. وجعل من بغداد بوصلته ومن الهم العراقي تراجيديا تطرح رؤية متكاملة بما فيها من أبعاد نفسيّة واجتماعيّة وثقافيّة وسياسيّة.

واختيار روايه إعجام ل"سنان أنطون" يعود إلى ما تناولته الرواية من اهتمام عالمي وترجمات إلى ثماني لغات منذ عام 2002 وما حظيت من إبداع فني متكامل ينهض على جماليات اللغة التي اقتربت إلى قصيدة الشعر في ومضتها وتوهجها مع تشويق السرد الحديث، في آنٍ معاً.

عندما نلقي نظرة متمعّنة إلى الموضوعات التي عالجها سنان في روايته (إعجام)، نجد شؤون العراق وشجونه وثقافته باختلاف انتماءاته الطبقيّة أو الاجتماعيّة أو الدينية. قد شكلوا محور اهتمام الروائي؛ وهو جعله الضحية الأولى لحروب العراق التي

عاشها العراقيون خلال العقود الأخيرة.
يتمحور هذا البحث في رواية "إعجام" حول (إشكاليات اللغة في الزمان والمكان) داخل رواية سنان، ودراسة الزمان والمكان من خلال اللغة عند روائي متمرس بالكتابة، وبتصوير الوجع العراقي في مآسي مختلفة؛ يتطلّب منا الإحاطة بالعوامل التي نهض عليها هذا العالم المتخيل، واستخراج الدلالات اللغويّة التي انطوى عليها، والآفاق التي يسعى إلى بلوغها.

سبب إختيار الموضوع:

تغلغلت رواية إعجام إلى السجون العراقيّة فهي تعتبر ضمن أدب السجون وتسربت إلى إحدى الثانويات والجامعات وإختصاص اللغة الإنكليزية، بما تنطوي عليه الجامعات والثانويات من أبعاد بأفكار شبابية طلابية، وبما تحتويه من تناقضات على المستويات المختلفة الثقافية، الاقتصادية، الطبقية، السياسية، الوطنية والقومية بشكل خاص والإنسانية بشكل عام.
هذا العمل الثاني للروائي سنان أنطون بعد "وحدها شجرة الرمان"،حيث شدني الشغف والاهتمام بالواقع العراقي من خلال رؤية جديدة نافذة إلى أعماق الإنسانيّة، ورؤية الروائي النافذة إلى المجتمعات العراقية؛ ما يحمل من هموم وتطلعات وما يتحمّل من معاناة. شكلت روايات سنان جزءًا من الحياة العراقية والعربية عمومًا.
إستطاع "سنان"حملنا إلى أحد السجون وإحدى الشخصيات وإحدى الديانات، وجمع بينها بعلاقة فنية متعددة الأبعاد،تتتابع وتتلاحق أحيانًا وتتشظى وتتضارب في بعض الأحيان؛ إلّا أنّ هناك خيوطًا خفيّة تمسّك بها، وحاول أن يجمع بينها من خلال قاموسه الزماني الذي سيطر على الرواية من بدايتها.
لا يتجاوز عدد صفحات الرواية 128 صفحةً، ولكنها قائمة على تكثيف الأفكار، وضخ الحالة النفسية الكفيلة بتقبل نهايتها المفتوحة التي تعطي صورة واضحة عن مصير الشخصية الرئيسية. كما تظهر الرواية أنها ضمن أدب السجون بحيث يعتمد "أنطون" على هوامش لتوضيح الكلمات ضمن السياق، فيستبدل القائد ب"القاعد" والحقوق ب"العقوق" ويعتمد على الطباق والجناس اللغوي للتعبير عن مواقف البطل، ويحاول أن يهرب من السبب المباشر من تفاصيل اعتقاله... فهذه المناورة بين السجن والذاكرة جعلت سببًافي اختيار الموضوع، وتميّزه بمحاولة الكشف عن التفاعلات التي تنتج منه، وتؤدي دورها ضمن إطار الاستراتيجيّة التي وضعها الكاتب.

الإشكاليات التي يثيرها الموضوع:

عندما يتّصف العمل الأدبي بالأصالة، يعني أنّه لا يكتفي بوصف الواقع، وإنّما يطرح الأسئلة ويترك للمتلقي فرصة التفكير في الحلول الملائمة. وتثير رواية "سنان أنطون" جملة الإشكاليات على الصعيدين الفكري والفني وهي تستدعي التوقف أمامها: ومن هذه الإشكاليات على الصعيد الفكري:

— إشكالية الأحزاب والسجون: هذه الإشكالية ليست جديدة، بل هي قديمة بقدم الإنسان نفسه، إلّا أنّها تحظى بقدر كبير الأهميّة، من خلال الرؤية السياسيّة والإجتماعية والعبودية والتحررية. الراوي يكشف عن مخطوطة مهمّة كتبها معتقل بخط يده من أحد السجون وتتناول القمع الذي فرضه النظام آن ذاك. ويكشف عمّا خفي في أعماق السجين ويترك الأبعاد مفتوحة أمام المتلقي.

— يضاف إلى هذا، إشكالية الطالب العراقي المتنقل من المرحلة الثانوية إلى المرحلة الجامعية، ومانتج عن مواقف معارضة للطلبة، ضد هذا القمع وهو ما ينتهي به معتقلًا، وهذا القمع قاد إلى الضياع، الأمر الذي جعل إشكالية اللغة تختلف بإختلاف الزمان والمكان والتي تتصدّر هدف البحث. هذا البناء الذي حاول الروائي جمعه ومتابعته في نطاق بنائي قريب إلى التوحّد قد تخلّله التصدع، كما عرف التغير بحسب تغيّر الأحداث وتغيّر أنماط الشخصيّة المعبّرة عن خلخلة هذا البناء الواقعي.

تحضر الحياة العاطفيّة للكاتب في أغلب الرواية مقارنة بضآلة الحضور العائلي، إذ يعيش الطالب مع جدته منذ طفولته، بحيث لا تتعدّى العلاقات: جدّته حبيبته وصديقه. ويبقى الراوي غير قادر على تحديد المكان النفسي الذي يقبع فيه ويصفه بأنه: هنا(ك).

— فكيف يتمّ تتابع الوحدات السردية في رواية "إعجام"؟ وما دلالات ذلك التتابع؟

فالوحدات السردية التي تتضمّن الإشارة إلى الحدث، تحاول الكشف عن التفاعلات التي تنتج منه وتؤدي دورها ضمن إطار الاستراتيجيّة التي وضعتها الكآبة.

— والإشكالية التي تتعلّف بمفهوم الزمن "هنا(ك)" هل جعلت الروائي يطابق زمن الحكاية مع زمن السرد؟ أم جعله مغايرًا؟ وهل لجأ إلى استخدام تقنيّات التسريع والتبطيء، وما هي الدلالات التي أنتجها النص؟انطلاقًا من هذه التقنيات المستخدمة؟

— كذلك طرح"سنان أنطون" إشكالية الزمن الطاغي في النص: هل هو زمن موضوعي؟ أم نفسيّ داخلي؟

— يطرح الروائي إشكالية جديدة تتمثّل في الدور الذي أدّاه المكان في العمل الروائي فهل هذا المكان فاعلاً؟ أم مسرحاً للأحداث؟

– هل أدّى المكان دوره في صلب الروائي، أم اقتصر على التزيين؟ أم تشكل من خلال إختراق الأبطال له؟

– وهل كان على علاقة بالمكونات السردية الأخرى، كالشخصيّة، والروائية والزمن أم تجاهل ذلك؟

– إن الروائي "أنطون" يضع هذه الإشكاليات أمام المتلقي، ويترك له فرضية تقدير الأجوبة المناسبة، وتتمثّل الإشكالية في الدور الذي نهض به أسلوب الكاتب، وفي مدى نجاحه في التعبير عمّا يرمي إليه، من خلال الأسلوب.

المنهج النقدي المتّبع

يقصد بالمنهج النقدي الطريقة التي تعتمد (العلم) وسيلة للتعامل مع الموضوع المدروس، وأصل الوصول إلى الخصوصية التشكيليّة والدلاليّة التي تميّز بها النص. ونطرح جانباً التأثيرات والأهواء والتعاطف ونتغلغل إلى الحقيقة والعلم،فالمنهج النقدي يساعد على استنباط النص من خلال سبر أغواره واستنباط مخزوناته ومكنوناته الغنيّة والأدبيّة.

المنهج النقدي ليس مجرد أداة إجرائيّة تساعد على ضبط الخطوات في التعامل فحسب، هو، وسيلة للبحث عن المعرفة يبقى محكوماً بالرؤية المعرفية، والخلفية النظرية مع وجود العلاقة الجدلية التكاملية التي تحكمهما. ووجدت من الضرورة اعتماد المنهج البنيوي السردي السيميائي الذي يبحث عن مكوّنات البنية السردية للخطاب، من راوٍ، ومروي، ومروي له بتعريف(دليل مناهج البحث العلمي في قسم اللغة العربية، البرامج السردية، ص 65)

أفضل أن أبرز تيارين رئيسيين في السردية:

– الأوّل: هو السردية الدلالية التي تعنى بمضمون الأفعال السردية.

– الثاني: هو السردية اللسانية التي تُعنى بالمظاهر اللغوية للخطاب، مع ما ينطوي عليه من رواة وأساليب وسرد وعلاقات تربط الراوي بالمروي.

وهذا يصف الإفادة من معطيات السردية بتياراتها: الدلالي واللساني والعمل على دراسة الخطاب السردي في مظاهره بصورة شاملة.

من الجانب الإجرائي، يحاول هذا البحث لغة الزمان والمكان في رواية سنان أنطون (إعجام)، وفاق هذا المنهج، للوصول إلى مرحلة التأويل، بتعبير آخر، محاولة إستثمار الإمكانات التي سيوفرها هذا المنهج، والإفادة منها في الوقوف على دلالات النصوص المدروسة.

نقد بعض المراجع

يعجز الباحث عن الإطلاع على جميع ما كُتب من أبحاث ودراسات تناولت العمل الروائي، لهذا يمكن القول أن هناك مجموعة قيّمة من الكتب التي ساعدتني على إنهاء بحثي هذا وذلك لأنّ الموضوع المطروح لم يكتب عنه سوى القليل من المقالات في طيّات بعض المجلّات والجرائد.

درس "عبدالمجيد زراقط" البناء الروائي في كتابه "في بناء الرواية اللبنانية"، وقد درس "زراقط" المنظور الروائي وبناء الحقبات وبناء الزمان والمكان دراسة وافية في اثني عشر عدداً من النماذج المختارة. وهذا الكاتب يقدم العون والمساعدة خصوصًا في الجوانب التي تتناول الزمان والمكان ودورهما في البناء الروائي.

قدّم الناقد "غريماس" في كتابة البنيوية السيمائية بحثاً عن الطريقة لمساعدة كبيرة في دراسة الشخصيات الروائية. لقد اعتمد هذا الناقد أغوارها للتحليل، ينطلق من ستة عوامل، تحكمها ثلاث علاقات أسماها علاقات الرغبة، التواصل، والصراع، كما ميّز بين العوامل والممثلين. وكما كانت رواية (إعجام) تتناول مراحل زمنية متكسرة تشكل مرحلة مهمّة من مراحل الحرب في العراق، فالكتاب المذكور هو خير مساعد في دراسة العمل الروائي.

خطة البحث

يتناول البحث بناء الزمان في رواية إعجام، فندرس علاقات الترتيب في الرواية، علاقات الديمومة،علاقات التردد، دوائر المكان ومكوّناته في الرواية، تمثيل المكان في الروايات،تقاطب المكان في الرواية، دراسة وظائف المكان والأشياء، وتنتهي الخطة بخاتمة تبرز النتائج الأكثر أهمية لما تمّ التوصل إليه.

مضمون الرواية

في نهاية رواية إعجام،يذكر الراوي ملحقًا بأنّه قام بالإطلاع على مخطوطةمبهمة، كتبها معتقل بخط يده في أحد السجون العراقية، يتناول فيها السلطة القمعية التي فرّ منها الحزب في العراق في زمن معين.

بطل الرواية هو طالب مسيحي يدرس اللغة الإنكليزية وآدابها في الجامعة، ويتعرّض لقمع من رجال الحزب المنتسبين إلى إتحاد الطلبة العراقيين؛ نتيجة مواقفه ضد النظام، وهو ما ينتهي به في السجن.

يتنقل الراوي بين الأحداث التي تدور في السجن، وتجنّح ذاكرته في جميع مراحل حياته، حيث كان يُفرض على الطلاب الخروج بمسيرات لتأييد ودعم "القائد"، مروراً بضمه إلى الحزب في المرحلة الجامعيّة.وتجنحها إلى الحياة العاطفية في محاولة الهروب من السجن بخياله ليلتقي بحبيبته.
ولم يتطرّق إلى السبب المباشر من تفاصيل اعتقاله، رغم أنّه يتحدّث عن مواقف مريرة تعرّض لها في السجن، ويبقى خلال الرواية ضعيف القدرة على تحديد المكان النفسي الذي يقبع به البطل.

تطوّر دراسة الزمان في الرواية

العلاقة بين اللغة السردية والسلطة

أسهمت المناهج النقدية المعتمدة في تمايز الدراسات الروائية، على مستوى الرواية التي تتضمن الشخصيات والأحداث المركزية والزمان والفضاء المرجعين "والطريقة التي يعتمدها الكاتب في عرض المادة الحكائية" ونظمها(سعيد أنطون، تحليل الخطاب الروائي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط3 ت2 1997 ص7).إرتكازًا على ما أسسه الشكليون الروسيون، وعلى اسهامات اللسانيات وانجازاتها الناجحة التي تنطلق للوصف النحويمن الجملة القابلة،"لما له من فؤائد على تحليل الجملة ذاتها"
Cracummers. MOUTON 1972) . V. Dijk.Sonne Aspects of texts)
إن تحليل الخطاب الروائي ينطلق من تحليل الوحدة، أي الكلمة، وصولاً إلى العلاقات القائمة بين اللغة والثقافة والمجتمع، وقادتنا بعض البحوث المتعلّقة "بالوحدة/المجلّة؛ لأنّها منتمية إلى الخطاب، ويمكن تعريفها بأنّها وحدة الخطاب" (يقطين سعيد، تحليل الخطاب الروائي ص 18.)

علاقات الترتيب

تتطلب دراسة علاقات الترتيب التوقّف أمام سيميائية العنوان، ثم التوقف أمام تقنية الاسترجاع بنوعيه الداخلي والخارجي والوظيفة التي يؤدّيهافي هذه الرواية ثم تقنية الاستباق، لذلك الدور الذي ينهض به في خدمة استراتيجية الرواية.

سيمائية العنوان

ما لا شك فيه أن رواية "إعجام" تعتبر ممن أدب السجون، فلذلك يفتح "سنان أنطون"

جدلية البقاء، بما يتعرض له الشباب من خلال التأثيرات النفسية والضغوطات القمعية، فإن عنوان الرواية "إعجام" وهو مصدر على وزن "إفعال"، هل يقصد به إعدام ليرمز إلى إعدام الشبان، الذين يرفضون الخضوع إلى الحزب المسيطر في العراق؟
فإنّ مفردة "إعجام" قد أشارت إلى انطلاق الحرية والانفتاح ضد ما يجري على الواقع، حين يعي الإنسان ما يحيط به هي خطوة، وحين ينتفض على المحيط خطوة أخرى، وحين يواجه القمع يصل إلى الحرية. إن كانت هذه الحرية هي التحرر الجسدي أو الثقافي أو التحرر الفكري، يعني بداية الشعلة بداية الثورة والإنتفاضة. وليعي ما أبداه من وصية وشعار لكلمة"إعدام أو إعجام". فالعنوان هو "إعجام". هل هو اسم النهر الذي يجري بين سورية والعراق واللذين حكمهما شعار واحد؟
أترك العنوان أصداء مختلفة في ظل أساليب القمع والبطش، والتسابق على تكرار شعارات حزبية وأنظمة ديكتاتورية.

العلاقة بين اللغة السردية والسلطة

جذر كلمة "إعجام" أو "إعدام" مصدر: أعْدَم: إسم الميزان الصرفي لكلمة إعجام أو إعدام: إفعال.
معنى أعدم: تصدى عليه أفقده حياته.
التعدية/ إفعال مصدر لفعل ماض أفعل، والمصدر في اللغة هو المعنى الموجود في الفعل، والمجرد دون تحديد حدث زمانه، وهو كذلك في الإصطلاح اسم يدل على حدث مجرد من الزمان.
سخرية الكاتب من النظام الحاكم وذكائه بعد ما تم سجنه وطلب منه الكتابة، فقام بعمل ذلك دون تنقيط.
الكلام المعجمة هي : القاعد: القائد/ العقوق: الحقوق/ العبث: البعث/ الفورات: الثورات/ انتخاله: انتخابه / الديمغراطية: الديمقراطية / الهرس: العرس/ بعصيون : بعثيون / السرف: المشرف / السحافة الثقافة. الملحس:المجلس / استمناء: استفتاء/ جروحي : خروجي / أتعثّر : اتبعثر /تتساحقان : تتسابقان / الإيهام: الإعلان
تعرف معنى كلمة إعجام في قاموس المعجم الوسيط: هل يقصد إعجام بتعميم أي بتنفيط المخطوطة التي وجدت في السجن لأحد السجناء غير المعروفين الإضافة إلى التلاعب بأشكال الحروف التي تحمل أكثر من قراءة مما يمنح الكلمات أكثر من معنى.
إعجام الكلمة: تشكيلها وتنقيط حروفها: العراق/ بغداد/ الأعظمية/ دجلة/ الفرات/ الجواهري/ الحرية/ الحب.

يعكس العنوان بداية لانبعاث الأمل من خلال النظر إلى أعماق البشرية، وأعماق اللغة العربية الصافية التي لا يتمكن من قراءتها إلا المتمكن منها. بداية كانت اللغة العربية غير منقطة لأن العرب يعرفون الحالات الإعرابية تلقائيًّا، وليسوا بحاجة إلى الحركات والنقاط، لمعرفة الفعل والفاعل والمفعول به وغيره؛ وإن قاموا بتبديل الحروف، فالمعنى والقراءة يفضحان المستور، فالعربي الأصيل هو الذي لا يقبل بالخضوع والقمع والحرية المسلوبة.

إعجام إعدام هو عنوان لصورة حقيقية لصورة واضحة عن الوضع السائد عن فترة اعتقالات وانتهاكات، تعرض لها في السجن وخارجه هي صفحات قليلة، لحمل في طيّاتها معاني كثيرة وحقائق مبهرة وكمية أحداث مختصرة لحقبات متلاصقة وحروب متتابعة.

الاسترجاع للزمان في رواية إعجام

يلجأ الراوي إلى الخروج عن التسلسل الزمني، من أجل تحقيق غاية فنية أو كشف عن مبهم.

— الاسترجاع الداخلي ووظائفه:

يكون الإسترجاع داخليًّا عندما تستعاد أحداث جرت، أو مواقف اتخذت بعد زمن من الرواية.

أ. ومن الكلام التي احتاجت إلى التنقيط والتي أثرت على اللغة السردية ضمن الاسترجاع الداخلي " لكن لا أصاب بالجنون إزاء الأغاني والشعارات والقصائد التي كانت وزارة السخافة والإيهام تقصفنا بها يوميا"(أنطون سنان، إعجام،ص 14).نقرأ من نماذج أيضا الاسترجاع الداخلي في الرواية قول الكاتب: "كان شارب أبي عمر المائل إلى الإحمرار يذكرني دائمًابالصراصير التي كانت تستعمر بيتنا ليلًا، والتي انتصرت على كل حملات الكلوريدين التي كنّا نشنها بلا طائل. لم يكن يسمح لأي شخص بأن يقضي وقتاً طويلاً في الجامعة أو أن يحصل على أكثر من شهادة. أما أبو عمر فقد انتقل بقدره قادر من السنة الثالثة في قسم اللغة العربية العام الماضي إلى طالب في قسم اللغة الإنكليزية هذا العام". (ص12.)

الدلالة: الشعارات التي تبثها وزارة الثقافة والإعلام ، هي لصالح السلطة ، فتبثّ أفكارا لنهوض الشباب وانحلالهم في فكر السلطة ضدّ خصومهم بالحرب، والانضمام إلى صفوف الجيش العراقي. ويشير الاسترجاع الآخر إلى معاناة المناضلين العراقيين ضد أعضاء حزب البعث،فالشباب يرفضون وجود هذا النوع من الرجال، الذي حاول أن يمحقه بالكلور ولكن دون جدوى. وجودهم في الجامعة هو اقتحام للطلبة،اقتحام لانفتاح عقول الطلاب وزجهم في السجون، وخنق أصوات الأحرار وقمعهم. وتشير الدلائل إلى

قدرة السلطة على شراء بعض الضمائر من أجل خنق الحريات، وإعلاء صوت المناهضين ضدها. لا ندري إذا كانت تلك السجون في البلدان العربية أم في داخل أراضٍ محتلة وخنق أبناء الوطن من ممارسة حرية الرأي . فالنتيجة واحدة إذا كانت السلطة تحدّ من الحريات، وقدرة الفعل ورد الفعل لأبنائها، فهي سلطة احتلال، وانحلال أبنائها في هموم الحاجات الضرورية. ولكن هذه السلطة لا نستطيع أن تقمع الناس جميعهم أو أن تشتري الأصوات لمدة طويلة من الزمن.

ب. "أبصرت، من خلال البوّابة الحديدية، سيّارة متسوبتشي بزجاج مظلّل تقف أمام باب الكلية تحت الجدارية التي وضعت قبل سنة بعد أن تسلّم القاعد الملهم شهادة الدكتوراه الفخرية في العقوق " (ص 14–13)

الدلالة:تغيرت كلمة الحقوق إلى العقوق، فالكلمتان مختلفتان تماما من حيث المعنى، وتغيرت كلمة القائد إلى القاعد، والمعنى أيضا مختلف تمام. اضطر الراوي منخلال السرد إلى تحريف اللفظ بالحرف لابتعاده عن الأسماء الحقيقة،ولابتعاده عن المكان الحقيقي كي وعن الأسماء الحقيقية التي تكون سببا له في محاكمته مرة أخرى .الاسترجاع الخارجي كان عبر خروجه بالزمان قبل عام حين تسلم القائد شهادة الدكتوراه الفخرية من جامعة الحقوق.

ج. "سمعت صرير البوابة وهي تغلق وراءنا، وكانت آخر ما رأيته وجه القاعد، وهو يحدّق فيّ من ساعة صلاح السويسرية قبل أن يغضبني. قاومت ثانية فجاءتني ضربة قوية على مؤخرة رأسي لا أذكر ما حدث بعدها.(ص17)

الدلالة:ورد الاسترجاع الآخر بعدما قُبض على الراوي وعُصبت عيناه ولكن آخر ما رآه هو ساعة من صنع صلاح السويسرية. فغير الراوي كلمة القائد بكلمة القاعد لبث الغموض على المعنى الأساسي .وهذا الاعتداء بالضرب على رأسه يرمي إلى إثبات القائد وفائه للسلطة ضد المتنمرين عليها. ويشير هذا الاسترجاع إلى كل شيء ممكن وخوفه من التلفظ بالأسماء الحقيقية هي ضد مصلحة الراوي. وجعل رمز الثقافة والتطور أي صناعة الساعات من قبل صلاح إلى ثقافة الحرب وضد قضية لم يقتنع بها الراوي أو المواطنين. فلا يمكن الدفاع عن الحريات والكرامات أو تعريض النظام إلى ردة فعل غير لائقة، والإشارة بالنضال السياسي والحربي ضد العدو وعدم التخلي عن واجب الدفاع والسيادة.

د. "أدري إحنا منعرف بعض كلش زين، بس احسبني مثل أخوك. بس أريد أكلك حجاية وحدة. دير بالك على نفسك تره الجماعة ناويها عليك! يكلون يطوّل لسانه وشايف نفسه. تره متحلفيلك وحادّين مسنونهم! فدير بالك!"....... "أيقظني سرمون تهوّري وقرّرت يومها أن أكون أكثر حذراً. فما الذي سيحققه ضياعي في غيابهم؟ وتساءلت إذا ما كان هو نفسه واحدًا منهم أو أن مبادرته كانت تحذيرًا". (انطون سنان، إعجام، ص21)

الدلالة: ورد هذا الاسترجاع في أثناء الحوار الذي دار بين الراوي وسرمد. وقد كشف هذا الأخير، من خلال الاسترجاع، عن مخطط للسلطة باعتقال الراوي، لأنه تجرأ وتحدث بتهكم عن السلطة، هذا المخطط الرامي إلى اقتلاع الراوي من الجامعة. هو من خلال التقارير ونقل الأحاديث، وذلك بتشبيه الراوي بطول لسانه وكبرته عن السلطة. ويكمل باسترجاعه بتغير جديد للكلمات كلمة تحذيرًا بكلمة تخديرًا .ويشير هذا الاسترجاع أيضًا إلى انتباه الراوي مدى خطورة الوضع وخطورة الضربة التي يتلقاه من أصدقائه ولكن من دون أي ردة فعل قام بها أمام سرمد وكأن الأمر لا يعنيه. ولقد وظف الراوي هذا الاسترجاع لغير غرض وهو خيانة الشعب لبعضه على كثرة خرق الحكومة للشعب وضعف حب المواطن لأخيه.

ه. واستكمل الاسترجاع بواقع جدته حين أخبرها بما جرى. وانفجرت غضبًا وخوفًا من اقتياده إلى الحرب والموت هناك ثم على رميه بالسجن. "مو قلتولك دير بالك يا إبني. أولاد الحرام كثيرين وميخافون من الله. إنته شعليك بالحكومة وشلك دخل بيها؟ إستر علينا." ... " أن تعيش هنا يعني أن تمضي ثلاثة أرباع عمرك في الانتظار. انتظار أشياء نادرًا ما تجيء: غودو، الثورة، الباص، الحبيبة...إلخ"(ص–22 23)

الدلالة : وهذا السلوك كان يحيط بشريحة من المثقفين والطلاب الثانويين والجامعيين. وبعدم فسح المجال أمامهم بإبداء الرأي والتطلعات السياسية، فهو لم يتعمق بالحديث والأقوال؛إنما اكتفى بتحذير جدّته له: "ليش تظل تنتقد يا ابني؟ أشو شيسوولك؟"هذا الاسترجاع هو الدخول في عمق السلوك والثقافة والهموم وتطلعات العراقيين الشبان. ويعاود الراوي تغيير الكلمات، فاستخدم كلمة تمضي مكان تقضي أن تمضي أي بالزمن الماضي أم إنك تقضي في الزمن الحاضر ولا نعرف إلى أي متى ينتهي هذا الحاضر المؤلم. الانتظار يقضي على وقتك وعمرك، وأن ينتظر غودو (هي مسرحية كتبها الإيرلندي صموئيل بيكيت، تدور أحداثها بين رجلين ينتظران شخصا يدعى "غودو" لا يصل أبدًا. وهي ملهاة مأساوية من فصلين وهي من أهم مسرحية في القرن العشرين). فاستحضار "غودو" في هذه الجملة ليس عبثًا أنما للدلالة على عدم انتهاء الانتظار. وقد شمل غودو

مع الثورة والباص والحبيبة لما فيهم من مواقف مشتركة بين الأربعة.
أ. "عدت إلى البيت لأجد جدتي جالسة وصينية المحاشي أمامها كالعادة، لكنها كانت تبكي بحرقة.
سألتها مستفسراً: شبكي؟
—"تعال وشوف. هسّه ناطق من وزارة الداخلية وقال "على المواطنين التبرّع بأعينهم دعمًا للمجهود الحربي"، وقال همّينه إنو المدارس رحيسوّوها مراكز يجمعون بيها عيون الناس والكل لازم يروحون يوقفون سره...هه! كيف نسيت أننا نعيش في احتفال عبث دائمي منذ عقود يشرف عليه حزب العبث نفسه، وأنّ كل شي ممكن!"(انطون سنان، إعجام، ص18—17 .).
الدلالة: ورد الاسترجاع بعدما قُبض على الراوي وعُصبت عيناه بعنف وفقد الوعي، ولكن استفاق على استرجاع حوار بينه وبين جدته العجوز، على طلب الحكومة عيون المواطنين، وزرعها بعيون المقاتلين في صفوف الجيش. وهذا الاعتداء يرمي إلى اقتلاع العيون لإثبات وفائهم للسلطة والجيش وتحمل المشاق من أجل تحقيق الانتصار للجيش ضد العدو، ويشير هذا الاسترجاع إلى كل شيء ممكن وخوف الجدّة على الراوي. وجعل المدارس رمز للثقافة والتعليم إلى ثقافة الحزب والثقافي اللامحدود من أجل قضية لم يقتنع بها الراوي أو المواطنين. عبث الراوي أيضا بالحروف لانحراف المعنى الخارجي ليضمر المعنى الداخلي، فاستخدم كلمة العبث مكان كلمة البعث. فحزب البعث المعروف بكل أنحاء العراق لا يمكن ذكره إلّا بالخير، فيذكر الضياع الذي يسيطر على معيشته منذ فترة فلا يمكن ذكر حزب البعث في سياقه لأنه غير منسق مع المعنى الظاهر.
— الإسترجاع الخارجي ووظائفه:
الاسترجاعات وردت على شكل مقاطع سردية يتوقف فيها الزمن، كما يتوقّف فيها الحدث الخارجي. في كثير من الأحيان كان يستعمل عبارات مثل هنا(ك) لاسترجاع الزمن الخارجي واندماجه في زمن السرد واندامجه مع لغة السرد.

أ. استعاد الراوي أحداثًا وقعت قبل بدء الرواية حين قال "تحت شعر"الديمقراطية مصدر قوة والمجتمع" أجريت انتخابات لاتحادات الطلبة في كافة الجامعات والمعاهد. وجاء أحد الرفاق إلى المحاضرة وطلب من الأستاذة، التي كانت يومها تتكلم على مدارس النقد الأدبي الحديث، بأن تسمح لنا بالخروج للمشاركة في هذا الهرس الديمقراطي والإدلاء بأصواتنا. " (أنطون، إعجام، ص35.)

هذا الاسترجاع خارجي لأنّه استعاد أحداثًا وقعت قبل بدء زمن الرواية. وتظهر كثرة تغيير الألفاظ التي تتعلق بالسياسة، فيغير حرف (ط) إلى (ظ) بكلمة الديمقراطية لتصبح الديمقراظية، وحرف ال (ع) إلى حرف (ه) بكلمة العرس لتصبح الهرس. وصف الراوي مهرجانات الانتخابات التي تحص في الجامعة، وكيف يلقى الشعر الحماسي الذي يسمى الشعر الديمقراطي وهو يتحدث عن الحزب والقائد فقط. ووصف كيف يستوقفون المحاضرات مهما علت أهميتها، فهي لن تعلو على عرس الديمقراطية أي الانتخابات. فالاسترجاعات الخارجية التي غطت قسمًا كبيرًا من مساحة النص، لقد توزّعت أيضًا حتى نهاية الرواية في الوقت الذي يتداخل فيه الاسترجاع الداخلي مع الاسترجاع الخارجي بكلمة (هنا وهناك) .

ب. "لو تشوف الشهيد اللي جابونو اليوم بالكنيسة خطيي بعدو جيهل. كنينو قمرا أي لو تشوف صوته. وبيي أشسوا أبونو انجن حرام انجن. ظل يرقص عالطبل والزرنة اللي جابوها ويقول ما مات ما مات بيبوس الصورة ومالِتو يقول: عريس ابني عريس! من حرقة قلبو أكيد! خطيي مهندس ومتزوج وعندو ولادتنين. تيتمو هسّه".(ص32)

الدلالة:تسيطر على هذا الاسترجاع اللهجة العامية الكلدانية، وفي ذلك دلالة على الواقعية ونقل الحادثة ومعاناة الأهل بفقدان فلذات أكبادهم في الحروب. وهنا تولد أشكالية اللغة السرد مع الزمان والمكان، وليس فقط مع تغير للكلمات أو الحروف كما سبق وذكرت. فنجد الجدة تتناول صورة تفصيلية عن شهداء الجيش،وهيالفئة الغالبة في الجيش وهي الشبان والفتية، الذين خلفوا وراءهم أيتاما وتركوا حرقة الوالد الذي يرقص مثل النسوة. إنّ اندلاع الحرب ولم تعفُ ولم تميز، بين المسحيين والمسلمين،بين الآباء والأمهات وبين الأبناء والشباب، الذين لم يقتنعوا بالحرب وغيرهم.لم يقتنع الأب بموت ابنه بهذه الطريقة،فهو غير مقتنع بالحرب ولا بالقادة ولا حتى بالمتعلمين والمهندسين والأطباء ولا الأدباء.

الوظيفة:تغيرات جذرية طرأت على الأب،التي جعلت من ردة الفعل على الفعل أفعالًا هستيريةً، وبرأيه لم تعادل الفعل. هزيمة الأب ترجمة بموت ابنه وهزيمة قوية لأولاده لأنهم أيتامًا بموت والدهم.

ج. "سمعنا في الصباح عن احتمال خروج مسيرة لمبايعة القاعد كان العدو قد طالب بإجراء استفتاء في البلدين لإظهار مدى شعبية القاعدين، واقترح أن يتنحى من ليس لديه ما يكفي من شعبية! واستنفر الحزب تنظيماته لتخرج الجماهير "عن بكرة أبيها" وتعبر عن حبها للقيادة... كنا أيامها نرى في المظاهرات فرصة للتحرر من قاعة الدرس

والإختلاط بطالبات المدارس... ألقى مدير المدرسة، الأستاذ قتية كلمة حماسية حثنا فيها على الوفاء بتعهدنا للقيادة التاريخية التي جندها وطليعتها. وقال أن هتافًا سيهز العالم بأجمعه...(سنان أنطون، إعجام، ص 29–28)

الدلالة: تذكّر الراوي وهو الشاب الذي مازال في مرحلة التعليم الثانوي، التي توافق مرحلة الاستفتاء، وكيف كانت تجرى عملية جمع الأصوات والمظاهرات .هؤلاء الطلاب هم الذين خلقوا حالة الحشد الجماهيري لاستفتاء شعب، يظهر الاهتمام بالقدر الكمي وليس النوعي، والاهتمام بالرأي العام الدولي بعيدًا عن الشعب، لعرض الصور على الإعلام والتحكم بالرأي العام، ولفت النظر إن اختيار القائد هو الصواب. ونلحظ تغير كلمة القائد بكلمة القاعد للدلالة على رهبة النظام على الكلام ولسان الشباب وعلى أقلام الكتاب وصحف المحررين.

الوظيفة: لقد وظف الراوي هذا الإسترجاع في الكشف عن مواقف الطلاب، الذين يهمهم الخروج من الحصة فقط، ولالتقاء الفتيات في المظاهرات. وهذه الثورات تتحصن بالناس انقياداوليست اختيارًافكرًا وحكمة، وهي تحضن الاعتقالاتوالقمع في أوقات إبداء الرأي. إن الاسترجاع الداخلي حمل إشارات واضحة إلى عدم التشبث بالقائد ولا بالإستفتاء لأنه شكلي وليس فكري ولا يمثل رأي الشعب العراقي.

د. "كانوا يحاولون ترتيب دخولنا إلى الملعب في طوابير منتظمة أمام الأبواب السبعة التي تقتضي إلى المدرّج، لكنهم يفتقدون الخبرة ، ربما الذكاء العملي البسيط اللازم لإنجاح عملية كهذه. كان البعض منهم يستخدم العصا الثقيلة والمؤذية "الكبيل" لضرب من يخرج عن الطابور..."وكانوا يطلقون عنان الكلاب البوليسية في لحظات الفلتان لتعضّ بعض المتفرجين وهم يضحكون عليهم بسادية".(انطون سنان، إعجام، ص 50–49).

الدلالة: تعود بالراوي إلى العهد القريب، يستعيد منه الذكريات شغفه، وحبه لحضور المباراة، التي كانت تنظم من قبل قوات الطوارئ، بكامل عدتهم ومعهم الكلاب البوليسية. يصور الراوي المشهد كأنها مباراة دخول السجن وليس مكان ثقافي رياضي يدل على التطور والتحضر،واستعمال ادوات لترويض الحيوانات واستعمال الكلاب البوليسية وكأنهم مجرمو حرب. وهنا بقيت الكلمات على ما هي دون تغير طارئ عليها لأن الموضوع بعيد عن السياسة الداخلية نوعا ما، وليس كل البعد، فلم يذكر الحزب او القائد ممكن بوجود " قوات الطوارئ" ، حيث العمل على ضبط الامن اكثر من غيرها!

الوظيفة: يرد هذا الاسترجاع في سياق الاسترجاع الداخلي والتحدث عن سياق مرحلة العذاب في هذا الوطن والانسياق للسلطة حتى بوقت الترفيه والمباراة. يحمل هذا الاستباق

الخارجي شعورًا بوطأة الذل والاستعباد، لما يترك من أثر المرارة والأسى، ويتذكرها بأوقاته السوداويّة القاتمة. ولا تجد التفاؤل حتى في دخول الأماكن الرياضية الأحب إلى قلبه.ويجيد الراوي دقةالتصوير بدخول الكلاب البوليسية في تنظيم دخول بعض المتفرجين الخارجين عن الطابور، بالانقباض وعض الخارجين عن النظام. وتضحك وتسخر قوات الطوارئ عليهم، و يشيرإلى ما يتحملون من إهانات وما يتلقونه من تضييق في سبيل الترفيه البسيط.

وهكذا يفارق زمن السرد الروائي وزمن الأحداث فينزاح الزمن ويتخذ حركة السرد مسارًا غير خطي متسلسلًا، متزامنًا مع تغيرات الكلمات وتغير اللهجات، بتغير الزمان والمكان أيضًا. ومايمكن دراسته أيضا من خلال: التضمين، التناوب، المناجاة، تيار التداعي الحر، تيار الوعي والتلخيص..

— التضمين :ويعني إيراد حدث أو أحداث من خارج الرواية لأداء وظيفة ما. ويشمل التضمين الوثائق على اختلاف أنواعها.(د.عبد المجيد زلاقط، في بناء الرواية اللبنانية، بيروت، 1999) .

"شرح لنا المسؤول الذي كان طالبا في الصف الرابع الثانوي، هيكلية الحزب ومهامنا في أن تكون عيوننا ساهرة تبحث عن أعدائه في كل مكان، في البيت والشارع والمدرسة، وألا نفوّت فرصة في الابلاغ عن موقف أو شخص مثير للشبهات. لاحظت مبكرًا أن هناك تناقضًا جوهريًّا في هذا الخطاب... فلقد تعلمنا أن الشعب كله يحبّ الحزب والثورة لما قدّماه لنا من مميزات. فلماذا وأين كل هؤلاء الأعداء؟" يكمل الراوي " كان الملك قد زار العراق أكثر من مرة فب الأشهر السابقة معبّرًا عن دعمه ومساندته للعراق في حربه. وكان اسمه في التلفزيون دائمًا يسبق بـ "جلالة الملك ... عاهر المملكة "(انطون، إعجام،ص 61 — 62)

الدلالة: لقد أشار الروائي إلى هيكلية الحزب وأركانه والانصياع داخله في كل تفاصيله واعتبار الخارج عنه هو العدو اللدود. وعليه يتم التبليغ عنه، وإن ضمن العائلة الواحدة في البيت، أو حتى ضمن الصف الواحد في المدرسة. وتكمن وظيفة التضمين في الإشارة إلى الإنصياع الذي هيمن على شريحة كبيرة من مثقفي العراق، فهم يبحثون عن ذواتهم في ركام أركان الحزب، وهيكليته التي فرضت على المدارس والجامعات والبيوت وعلى الآباء والآمهات. ولم يعد المثقفون قادرين على أنفسهم في الكم الهائل من الخطابات. فسيطرت التناقضات ضمن الخطاب الواحد، حيث أشبعوا الأطفال كلامًا عن حب الحزب

والوطن إذ يتفاجأ الشاب بوجود من يكره الحزب ويكن له العداوة، وهذا هو الحزب الذي قام بالمهمات الصعبة وقدم الإنجازات المتطورة لصالح الوطن .

أكمل الراوي بتضمين آخر يعتمد على كلمات المغلوطة أو المفخخة بالتعبير والتضمين على أكثر من رأي، فهذه هي كلمة عاهر المملكة تفسر بـ "عاهل المملكة" لما في هذا الشخص أهمية كبرى على الصعيد الديني والسياسي الدولي وأهمية لرسم خريطة الطريق السياسية والدينية بين البلدان وليس فقط البلدين.

وظيفته: لم تعد تلك الخطابات قادرة على إقناع المثقفين بمصداقية الحزب، ولعل السؤال الذي طرحه الراوي "فلماذا ومن أين كل هؤلاء الأعداء" أخرج الوظيفة الأساسية للاستفهام ليحلق بها إلى الجواب مباشرة، ويجعل منه شيئا من أشياء هذا العالم المليئ بالمتناقضات، وجعله أمام تضمين يتضمن الكثير من الأحداث التي تعبر عن رؤية متنافرة مع هيكلية الحزب. فهذه المقارنة دلالة واضحة عن تعطل دور المناهضين والثوار وانتقالهم إلى مرحلة السأم وانتظار اللاشيء. فوظيفة اللغة تلعب دورًا كبيرًا، منها الثقيلة ومنها المرن ومنها المهموز. وتستبدل بحسب المناسبة يعني زمان الخطابات واللقاءات السياسية، وحسب المكان يعني كما يطلب منه في الجامعة أو السجن.

– القطع/ الثغرة: يروي الكاتب أحداثًا تعود إلى أيام الحرب واصدار أخبار بصدّ الجيش هجومًاكاسحًا بينما، ولكن ما شاهده يعكس حقيقة ما يخبر به الاعلام المضلل. "كانت السيارات التي تحمل الشهداء الملفوفين بالأعلام قد بدأت تصل من الجبهة معلنة حجم الخسائر التي لا تعلنها البيانات العسكرية. فقد جرت العادة بعد عدة أشهر من الحرب ألّا يتم ذكر خسائرها! العميد تسلم منصبين قبل حوالي سنتين.(أنطون سنان، إعجام، ص63)

يقطع الراوي الروي أيامًا تعود إلى الجامعة، وإلقاء أعضاء البعث وعميد الجامعة خطاب عن البعث، ويقف ثانية المشهد ليتحدث عن الشهداء الملفوفين بالعلم. ويقطع السرد بتضليل الإعلام، ووضع الشعب بالأخبار غير الدقيقة تجاه الحروب التي يخوضونها.وبوضع لافتات ثم تجد ثغرة ضمنية "العميد تسلّم منصبه قبل حوالي سنتين"، يصور العميد بأنّه لم يصل إلى مركزه إلّا بعدما "أمطر الصفحات الثقافية للجرائد بمقطوعات" "رجز في المعركة" حافلة بكل شيء إلّا الشعر.

وعلى هذا، فالوقفة هي الشعور بتوقف الزمن عن الجريان، وهذا يعود إلى أسباب متعددة. وجود الراوي في السجن حين كتب الرواية، وكثيرًاما نجدها تتناول استياء الكاتب من لغة النظام، لغة الخطباء، لغة الخطاب ولغة الفساد، فيؤكد بقوله "كنت أشعر بالغثيان عند الاستماع لهذه الخطابات وأحاول التقوقع في عالمي الخاص". فوظيفة اللغة التأثيرية

تتمتع بالتأثير الماشر على عقول الشباب ورؤيتهم المستقبلية، إن من جهة الايجابية أو من جهة السلبية. ولعل القوقعة التي يجب أن يجلس إليها مع نفسه في كل الساعات، فهو يحاول أن يغرق بالصمت لينظف أذنين من "صوت التصفيق الذي يعقب الكلمات السحرية : القاعد، الحزب، الثورة."

لم تكن الأحداث الخارجية للرواية كثيرة ومتشبعة، من أجل ذلك تكثر القطعات في الرواية، وفيكمل "كنت أضع يدي في جيوبي وكنت قد توقّفت عن التصفيق من أيام الثانوية كنوع من الرفض الصامت". وتابعت الوقفة وضع يده في جيبه أمام الخطيب في الجامعة، ليقف أمام مشهد الثانوية الذي رفض فيه الخطابات التصفيقية؛ ولكن جاء الرفض بطريقة صامتة.

ثم وضعنا أمام ثغرة تحذيرات البعض، من أنهم يكتبون تقارير عمّن لا يصفّق" رعد الذي كان يلعب الكرة معنا في الشارع عندما كنا كنّا أطفالًا أختفى عنا، لأنه لم يكن يصفّق".

تشير الثغرات إلى مدى اليأس الذي طغى على الراوي، فهو فاقد الأمل، متساوٍ بين الأمور السياسية كلها، وضغط على نفسه وحركاته؛ فارتبط هذا العجز باللغة التي يتحكم بها،فيقوم بتغير حروف كلماته. وتلك إشاراتتدل على حجم معاناته في التحدث بحرية، وفي الوقت نفسه جعلها سيمائية دالة على علاقة الإنسان بالزمن. هذه المفردات أرست نظامًا قائمًا يشير إلى سطوة الظلم،تزامنًامع النظام والخضوع التام له. لقد أخفقت شخصيته في صراعها ضد الزمن، واستسلامها له تعبيرًا عن حجم معاناته الدائمة، حتى أنّه لم يذكر اسمه على الرواية التي تركها خلفه في سجنه.

"كان هذا يومنا الثالث أمام مبنى اللجنة الخاصة... نظرت إلى فلّاح الذي ابتسم بسخرية هزّ رأسه من دون أن يقول شيئًا. أمّا صاحب النظارات السميكة فقد دمدم شيئًا لم أفهمه. كان الانزعاج والتحلحل واضحاً في العين المتعبة. ولكن من سيجرؤ على أن يقول شيئاً؟"(سنان انطون، إعجام، ص 28)

الدلالة: هذا المشهد يتناول جزءًا مهمًا من ماضي الراوي، يظهرصعوبة الكشف في أوضاع المعفيين من الخدمة العسكرية الإلزامية، وتحت أشعة الشمس لفترة طويلة على علم أنهم غير صالحين ولقد تم إعفاءهم سابقًا.

ويكمل هذا المشهد بوقفة أخرى بقوله: "فقد تحولنا إلى غير صالحين. بضاعة كاسدة في زمن الحروب. لم نشعر بفرح عامر بل براحة هادئة، لأننا عرفنا أن قُوتَنا سيؤجل حتى إشعار آخر".(أنطون سنان، إعجام،ص28)

الوظيفة:الدخول في عمق هذا الاسترجاع يكشف عن عمق معاناة الشباب، وخوفهم من

إلقاء حتفهم لا محال إن في الخدمة العسكرية كون الحروب قائمة أو في المعارك المستمرة ضد الإيرانيين. فعرض المقارنة بين الإعفاء والانخراط في الخدمة، فاعتبرها تأجيل للموت وتحقيق للأهداف المرجوة. نلاحظ خلال هذا المشهد أن الراوي لم يعتمد على تغير الحروف أو الكلمات لآنه مشهد يكشف عن فئة الشباب المعفيين من الخدمة الإجبارية.

علاقات الديمومة في رواية:

تقنية التلخيص:

تُكثِر الرواية من استخدام التلخيص، موجز ما حدث في ليلة أو أسابيع بعبارة واحدة، ومن نماذج ذلك نذكر "فها أنذا قد أصبحت في مدارك بعد أسابيع من الترقب. كان العميد قد انتهى من خطابه الرئيسي لتلتقي، كالعادة، بأفواج الطلاب من الكليات المجاورة لنا، الصيدلة والتربية واللغات" يوجز ما حدث في اللقاءات الكثيرةبجملة "أصبحت في مدارك بعد أسابيع من التعقب"(انطون سنان، إعجام، ص 68.). يروي الملاحقة والملاحظة لعدة أسابيع بخمس كلمات، يسرع تلخيص حركة السرد، ويرد في تقريري وصفي ثم ينتقل إلى تقرير إخباري، في قوله "كان العميد قد أنهى خطابه" كأن السرعة ذاتها بين الأولى والثانية، وينتقل إلى الثالثة بسرعة،ليلتقي العميد بأفواج الطلاب.

وظائف التلخيص:

ينهض التلخيص الأوّل على لغة عاطفية شعرية رفيعة المستوى حين سألها "ليش تدعمين الكتاب؟ قلتها وأنتِ تضحكين من كل قلبك". يؤمن الراوي بأزمة الكتاب مع الزمن، مع القرّاء الفقراء، ومع النظام الرسمي الذي لا يدعم الكتاب.ويتبدّى التلخيص في الإشارة إلى فعل العاملين الأهميّة الكبرى؛ هما عامل المكان وعامل الزمنوتمثلهما الحضارة. فاذا اندثر الكتاب اندثرت الحضارة وهو من المحافظين المتشددين على هويته.

فإنّ الثاني تمثل في سرعة وصف الخطاب، فيتذكر بدأ نهاية خطاب الرئيس، وما يمثل من امتداد المعاناة وتعاظم القهر والكبت والقمع. الشباب الذين يخضعون للخدمة العسكرية في الجيش والزمن، وينقادون إلى الحرب والثورة ويخسرون المعارك ويحضرون ملفوفين بالعلم. هذه الفئة الشابة هي التي تحقن دائماً بالخطابات، وليستولوا على عقولهم وأفكارهم بتسليط الضوء على صراع محتم ضد عاملي الزمان والمكان. ووظيفة هذا التلخيص الذي قدم بإيجاز أحداث مرحلة طويلة من الزمن، تتبدى في الإشارة إلى

العذاب الذي تحمّله الشعب العراقي الرافض للحرب والدخول في حزب البعث على أمتداد أعوام وتعرضهم للإعدام في عدم الرضوخ.

المشهد/ الحوار:

يرد الحوار في الرواية غير مباشر ومباشرًا. فتصوغ الرواية، في كثير من الأحيان، مؤدي الحوار الثنائي وتقدمه بأسلوب غير مباشر. ومن نماذج ذلك نذكر "نأففت وقلتِ إنك لا تحتملين وجود أكثر من شخصين في المتر المربع الواحد، فكيف الاختناق بين كل هؤلاء. وقلتِ إنك ستحولين الخروج (انطون ، إعجام، ص٦٩)، هذا الحوار بين الراوي وحبيبته إلى جانب وصف المكان، الذي يقفون به للانطلاق في مسيرات مناهضة للقائد. وهذا المكان هو مكان لتغذية العقول بما يريد القائد وقد أبدى الراوي بعدم رغبته في الانضمام إليهم لأنّهم يختلفون عنهم بآرائهم وأفكارهم.

ويكمل الراوي نماذج الحوار المراقب يكتب بالحوار المباشر، ما ذكره بالحوار:

– تره تأخرّنا، بس الظاهر إنت مستعد للمحاضرة (مشيرة إلى سفسطتي).

– بالمناسبة، ليش تلبسين الساعة بإيد اليمنة؟

– لإنّه آني مو يسارية مثل حضرتك! إسمع. خلص. لازم نلحك على محاضرة الثقافة. ما ريد غياباتنا توصل للعشرة بالميّة. آخ منّك! جنت طالبة مواظبة إلى أن تعرفت عليك!

– شنو ندمانة؟

– هاي شصار؟ ليش متتحمل شقة؟ صاير عندك مزاج تخريبي مؤخرًا.... وخرائي شوية.

– ما ريد أروح لمحاضرة السخافة.

– لعد قابل آني أروح بس مو أحسن من مننفصل من الجامعة؟(ص76)

كتب الحوار باللغة العامية العراقية التي تحمل اللهجات الحضارية الآشورية والسومرية والكلدانية وغيرها... وقد عبّر بهذا عن اللهجات السائدة بين الشعب العراقي الذي يحافظ على هويته وحضارته اللتين يفتخر بهما.وبالمقابل خوفه على هويته إذا أهمل لهجته، وخوفه على حبيبته من الاختناق بسبب الاكتظاظ وعدم تحمل رؤية حبيبه في هذا الحشد. ينهض المشهد الثاني في حوار بين الفتاة والراوي التي تحمل حبّه، ويستخدم التحريف بالحروف ويستعمل كلمة السخافة مكان الثقافة. هنا لم يستعملها خوفًامن السلطة بل استخفافًا بها بما سيلقى من محاضرة الثقافة التي تقوم على التثقيف السياسي للطلاب.

وننتقل إلى مشهد آخر وهو حوار بين الجدّة والراوي:

– "إي ليش متجي ويايّي للكنيسة بلكي للّه ينورلك عقلك يا ابني؟

–ما أريد بيبي. خليني بحالي الله يخليكي.
–هاي شصار تحكي كنّك عمرك ميت سنة. بعدك جيهل!
–أريد أروح لجهنم.
أين هي الآن؟ تصلي لفكرة كما تفعل محل يوم منذ نصف قرن. تركع أمام تمثال العذراء وتصلي لها ولابنها المصلوب في وسط الكنيسة.
–وينك متقعد بالبيت؟ تطلع الصبح وترجع بالليل. تزمع يفتر بالشوارع والسقافات؟ جا ويحد من المنظمة هاليوم وسألني ليش مكن علقنا صورة الريس عالحايط.
–أي وشقلتيلو؟
–ويحد جيهل أصغر منك ميطلع عمره عشرين سني.
قلتلولو هيّانة السيد الريّس جوّه المريمانة "دتحرسه!
–قلي "خلة حطو لكم وحدة أكبر!"
–وبس؟
–لا فياخذ معلومات وسألني إذا أكو حزبيين بالبيت؟
–هوّه بس أنا وانتي بالبيت!
–أي، قولتولو ابني، ابن ابني يعني، ممنتمي وآني عجوزة قابل تريدني أروح اجتماعات آخر زماني؟
– وشقال؟
–قال:"خاله... حطّوا لكم طابوكة بهالبلد"!
–لا بلله! كان لازم تقليلو الريس يكول " كل العاملين الجيدين هم أبناء الثورة وهم بعثيون وإن لم ينتموا".
–قلتولو إحنه صار إلنا آلاف السنينهوني. شنو نحط بوكة؟ (أنطون سنان، إعجام، ص 72 / 73).

في تحليل لنماذج وتبيان وظائفها: كشف الشخصية

في المشهد الأوّل:نجد أنفسنا أمام الراوي وعن معاناتهالرافضة دخول الكنيسة، بينما جدّته تصرّ على الصلاة لعل الله ينوّر عقله. التعليقات التي نطقت بها الشخصية تكشف عن الهمّ الكبير الذي تحمله، ألا وهو المشاركة في النضال الوطني من أجل الحرية من الأحزاب ومن التسلط، حتى يرفض الصلاة والركوع أمام التمثال لما يترك أثر تسلط تمثال العذراء، والخضوع لها وللرب . فشبهته جدته كأنّه ميت من سنة ، لأنه لا يصلي،

ولكنه ما زال في عمل المراهقة التي نعته بـ(جهيل).

الوظيفة: أرشاده لعله يخضع للدين والصلاة، علهما يهدياه ويركز حاله، ورغبتها في جعله ينشغل بالصلاة والخشوع عن التعليقات ضد الحزب.ويرجع عن مناهضة الحزب ويتحول عن مجابهته. واستخدمت الجدة اللهجة العامية الكلدانية لتصل إلى قلب الشباب وقلب ابنها بالتي هي أحسن،وتكون قريبة منه ولإفكاره حيث تفكيره باللغة العربية واللهجة اللكدانية.

وفي المشهد الثاني: يكمل الحوار بدخول أحدهم من المنظمة، وسألها عن عدم وجود صورة القائد على الحائط داخل البيت. فأجابته بوجودها داخل صورة السيدة مريم العذراء التي ستحميه بدورها. وإذا كانت الجدة قلقة مشغولة البال، فهي تكشف عن رغبتهابموافقة حفيدها بآراءه ولكنها تخشى ما سيحدث برفضه. فهي عبرت أنّها لا تستطيع حضورها اجتماعات بسبب عجزها وكبر سنها. وهذا دليل على قناعتها التامة برفض السلطة، ودليل آخر على إيمانها المطلق بأفكار حفيدها، وقد عبرت عنه بأكثر من مكان داخل الحوار. فهي تفتش على الأقل ما يشغل حفيدها بغض النظرعن تناول التفاصيل الصغيرة التي تتعلّق بحياتهم اليومية؛ وهي تشكل المرأة الضعيفة الخائفة والتي لم تقتنع بما يقال لها في منظومة الأحزاب.

وظيفة الحوار الكشف عن تعلقهم بأصولهم الكلدانية/ وهم أبناء الأرض، وهم بعثيون بالوطن، وإن لم يكونوا منتمين إلى الحزب. هذا دليل على التنبه واليقظة، وانتقال الحوار إلى الإعتزاز بانتمائهم ثقافيًّا للعرب وليسوا كالآشوريين أو الأرمن.

تقنية الحذف في الرواية

تعددت وجوه الحذف في هذه الرواية، وهي لا تتعدّى توافه الأمور. وأكثر ما نلحظ وجود الحذف في أثناء انتقال الكاتب من قسم إلى آخر. وعندما يقسّم الراوي الرواية إلى خمس أماكن وهي: بيته مع جدّته، الثانوية مع رفاقه، الجامعة مع عميد الجامعة وخطاباته،بنيهوزميلته في بيتها وفي المظاهرات، وأخيرا السجن. عندما يقسم الأماكن إلى خمس، فبهذا يزيد عدد المرات التي ثم الحذف. وكذلك نجد أن الكاتب قد أسقطه قصرًا من الزمن، جاءت في الأغلب محددة. ومن أمثلة الحذف في الرواية:

1- يقول: "تهبّ ذاكرتي عليّ بضراوة وتقتلع الأسلاك الشائكة التي تفصل بين الهُنا والهُناك. تتطاير الحدود وعلامات الممنوع التي تطعن بشرتي ورأسي. تمرّ غيوم حمراء تطغى على الشمس الخانعة. يخرج من رأس صِبيَةٍ يتضاحكون، وهم يفتحون حقائبهم

المدرسية، ويمزّقون الكتب المحبوسة بداخلها."(سنان، إعجام، ص 74)

2– يقول الراوي وهوينتقل من المدرسة إلى الجامعة.
"تسافر شظاياهما في كلّ اتّجاه. ثم أستيقظ لأجد نفسي هنا(ك). كنا نتسكع قرب الجامعة في يوم خريفي حزين، وسألتك:
–شنو فصلج المفضل؟
–الخريف... وإنتِ؟
–الفصل الأخير.
–شنو؟
قلتها باستغراب."(ص74)

3– ويقول الراوي:" كنت أستلقي عاريًّا على ظهري فوق حبّات الرمل البيضاء تحت سماء حالكة. اختبأ القمر خلف سحب سوداء بدأت تنثّ مطرًا حبريّ اللون... تعثّرت مرّة أخرى وبدأت أزحف على أربع. شعرت بأنّي حيوان على وشك الإنقراض. أدركت من نباح الكلاب بأنّها أصبحت قاب قوسين أو أدنى. التفتُّ لأجد أنّ واحدًامنها كان على وشك الوثوب عليّ. لمعت أنيابه ورأيت لثته الوردية ذات الحواف السوداء. أحتضنت رأسي بين يدي."(ص٨٩.)
في تحليل النماذج وتبيان وظائفها.
– يتحدّث الحذف الأوّل عن مسحة التفاؤل، وذلك باقتلاع الأسلاك الشائكة التي أرّقت ذكراها، لينتقل من "الهنا إلى الهناك"، ويطير إلى المدرسة بين الكتب الممزّقة، وقد فرقها الطلاب ليمزقون ما هو محبوس بداخلهم. هذا التداخل ليس إلا وليد التعارض الروحي والنفسي للواقع المرير الذي وَسَمَ تصرفاتهم بتمزيق الكتب وجعلها أوراقًا تطير في الهواء. يترك التشاؤم بين الأسلاك الشائكة إلى الأوراق المتطايرةفي مكان التعليم الأول الذي يفرض عليه النظام طوقاً من التعليمات والقاعدات. وليمضى هذا الوقت بسرعة ليصبح يافعًا كبيرًا، وتنقلب هذه التعليمات إلى ضغوطات نفسية تدمر نفسية الراوي ليختار في الفصل الأخير من بين الفصول الأربعة. لقد وظّف هذا الحذف أيضا لصالح التكثيف، التكثيف بالمعاني بلفظة مختصرة، وقد عبّرعن الشجون والاختلاجات التي تتمركز في أفئدة الطلاب، وفي أفئدة المساجين وزنزاناتهم ووحدتهم. فيصوّر المدرسة كأنها سجن حرمتهم من حريتهم، سجنتهم ضمن الحقائب والكتب وحرمتهم الخروج مع الطلبة، فيصور في خياله الخروج من سجنه الحالي بتمزيق الماضي الذي

أُنشِؤوا فيه. فهي انتفاضة على التربية والتعليم والمناهج والمدارس وتصويره بأن الشمس التي تشرق على أرض العراق هي خانعة للنظام.

– يشير الحذف الثاني إلى حقيقة الراوي الذي بدأ يميل إلى النهايات. وقد نشأت علاقة بينه وبين الفتاة، وتنامت مع تكرار اللقاءات والحوارات، التي أفصحت عن رؤية كل منهما حول الحزب، ورفض للخطابات والإنصياع تحت الشعارات واللافتات اللماعة. ونلاحظ هنا أن هذا الحذف في الإشارة إلى غياب الأمل بين مراحل التعليم الأساسية إلى الثانوية والجامعية ، وهو لم يحسن استثمار تلك الأيام، في تعميق معرفته بما يريد بالقواعد الراسخة له اتجاه الأنظمة السائدة. واخياره لفصل الخريف اختيار واضح لنهاية هذا الحزب والحكم والظلم، وإن كان بعد العجز الموت وربما هو الهروب من الواقع.

– أسقط الحذف الثالث مدة قصيرة من الزمن حول مراقبة المسجونين داخل وخارج السجن، وبدأ يتناول التفاصيل الصغيرة التي تتعلق بالعذاب النفسي والجسدي في تفاصيل الحياة اليومية لهم. قدّم وصفًا لعذاب السجون ليلًا، وانتقل به الوصف إلى الخوف الذي ينتابه، حول الأصوات المتعاقبة والمتداخلة من صوت الكلاب إلى أصوات الدراجات النارية وأصوات زخّات المطر.

– لقد وظّف الكاتب هذا الحذف في الإشارة إلى حرص الراوي على نقل معاناة المسجونين وحرص الحراس على تعذيبهم النفسي والجسدي. وفي هذه إشارة،إلى الليل الدامس الذي يعيشه المسجونين، ليل نفسي وعذاب نفسي. فالحذف تداخل بمعطيات الوعي واللاوعي فتشعب في الأعماق، والأبعاد ليتعثر ويتزحلق ويضيء العتمات الدفينة داخل السجن،ويركض ويبحث عن جو صامت بعيدًا عن نباح الكلاب ويدير المحرّكات وينهي الحذف بأوراق بيضاء أمامه.
يعرف مراد مبروك التردد بأنه "حال التكثيف السردي للزمن الطويل الممتد الذي تشعر به الذات،"(مراد مبروك، بناء الزمن في الرواية المعاصرة، الخاتمة علاقات الديمومة ص146.)
يقوم هذا التكثيف بإيجاز الأحداث التي تتكرر بشكل دوري، بمجموعة قليلة من الكلمات التي تتغيّر عن الزمن المتكرّر الذي تمرّ به الشخصية.
رأينا التردد بأنواعه في رواية إعجام، وقد نهض بدور فعّال في الرواية، إذ أوضح هواجس الشخصية وكثف الزمن عبر الممارسة الحياتية، الذي اختصر حياته برواية

123 صفحة. إذ عالج موضوع سياسي اجتماعي نفسي، وقد أدّى التردد في الرواية دورًا ملحوظًا، إذ أظهر هجومًاعلى الشخصيات الرئيسة والثانوية وتطلّعاتهم، بداية من الأم إلى الزميلة، مرورًا بالمدير والعميد والعملاء والسجّان. وقد أظهرعقدة الإنصياع للإرادة والرضوخ لها، فغدا مشتتاً بين الرغبات والرفض. "كما تمّ إصدار قائمة بأسماء الرئيس القاعد ودلالاتها وقواعد استخدامها. ومنعت اللغات الأجنبية واللهجات الحلية التي تشجع الانفصاليين والمندسين من أعداء الوطن (إلّا لهجة الرئيس القاعد التي صادق عليها المجلس الوطني لهجةً رسميةً لما حباها الله به من فصاحة وبهاء). كما أصدر الملحس الوطي الذي تم انتخاله ديمقراطيًّا قانونًا يقضي بإيقاع عقوبة الإعجام بكل من تسوّل له نفسه بنشر العموض والابهام أو تعاطيهما."(أنطون، إعجام، ص 101).

طرح الراوي إشكالية اللغة مع السياسيين، بحيث منعت جميع اللغات الأجنبية، وأيضا منعت اللهجات المحلية التي تعلق بها الراوي. ومن هنا نفهم إشكالية اللغة مع الزمان، وما كان على جدته أن تتمسك باللهجة الكلدانية، وتحافظ عليها لتتوارثها الأجيال، وتجعل هويتها صامدة ضد الاضمحلال. ولعبت لغة الراوي المعجمة دورًا في تمرير لغة الغموض لتخرج من السجون لتتحدث عن الأقاليات في العراق، وخوفهم من إشكاليات السياسة. فيجد القارئ نفسه أمام كلمات غامضة متل (الملحس وتعني المجلس / انتخاله وتعني انتخابه / الإعجام وتعني الإعدام).هذا الإلتماس بوضوح المعنى قصده الكاتب، ليخلق إشكالية اللغة، لأنها حاضرة وويعاني منها، فهو ليس من أوجدها إنما وجودها متعلق بتعلق الحزب بالأرض.

لم تخرج رواية إعجام عن إطار السياسة والإحساس بالعاطفة وبنداء القلب وبنداء الأرض، لم تبتعد عن القضايا الوطنية من البداية إلى النهاية، وثابرت ملازمة بمشكلات شريحة كبيرة من المثقفين العراقيين بكشف عن مشكلات الشخصيات النفسية، وارتبطت أيضًابالهموم الحياتية في علاقات التردد لاحظنا غلبة واضحة للتردد التكراري الذي توزع على هواجس الراوي والشخصيات وهمومها. أما التردد النمطي فقد ورد استرجاعيًّا على الأغلب وشكل ركنًا رئيسًا من أركان بناء الزمن الروائي.

النتائج:

رواية"إعجام" تُصنّف مع روايات أدب السجون، فالزخم في وصف معاناة السجين وصبها في 120 صفحة، كانت كفيلة بتقديم دراسة تشرح علاقة اللغة بالسلطة. وتتغير تلك اللغة بتغير الزمان والمكان، لغة المسجون، لغة الجو الديكتاتوري، لغة سوداوية مظلمة.

يمكن الوقوف أمام بعض النتائج التي أسفرت عنها دراسة الزمن في رواية "إعجام" للراوي "أنطون سنان"، وهي من روايات أدب السجون لما صور فيها سنان معاناة المسجون مع الأنظمة الديكتاتورية . وجدت أن اللغة انحكمت بالمكان والزمان بما أجبرت على تغير حروفها وأمكانها حسب الحاجة لها. القاعد: القائد/ العقوق: الحقوق/ العبث: البعث/ الفورات: الثورات/ انتخاله: انتخابه.

سيطرت السخرية على لغته واطلاق النكات وتحريف الكلمات، ويسرد خواطره وذكرياته، بطريقة الهذيان. استغل دراسة الأدب وتلاعب باللغة التي يتقن أسرارها، يكتب بطريقة معاكسة وبدون نقاط، لكي لا يفهم المعنى والحزن الذي تحتضنه الكلمات. هل هذه اللغة هي فخ لأهل السلطة، لتتسرب معاناة الشباب من النظام الديكتاتوري، ومن معاناة مسجون في السجن الانفرادي. والانتقال من اللغة الفصحى إلى اللهجة العراقية رغم صعوبتها والممزوجة بسحر الحضارات المتعاقبة على بلاد ما بين النهرين.

وجدت أن الزمن في هذه الرواية لم يسر بشكل خطي، وإنما كان منكسرًا ينتقل من زمان إلى آخر بتعبير "هنا(ك)"، يغطي أحداثًا تجري في المدارس والجامعات، يغطي أحداثًافي السجون، مما أثّر على مسار الزمان من الرجوع إلى الخلف، والقفز إلى الأمام، ومن أجل استباقات قصيرة مكثفة.

قام الزمن على ركن المآزق المتجسّد بالمظاهرات والخطابات والاعتقالات، وهو زمن العودة إلى الذات التي حطمها الحزب، وشوّهت قيمتها القمع والإنصياع داخل قواعد الحزب. مثل الراوي مرآة للشباب الذين يرفضون النظام بشبابه ونسائه وعجائزه، فيكشف عن التعدد والتمزّق والحيرة والقلق والموت.

فتغدو الذات محوراً للزمن، ويغدوالزمن محورًا للغة وتأثيرها وإفرازاتها. وقد يمكننا القول إن أزمة الراوي النفسية ارتبطت بلغته بلهجته وبرفضه الذي عبر عنه بلغته، وكان السبب المباشر لسجنه في قوله "إحنا معجبين بآرائك وأفكارك ونريد نسمع منك". وأضاف: وروح النكتة اللي عندك!" (أنطون ، سنان ، ص16).

يضفي الزمن ومكان لغته على الشخصيات، فنجدها أسيرة الكلمة أسيرة لغتها، ومن هنا جاء تمرّد تلك الشخصيات على عاملي الزمان والمكان؛ لأنهما جوهر الأزمة النفسية التي عانوها.لم تكن علاقات الديمومة بمنأى عن التغيرات التي أجراها الروائي في بناء الزمن، فقد اعتمد تقنية التلخيص والوقفة والقفزة والمشهد، أدّى دوره في التعبير عن رؤية الكاتب إلى جملة موضوعات، وكان التركيز واضحًاعلى طرق الإنتقاد والخنوع والخضوع القواعد التي يفرضها الحزب.

لقد استطاع أنطون، أن يسفيد من عامل الزمن في الرواية، ويسخره لخدمة السرد، بفنية رفيعة المستوى. هذه النتائج لن تكون الأخيرة، بانتظار دراسات أخرى تستدرك ما فات هذه التجربة البحتة، وتعمق البحث بواسطة جهود أخرى، من أجل الوصول إلى سردية خاصة تتلاءم مع البنيان الثقافي العربي والحضاري.

عالج انطون إشكالية اللغة واللهجات، بحيث حظرت المكتبات بعدم دخول الكتب الأجنبية أو المترجمة عليها. فذكر مع الانتظار غودو وهي مسرحية أجنبيّة تتحدث عن الانتظار بدون فائدة، لأنها لك تقرأ من قبل السجانين، وربط افلتماس بوضوح المعنى بدماء الشهداء الذين ضحوا من أجله الشهداء. فحرم المترجمون من الإبداع لأنهم سيتحاكمون من استيراد السياقات الأجنبية إلى داخل الوعي الوطني.

المراجع

- سعيد أنطون، تحليل الخطاب الروائي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط3 ت2 1997 ص7
- عبد المجيد زراقط، في بناء الرواية اللبنانية، بيروت، 1999
- دليل مناهج البحث العلمي في قسم اللغة العربية، البرامج السردية، ص 65
- يقطين سعيد ، تحليل الخطاب الروائي
- سنان انطون، إعجام، منشورات الجمل، ط1، بيروت–بغداد 2013
- مراد مبروك، بناء الزمن في الرواية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998 .
- –Cracummers. MOUTON 1972. V. Dijk.Sonne Aspects of texts

فلسفة العدد في فكر كمال القنطار

شادية كامل كنعان

طالبة دكتوراه،
الجامعة اللبنانية

في كتابه "في ظلال العدد"، يبحث الكاتب كمال القنطار، في العدد الطبيعي وتجلياته في الفكر الإنساني وفي الميثولوجيا، وفي بعض الجوانب الأخرى من التراث والعلم.
إلّا أنّه لم يتطرق إلى تاريخ العدد، مكتفياً بالإشارة الى كتاب العدد لجون ماكليش.
لكننا في هذا المقال سنعرض ولكن بشكل مختصر لتاريخ العدد معتمدين على كتاب ماكليش في الوصف الزمني للعدد. لنعود ونربط هذا التسلسل الزمني للعدد، بتحليلات كمال القنطار.
ولكن هل عبارة فلسفة العدد صحيحة؟

تأتي الأعداد بكليتها من الطبيعة، فلا وجود لأي عدد خارج نطاق الطبيعة. لذا تُكوّن الأعداد حياة الأفراد والمجتمعات، والكون بشكل عام. ويعتبر العدد علمٌ قائمٌ بذاته، بل هو فلسفة بحد ذاتها.
يرافق العدد الإنسان منذ بداياته، فهل نجد صلة بين العدد وبين العقيدة الدينيّة للإنسان؟ وهنا لا بد من أن نسأل، لما لهذين الموضوعين أهمية في حياة الفرد والمجتمع؟

العدد في المسيحيّة:

عندما نتحدّث عن المسيحيّة، لا بد من توجيه الأنظار لمنطقة الشرق القديم. بحيث نجد الكثير من القديسين يعطون الأهميّة للعدد كطريقة للإستدلال على وجود الإله. إلّا أنّ القدّيسان إيريناوس ويوستنيانوس تأثرا بالفلسفة الفيثاغورية. من خلال دراسة علم العدد، وإعطائه صفة القدسية، واعتباره سبيلاً لاهوتيّاً. ولكنّ المفارقة هنا أننا لا
نجد في الكتاب المقدّس أي تخصيص للعدد من باب القداسة أو من باب جعله طريقة للإستدلال على الإله.

العدد في الإسلام:

أمّا في الإسلام، فكان للعدد مكانة خاصّة، أوّلاً، للإستدلال على الخالق من خلال الرقم واحد. وثانيّاً، وجود الإعداد بشكل صريح ومباشر في القرآن الكريم. وذلك للحث على الإهتمام بالعدد علميّاً، وعلى الحساب كعمل يومي لا استغناء عنه. فقد ذُكر العدد، واحد، واثنان، وثلاثة، وأربعة، وخمسة، وستة، وسبعة، وثمانية، وتسعة، وعشرة، ومئة، وألف. وكل عدد من هذه، له دلالته الخاصّة، والهدف من وجودها في النّصّ القرآني، هو أن يستخدمها الإنسان لتحقيق الغاية، والمراد من خلق الله لها.

واللّافت هنا، أنّ العدد وُجدت بطريقة تتكيف مع حياة الإنسان، بحيث مكّنته من استخدامها في حياته اليوميّة وحساباته ايضاً. وبالتالي تقدّه بشكلٍ متطرد.

نجد العدد في القرآن الكريم في اغلبه موجّه، نحو العناصر الزمنية التي بحسابها نتمكن من قياس الأيام والشهور والسنين.

لذا، " فإنّ العرب أبدعوا فروعاً جديدة من الرياضيات، نذكر منها الجبر، وحساب المثلثات. كما أنهم وضعوا أسس الهندسة التحليلية "1.

العدد في الفلسفة:

وعلى التوازي من ذلك، نجد لهذا الكلام جذور فلسفية ايضاً. وهذا ما نهدف الى تبيانه في هذا المقال.

لذا لا بد من التطرّق للنظريّة الفيتاغوريّة، كشرح مختصر لأهميّة العدد، فالواحد عند فيتاغورس يمثل الثبات والاستمرارية في الكون. والواحد يدل على الإله، أي الكمال. أمّا رقم إثنان فيمثل النقص، والإنقطاع. وهذه الثنائية المتضادّة، تكون ضروريّة، بالنسبة للكون ولتجسيد ثنائية الخير والشرّ.

يختصر ديوجين، النظريّة الفيتاغوريّة بالتالي: "أن الوحدَة هي مبدأ كل شيء، صدرت عنها الثنائية وهي لا نهائية، من الوَحدة الكاملَة ومن الثنائية اللانهائية صدرت الأعدَاد، ومن الأعداد النقَاط ومن النقاط الخطوط، ومنَ الخطُوط المسَطحَات، ومن المسطحات المجَسمات، ومن المجسمَات الأجسَام المحسوسَة وعناصرها الأربعة وهي الهوَاء والنار والماء والتراب ومن حركتهَا تكون العالم الحي الكروي الذي تكون الأرض ذات الشكل الكروي في مركَزه2".

لذا تعتبر " الاعداد والحسابات شواهد على العبرية الإبداعيّة لدى الجنس البشري"3.

بهذا نكون قد بيّنا اهميّة العدد بشكل عام، لنلاحظ أن ماكليش في كتابه تكلّم عن تاريخ العدد، وعلاقته بحياة الفرد، بكل تفاصيلها الفكريّة والعمليّة، إضافةً الى، الدور الذي شغله العدد في التقدّم التكنولوجي. ما يوصلنا إلى الطرح الأوّل والذي يتكلّم عن الدلالة المعنوية للعدد.

دلالة العدد، وتجلياته الفكريّة:

لكننا هنا، نوجّه الكلام نحو دلالة العدد، وتجلياته الفكريّة والمعنويّة. وهذا ما شمله كمال القنطار في كتابه، في ظلال العدد.

يتوجّه القنطار في بداية حديثه عن العدد، بالكلام عن دلالات العدد بالنسبة للشعوب، على مرّ التاريخ. ليجد أنّ استخدامات العدد كانت تتعلق بالحسابات، والهندسة، والفلك، ولكن لم تخلو هذه الأعداد من الدلالات العَقَديّة.

يقول القنطار: "يمكن القول أنّ تجريد العدد قد اتخذ في تجربة الفكر منحيين: الأوّل: ميتافيزيقي... والثاني: تجريد رياضياتي"4.

يعتبر القنطار هنا أنّ المنحى الميتافيزيقي، والآخر الرياضياتي متناقضين في المعنى والدلالة، إذ يعتبر أن الدلالة الميتافيزيقيّة للعدد، في التجريد الفيثاغوري مثلاً، ظلّ متعلّقاً بالهندسة، والموسيقى، دون أن يبتعد عن المحسوس. إذ يعتبر أن تجريد العدد يقع في وجوده قبليّاً، واستقلاله عن العالم الحسّي، لاحتوائه على مدلولات غيبيّة، لكنها تنعكس في المحسوس.

أمّا التجريد الرياضياتي والذي أخذ مكانه عالية في الفلسفة الإسلاميّة، _ مثلاً، حساب الجُمّل5_ يعتبر ركيزة اساسيّة في البناءات الرياضية التي تطوّرت علمياً وأصبح لها شأن في علم الحساب وغيره من العلوم الرياضيّة. إذ يستخدم العدد هنا استخداماً منطقيّاً مطلقاً، لا يحدّه زمان ولا مكان. هنا يكتسب العدد القدرة على الخروج من مجّرد قياس للكم الى إثبات وجوده كمفهوم مستقلّ مجرّد عن كل ما هو محسوس.

"وما لبثت الأعداد أن تخللت عالم الآلهة لتنظمه وعالمي الطبيعة والبشر، في إيقاعات عددية متسقة، تمتد الى مختلف قوى الكون ومظاهر الحياة، وفاعلية الفكر..."6.

يعطي القنطار للعدد، دوراً تنظيميّاً للكون، على الصعيد الفكري، والعقدي على حدٍّ سواء. وكأنّه يحاول أن يجرّد العدد من الوظيفة الأولى التي وُجد من أجلها، وهي حساب المقادير وغيرها من الشؤون الحياتيّة، اليومية، ليضعها في مرتبة أعلى من ذلك وأرقى. بحيث يدخل العدد في الفكر الميتافيزيقي، ليجسّد مقدّسات الشعوب، في كل زمانٍ، ومكان. فلم يستثني العدد الديانات القديمة، ولا الديانات السماويّة، من خلال الكتب المقدّسة.

السبعة:

" في البدء كانت السبعة "7، يختار القنطار العدد سبعة، كعامل مشترك ما بين الديانات القديمة والجديدة، وحتى الإتجاهات الفكريّة الفلسفيّة.

والسبب هو قدسية هذا العدد بالنسبة لكل هذه الإتجاهات، من ناحية، ومن ناحية أخرى، اعتقاد أنّ هذا العدد "سبعة" يؤثّر في الفكر الإنساني ككل، منذ وجود الكائن العاقل على الأرض. تلفُّ العدد سبعة، هالةً من السحر لم يملك أحد من الفلاسفة أو المفكرين، تفسيراً لها.

يبدأ القنطار مسيرة السبعة في بابل السومريّة القديمة، التي جعلت قدسية هذا العدد متعلّقة برضى الآلهة.
وتمتدّ قدسيّة السبعة الى الحضارة المصريّة، التي جعلت هذا العدد رمزاً للأمان عندما شيّد الملك لأبنته قصراً عالياً جدّاً لحمايتها، وكان علوّ المبنى ينحصر بسبعين ذراعاً.
يصل القنطار الى دلالة السبعة في الإرث الميثولوجي السوري _في الحضارات الشرقية القديمة_.
ليجدها في تتجلى في النظام. أي في تنظيم الحياة، بدأً من عدد الآلهة، وصولاً الى طقوس الزواج وعدد الأبناء وغيرها.
لينهي القنطار رحلة السبعة في الديانات القديمة مع المعتقد العبري، الذي يجسّد قدسية السبعة في يوم اكتمال خلق الكون، وهو اليوم السابع. إذن تتعلق قدسية السبعة في صفة الكمال.
يبدأ القنطار من جديد في دلالة العدد سبعة مع الإنجيل، في المسيحيّة، إذ تتجلى السبعة في العهد القديم والجديد في المسامحة والغفران. يقول: "هو ذا بطرس، احد حواريي المسيح، ... يتقدّم الى يسوع ليسأل: كم مرّة يخطئ إليّ أخي وأنا أغفر له، هل إلى سبع مرات؟ ... فيجيب يسوع: لا أقول لك سبع مرات بل إلى سبعين مرة" 8.
لينتهي القنطار بدلالة العدد سبعة في الدين الإسلامي، والفرق الإسلاميّة. ويجد أن السبعة تمثّل طبقات السماوات والأرضين، وأبواب الجنّة، والنار، ومجموع أيام خلق الكون، إلخ... وعلى لأرجح يكمن معنى السبعة في عملية الخلق من العدم.
يمرّ القنطار ببعض الفرق الإسلامية، كالصوفيّة التي تجسّد دلالة السبعة في عدد مقامات التجربة الصوفيّة. "التوبة، القناعة، الزهد، الفقر، الصبر، التوكل، الرضا" 9.
لم يكتفي القنطار بالسبعة بل تعداها إلى أرقام تحمل قداسة، ولكن في طريقة مختلفة.
يقول: "ولئن ارتبط الإيقاع السبعي بالميثولوجيا أكثر مما ارتبط بالتأمل العقلي والتجربة العلميّة، ولذلك غاب هذا الإيقاع عن الفكر العلمي والفلسفي الحديث والمعاصر، فإن الإيقاع الثنائي لم يرتبط بزمان أو مكان محددين، وبتجربة فكريّة واحدة ... ولعل مرجع ذلك ينبثق من الوجود الواقعي البناء المنطقي للفكر10.

ينتقل بهذا الكلام الى العدد **اثنين** الذي يمثل، التضاد—الثنائية. يبدأ القنطار من البداية حيث يتكوّن الكون من ذرّات متجاذبة من خلال اختلاف طبيعتها، لا بل من خلال تضاد هذه الذّرات، فتتشكّل بذرة الوجود. ليصل الى ولادة الوعي، الذي وُجد من خلال إدراك ثنائية الضدين: "الأنا واللا أنا" 11.
يلبس القنطار هذه المعادلة على كل المظاهر الكونيّة. "فمفهوم الوجود ذاته يفرض في تأمله نقيضه المباشر، وهو العدم" 12.
وكما السبعة، لاحق القنطار الإثنين في المراحل الفكرية العقديّة للبشرية.

أضداد في اساطير الخلق:

الإثنين:

تتجسد هذه الثنائية في انقسام بني البشر الى ذكرٍ وأنثى. وانقسام الكون الى أرضٍ وسماء. وتتحكم هذه الثنائيتان بجنس الآلهة التي تكون تارةً ذكراً وتارةً أخرى ذكر، ومن الممكن أن يكون الإله الأكبر والأساس مزدوج الجنس، أو انه يستعين بثنائية تتألف من ذكر وأنثى لمساعدته. تتقارب هذه الفكرة في الديانات القديمة، لأنها لم تقدر أن تغفل عن الإزدواجيّة الموجودة في الطبيعة، لتطبّقها على نفسها ومن حولها.

لم تخلو الفلسفات القديمة من الثنائيات. افلاطون وأرسطو ايضاً، زكّو هذه الفكرة من خلال المحاورات التي كانت تكشف ثنايا فكرهم. فعالم المُثل مثلاً يقابله العالم الواقعي. وعلى هذا الأساس تأتي ثنائيات أخرى: الكمال والنقص، الفضيلة والرذيلة، الموت والحياة، الخير والشر، النور والظلام...

إن وجود أحد هذين الطرفين مقرون بوجود الآخر، وبالتالي فالثاني يتبع الأول، بحيث يقترن وجود الأول بالآخر، وهكذا...

يصل القنطار الى الديانات السماوية، ليجد العدد اثنين موجوداً بوضوح عند الصوفية. تكمن الثنائية هنا، "باختيار السالك... بين الحياة من أجل الذّات الإنسانيّة بكل نوازعها وغرائزها، والحياة من أجل الذّات الإلهية بانصرافه الكامل الى نشدان الإشراق الإلهي" 13.

يشدد القنطار على علاقة الثنائيات بعضها بالبعض الآخر، وأكثر من ذلك، ملازمتها بعضها بعضاً. بحيث يكون وجود الأول شرطاً لوجود الآخر.

ولكن هنا إشكالية تتجسّد في علاقة العدد الإثنين مع الواحد. ألا يعتبر العدد إثنين متضاد مع العدد واحد من خلال الفرادة والإزدواجيّة. يتجلّى هذا الصراع من خلال التعبير عن وحدانية الله في الدين الإسلامي، لما من نصوص تشير وتؤكّد على هذه الوحدانيّة. بينما نجد في الديانات الأخرى، تعدداً في الألهة.

إذن يركّز القنطار على الوحدانية الموجودة في الدين الإسلامي وتتجلى بشكل أساسي في العقيدة.

ولكن لم يكتفِ الكاتب بهذا ولكنه بحث عن العلّة الأولى والمحرّك الأوّل الموجود بشكل صريح في الفلسفات الأولى والمعاصرة، بكل تدرجاتها. يجسّد العدد واحد، الركون، والسكينة، النفسية، لمن يقول به من مؤمنين، وفلاسفة.

ننتقل الآن الى العدد الذي يضاهي السبعة في أهميته العقديّة، وهو العدد ثلاثة.

الثلاثة:

ولكن المفارقة هنا أن هذه الأهميّة بحسب القنطار يختص بها الدّين المسيحي من خلال الثالوث المقدّس. ولكن لم تكن أهميّة هذا العدد هي نفسها التي مثلها العدد واحد واثنين

في الديانات القديمة والفكر الفلسفي.
يخص الكاتب العدد ثلاثة كما قلنا بالثالوث المقدس، بحيث تتألف التركيبة الإلهية من ثلاثة، الأب والإبن والروح القدس. هذه التركيبة التي تمثّل الكمال بالنسبة لصورة الرّب.

الأربعة:
مروراً بالعدد أربعة الذي تتجسد أهميته عند الشعوب القديمة، ولكن هذه الأهميّة موجودة في العادات والمعتقدات الشعبية. فتتولّد من الأربعة: الألهة الأربعة، وعناصر الطبيعة أربعة، الماء والهواء والنار والتراب. هذه العناصر شكلت منظومة مهمّة لإنسان الديانات القديمة لما لها من تأثير في حياته اليوميّة. يتكلّم ايضاً القنطار في إطار هذا العدد عن التناغم الحاصل والمستمر بين العالم الإلهي والوجود الطبيعي، بحيث يجري وفق إيقاع رباعي، (رباعيات الخيام). ويشير أيضاً الى كتاب ألف ليلة وليلة الذي تميّز أيضاً بتجسيد الإيقاعات التي تجسّد المعتقدات الشعبية القديمة.
أما الأعداد خمسة وستة وثمانية وتسعة، فلم تحظ بالإهتمام الكبير كغيرها من الأعداد التي مرّت معنا. إذ اقتصر ذكرها على المعتقدات الخرافية كالفأل السيئ، وتعداد المراتب الطبيعيّة، الخ...

الحادي عشر:
لترجع الأهميّة مع العدد إحدى عشر، ولكن حديثاً في القرن العشرين. فبعد أن جسّد هذا العدد الفأل الحسن قديماً، تكمن أهميته الحديثة في العلوم الفزيائية الكونية، تحديداً مع أينشتاين والنسبية. ولكن الميّزة اللّافتة للعدد الحادي عشر يوصّفها القنطار بالتالي: "وللعدد ذاك مقدرة لا يجاريه فيها عدد آخر ذو رقمين، تتجلّى في أن العدد (11) في أي من الأرقام التسعة يعطي عدداً يتساوى فيه رقماً آحاده وعشراته"14.
الثاني عشر:
وفي نهاية هذه الرحلة العدديّة إن صحّت التسمية، نصل الى العدد الثاني عشر، والذي يقتنص أهميته من خلال تعداد أشهر السنة الذي تحسب من خلاله الأعمار، وهي الأهم في حياة الفرد بشكل خاص والكون بشكل عام. هذه الأهميّة التي رافقت هذا العدد منذ الأسطورة الإغريقيّة، وصولاً الى زماننا هذا.
وما سبق هذا التعداد، هو، "اكتشاف الطابع الدوري لحركة الشمس الظاهريّة، وهو في الواقع الطابع الدوري لحركة الأرض، وما يوافقها من حركة القمر الدوريّة، بإيقاعيهما الأثنا عشري" 15. بالإضافة على عدد البروج في قبة السماء، ما حفّز الإنسان لينزل اسقاطاته من خلال هذا العدد على الطبيعة والفكر.
أما الأهمية الكبرى للإثنى عشر، فتكمن في المعتقدات الدينية الإسلامية وقبلها المسيحية.

ففي المسيحيّة يبرز هذا العدد من خلال الحواريين تلاميذ المسيح الإثنا عشر. أما عند الفرق الإسلامية أيضاً تبرز أهمية هذا العدد عن فرقة الشيعة الإثنا عشريّة الإماميّة. " ويرجع سبب ذلك إلى اعتقاده بإثني عشر إماماً، يبتدئون بالإمام علي فالحسن فالحسين فعلي زين العابدين... وينتهون بمحمد زين العابدين..." 16.

الأعداد السالبة:

لم ينهي القنطار رحلته عند هذا العدد بل تطرق إلى فرضيّة الأعداد السالبة التي رجّح وجودها في الزمن القديم اختلاف الأفكار والمعتقدات اتجاه كل عدد على حدة. ومن ثَمّ فإن فرضيّة وجود الأعداد السالبة منذ بداية الزمن لا بد لها من أن تغيّر تصور كل الشعوب التي مرّت على الأرض تصورها لعلاقة الأعداد بالوجود. فمثلاً لن يكون ضد الإثنان الواحد كما ظهر معنا، بل سيكون كالتالي: ضدّ 2 هو −2.

"فلربما للمفكرين الذين شغلوا أنفسهم بفلسفة الأعداد أن يمثّلوا (الضد) بالعدد(−1)، كما مثلوا بالعدد (1). ولسوف تجد الميثولوجيا في الأعداد السلبة ضالتها، فبها تستطيع ترميز كائنات العالم السفلي ونزلائه..." 17.

إستنتاج:

لقد بحث القنطار في دلالة العدد، ليجد أنّ الأعداد تمثّل قيماً انسانيّة، لا بل ترافق الإنسان في كل شؤون حياته الفكرية والواقعيّة والمثاليّة، لا بل الأسطوريّة في كثيرٍ من الأحيان.

وكنتيجة عامّة لهذه الدراسة، نطرح الإشكاليّة التالية، لربما المحاولة للإجابة عليها يفتح آفاق جديدة ويدخل بين ثنايا السطور لاستكناه المجهول.

فلماذا اتّبع القنطار لفظ عدد ولم يعتمد لفظ رقم؟

لفظ عدد يدخل في الدلالة الفكريّة والروحيّة للمشار اليه. بحيث يبحث لفظ العدد العلاقة الكائنة ما بين عناصر وأركان العدد في نفسه. على سبيل المثال: الثلاثة، فعندما نقول العدد ثلاثة يكون المقصود هنا العلاقة الكائنة بين عناصر هذا العدد، إذ يتميّز كل عنصر من عناصره بخاصيه يتفرّد بها دون الآخر بغض النظر عن التشابه أو التطابق بين هذه العناصر، فلن يتطابق العنصر الأوّل مع الثاني تطابقاً تاماً وكأنه يحمل لنفسه بصمةً خاصةً به تميّزه عن توأمه.

هذا ما لن نجده في لفظ رقم الذّي يتحدّث فقط عن الشكل الخارجي للمشار إليه ولا يدخل بتفاصيله ولا خصائصه. وكأنّ المعنى الجواني الداخلي الأقرب الى الذات ووجودها يتجسّد في لفظ عدد، أمّا ما هو برّاني خارجي يتجسد في لفظ رقم.

وأخيراً لا بد من ذكر ملاحظة، بادرتنا أثناء قراءة الكتاب، وهي في توصيف القنطار، للأعداد. إذ تكلّم عن كل الأعداد من خلال دلالاتها الفكريّة والدينيّة والاسطوريّة وما الى هنالك. ولكنه عندما بلغ العدد الحادي عشر، بدا متحيّزا لجماليّة هذا العدد، ليقول: "لعل القارئ قد انتبه الى السمة الجمالية التي تنظم المجاميع" ص: 448، يقصد المجاميع

التي تحتوي على العدد 11، وفي موضعٍ آخر قال: "فإذا قامت المجاميع بالإصطفاف في نسق... فإنها تولّد متتالية حسابية... تحتوي على الإتساق والجمال لا يتجلّى بها سوى عددٍ نبيل"18. لينهي قوله: "نترك لمن يريد الإستزادة أن يتحقّق من ذلك، وهذا غيضٌ من فيض مما يُسرّه العدد الموهوب"19.

"وبعد هذا نستطيع الانتقال الى العدد 12 مطمئني البال، فقد بسطنا _كما نعتقد_ ما يكفي من الأدلّة التي تعطي العدد (11) مكانة لائقة هو أهلٌ لها" 20.

فما سبب الإعجاب بهذا العدد، هل هو جماليته الخارجيّة ليصبح مجرّد رقماً، أم انسيابيته، وجمالية دلالاته، وعلاقته ببعضه، وتناسقه الذاتي؟

على الأغلب الإحتمال الثاني لما له من ارتباط مع عنوان الكتاب والأفكار التي عرضها كمال القنطار في كتابه في ظلال العدد.

ما يقودنا للكلام عن الدلالة المعنويّة للعدد (11)، فالتشابه بين أجزاء هذا العدد ليست الصفة الوحيدة فيه بل يمكننا أن نلاحظ علاقة تقابل أيضاً. من جهة التشابه، يكمن في الشكل اي في المظهر الخارجي، أمّا التقابل فيكمن بوجود عدد مقابل عدد آخر بالزمان والمكان نفسه. ولكن الإختلاف يكون في خصائص كل عدد بذاته. وكأننا نتكلّم هنا عن بصمةٍ خاصّةٍ لكل عددٍ على حدة. بصمة عدديّة، أو رقميّة. ولعلّ هذا ما ميّز العدد (11)، عن غيره بنظر القنطار.

لقد حاول القنطار من خلال كتابه في ظلال العدد، والذي أتبعه أو يريد أت يُتبعه بأجزاء أخرى كما ذكر في مقدّمة الكتاب، حاول أن يعطي طابعاً روحيّاً للعدد. هذا الطابع ربّما يهدف إلى تقليل الجمود الكامن في مفهوم العدد. ولربّما يوصلنا هذا الهدف إلى أبعاد أكثر إنسانيّةً مما يظهر. ولربما أيضاً، أنّ العدد يأخذ لنفسه قيمةً إنسانيّة يرقى بها عن صفاته الجامدة، ويعطي الإنسان الفرد قيماً تمكّنه من إدراك قيمته الإنسانية وممارستها أكثر مما هو عليه. وخاصّةً في مجتمعاتنا العربيّة، التي في أغلب الأحيان تعتبر الأفراد أرقاماً مهمَّشه، دون الدّخول، أو حتّى اعتبار القيم الفرديّة، والذّاتيّة، لكل فرد على حدة.

وأكثر من ذلك، يحاول القنطار أن يجمع بين أركان الكون في سيمفونيّةٍ متناسقة. ليشكّل العدد، بالإضافة إلى الإنسان وهو القيمة العليا في هذا الكون، نظاماً عميقاً يتجلّى فيه الوعي بأعلى صوره. إذ أنّ اعتماد الأعداد في الحياة اليوميّة للفرد، تساعد في التعمّق بالمعرفة واكتشاف خبايا الكون، وكأن الإعداد تلعب دور المنظّم لتحركات الإنسان الفرديّة، والجماعية.

ولعلّ العدد أعطى الإنسان، وجوداً فكريّاً عميقاً ومتميّزاً، مكّنه من إعادة هيكلة علاقاته مع نفسه ومع الآخر، والأهم من ذلك مع الطبيعة. هنا بالذّات تكمن أهميّة العدد التي نشرت نفسها وتغلغلت في كل مفاصل الأحداث الكونيّة، كما بالحياة الإنسانيّة.

الهوامش:

1 ماكليش، جون، العدد من الحضارات القديمة حتّى عصر الكمبيوتر، تر، خضر الأحمد، وموفق دعبول، تحقيق: عطية عاشور، عالم المعرفة، الكويت، 1999، ص: 187.

2 منقول عن صفحة عالم الفلسفة الإلكترونيّة.

3 ماكليش، جون، العدد من الحضارات القديمة حتّى عصر الكمبيوتر، تر، خضر الأحمد، وموفق دعبول، تحقيق: عطية عاشور، عالم المعرفة، الكويت، 1999، ص: 10.

4 القنطار، كمال، في ظلال العدد، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 2002، ص:5.

5 حِسَاب الجُمّل هي طريقة لتسجيل صور الأرقام والتواريخ باستخدام الحروف الأبجدية، إذ يُعطى كل حرف رقما معينا يدل عليه. فكانوا من تشكيلة هذه الحروف ومجموعها يصلون إلى ما تعنيه من تاريخ مقصود وبالعكس كانوا يستخدمون الأرقام للوصول إلى النصوص. أنظر سلسلة من مقالات حول أنظمة العدد، مجلّة الكترونيّة، 24 أكتوبر 2021.

6 القنطار، ص: 9

7 م ن، ص: 11.

8 القنطار، ص 36، 37.

9 م ن، ص: 61.

10 م ن، ص، 68.

11 م ن، ص: 68.

12 م ن، ص:69

13 القنطار، ص:85.

14 القنطار، ص:448.

15 القنطار، ص:461.

16 م ن، ص: 463.

17 م ن، ص: 470

18 القنطار، ص:449

19 م ن، ص: 449

20 م ن، ص: 449.

المراجع:

1- القنطار، كمال، في ظلال العدد، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 2002.

2- ماكليش، جون، العدد من الحضارات القديمة حتّى عصر الكمبيوتر، تر، خضر الأحمد، وموفق دعبول، تحقيق: عطية عاشور، عالم المعرفة، الكويت، 1999.

3- صفحة عالم الفلسفة الإلكترونيّة.

Impacts of COVID - 19 on College Student's Academic Performance

Maya Bazhouni

Assistant Professor
Lebanese University

Abstract

The negative impacts of COVID-19 have been felt far and wide in various sectors such as trade, hospitality, and tourism, and it has resulted in unprecedented negative economic impact across the globe. Even so, COVID-19 interrupted the education system as most learning institutions were shut down as a preventative measure to deal with the spread of the pandemic. As a result, most facilities were closed to impose regulations on the control of travel, social distancing, and quarantine. The study's goal is to examine the impact of COVID-19 on the performance of college learners in Lebanon. To obtain firsthand data that could be used to make a generalized conclusion on the research problem, snowball sampling was used to recruit 100 participants from five schools. The results of this study reveal that during the pandemic period, only 23% of the students successfully completed learning different programs for the specific semester online, as 28% engaged in partial learning and 49% did not learn online at all. As a result, there was a drop in the average mean performance of the learners from 76.21 to 67.48. The poor performance of learners was attributed to poor training of teachers on remote delivery of course content, unreliable internet connectivity, and lack of technology devices such as computers. Moreover, lack of commitment from

students and poor institutional policies that do not support remote learning contributed to the drop in performance. Therefore, as a result of advanced technology, facilities should prepare tutors and students for remote education. This measure will be critical during a pandemic, and it can help address the issue associated with distant learning.

Keywords: COVID-19, performance, online learning, face to face learning.

Impacts of COVID-19 on College Student's Academic Performance

COVID-19 pandemic proved that even though the interconnection between countries across the globe has significant benefits to the world population, risks, especially those related to health matters, pose a far-reaching negative impact on the people. Since the onset of the virus in Wuhan, China, in 2019, the spread was rapid across other countries leading to increased infection rate, deaths, and hospitalization. As a result, stringent rules and regulations were imposed by various governments to curb the transmission of the virus. For instance, social distancing, isolation, quarantine for those infected, and restriction of movement are among the measures put in place to prevent the spread of the virus. The strict measures disrupted the world economy as people could not move from place to place, negatively affecting trade, the hotel and tourism industry, and the transport sector. The education sector is one of the industries that was severely hit by the negative impact of this virus. Some institutions suspended face-to-face learning and exams, while others replaced traditional learning with books and materials taken from schools (Gonzalez et al.,2020). Despite the overwhelming evidence on the disruption of learning by the pandemic, there is limited research on how COVID-19 affected the education system and how it affected the education performance of college students.

Generally, the crisis exposed the inequalities and inadequacies in the education systems. For instance, due to the closure of schools during the COVID-19 period, most learners needed computers to enable remote learning. However, online education proved futile due to the lack of computerized systems that are vital for the learning process. Moreover, many students had limited helpful environments to assist their remote learning process. Besides, misalignment between resources and needs affected the education accorded to learners at various levels of learning. Fundamentally, lockdown in response to COVID-19 interrupted conventional schooling as various schools were closed across the Middle East countries for an extended period. Efforts placed by stakeholders in the sectors to maintain learning continuity meant that learners had to rely

more on their resources to effectively learn through the internet, radio, and television. Moreover, most teachers had not received adequate training on the new instructional delivery methods and pedagogic requirements for remote learning. In particular, college students from various marginalized groups in the Middle East and those who do not have the resilience to learn on their own were at a greater risk of failing than those students from affluent regions. Due to the lack of sufficient research on the impact of COVID-19 on the performance of college learners, there is a need to conduct a comprehensive study on the topic to shed light on how the pandemic affected students and understand corrective measures that can be put in place to enhance performance.

Statement of Problem

Educational procedures were affected by varied components such as lockdown, social distancing, and quarantine during the pandemic. While there are adequate details on how the virus interfered with the learning procedure, there is no clear proof on how online learning style affected the outcome of college learners. Some of the key challenges governments and college administrations face to ensure learning continuity during the COVID-19 period include insufficient access to the internet and bandwidth in many households. Moreover, many students lack hardware assets such as tablets and laptops, crucial for online learning. Subsequently, there is inadequate knowledge among learners and tutors on how to use online learning platforms and limited digital and pedagogical skills by instructors to facilitate online teaching and student assessments. Notably, teachers are also not well trained in administering course content and examination through various online platforms. Furthermore, specific courses related to lab work and medicine lacked opportunities to be moved online, affecting the learning process of this course. Despite the increased challenges faced by college learners, many institutions followed the education calendar ignoring how the new learning methods would influence the academic achievement of learners. Generally, COVID-19 negatively affected the performance of especially those who could not access the essential online learning resources such as the internet. Moreover, there was decreased motivation to learn among students since there were limited face-to-face and social interaction chances. Primarily, due to the poor strategy of online education during the COVID-19, the performance of most learners is deemed to have dropped drastically. However, there is no detailed research on how the pandemic affected the performance of college learners in Middle East countries.

Research Objectives

The primary goal of this study is to examine how the set COVID-19 restrictions affect the academic achievement of college learners in Lebanon. The study will incorporate how varied activities like online instruction impacts apprentices and the standard educational procedures. The research goal is to shed light on how different learning procedures affect the performance of college students. The online examination procedure, evaluation by teachers, and course content delivery are known to affect learning. However, there are no clear studies on how it affects students' performance. The research will therefore highlight how online education programs can affect learners' performance. For instance, the extent to which online learning and exams influence students' preparedness and performance. Furthermore, the study aims to highlight effective measures that can be taken to facilitate successful remote learning, which has become a norm during this COVID-19 period.

Research Questions

1. To what extent does online learning impact students' preparedness for exams?
2. To what degree are teachers prepared to deliver online course content successfully?
3. To what extent are college students engaged in online learning during the COVID-19 period? Were learners fully or partially involved, and were there adequate resources to support online learning?
4. What is the existing relationship between the negative health impact of COVID-19 (psychological impact) and the academic performance of learners pursuing tertiary education?

Significance of the Research

This research will play a significant role in highlighting the impact of COVID-19 on the academic performance of college students. The research will comprehensively assess the strategy used to ensure educational continuity during the COVID-19 pandemic and further determine whether learners were fully engaged. Generally, due to the novelty of the virus, traditional in-person learning was discouraged. While other students shifted to online learning, others did not attend any learning secessions during the period. The research will provide a comprehensive report on how online education practices affect learning and the overall performance of students. Therefore, school administrators will gain insightful information on how some of the

strategies were impactful to learners. Through the study, the limitations of online learning will be defined, which were widely used to bridge the learning gap created when schools were closed to prevent the spread of COVID-19. The research will enable teachers and learners to understand diverse ways to address the limitation of online learning. Notably, all institutions are making efforts to maintain the performance of their learners, whether in mainstream classrooms or online. Besides, currently, various institutions are offering online programs to create enough space for all learners and accommodate those who cannot travel for in-person learning. This research will be beneficial for these institutions as they will learn how to achieve optimum performance. Subsequently, the research will advantage the academic and research society by providing an exceptional reference point on the effect of COVID-19 on the academic outcomes of college learners.

Literature Review

In this section, varied concepts regarding the study topic will be described. Crucial details from previously done studies are assessed and highlighted. The information incorporated in this literature review section entails the effects of COVID-19 in the Middle East region, COVID-19 in the Lebanese education system, online versus face-to-face instruction, and the impacts of COVID-19 on college students' academic performance. Additionally, a theory applicable in this current study will be described. A detailed explanation of these identified areas is as defined below.

Impact of COVID-19 in the Middle East Region

According to the World Bank (n.d.), most Middle East and North Africa (MENA) countries have either implemented distance learning colleges or enrolled participants in regional distance instruction universities. Subsequently, some private campuses are well structured for online instruction delivery through initial investments in technological tools and online content. However, most nations and public institutions struggled with the abrupt need for providing large-scale online schooling. The major challenges encountered by MENA governments and colleges concerning a shift of courses to online education entail inaccessibility to the internet connection, unavailability of hardware like computers and tablets for learners to use at home, restricted availability of virtual course materials, for instance, lab activities in science-related subjects, and lack of concentration due to varied distractions. Despite these barriers, MENA nations made considerable efforts and have significantly prospered in enacting

distance education. Subsequently, most developing nations have constrained access to formal Learning Management Systems (LMS) for distance instruction and learning communication (Alshaikh et al., 2021). This condition forced many facilities to seek an alternative in free exchange applications such as Zoom and Google classroom or social media sites like Facebook and WhatsApp.

COVID-19 and Lebanese Education

According to Mouchantaf (2020), unlike most nations where public schools are the trusted available options, in Lebanon, more trust is placed in its private learning institutions, which facilitate learning two-thirds of the country's students. The Lebanese education system was already strained and experiencing challenges even before the COVID-19 outbreak. Most learning institutions were closing, and individuals were striving to pay for private education while public institutions were becoming congested with Lebanese learners and Syrian refugees with limited access to necessary resources online education. During the outbreak of the pandemic, the Ministry of Education and Higher Education established a National Distance Learning initiative to facilitate e-learning assistance for public schools (Mouchantaf, 2020). COVID-19 paved the way for the transition of higher education facilities to distance learning. This learning approach necessitates utilizing a wide range of technological tools to ensure productive interaction and successful learning. Furthermore, the Ministry of Education and Higher Education also invited other stakeholders (educators) to contribute towards policies that will enable online education. Besides, the ministry created communication sites such as Microsoft teams freely accessible to students. Moreover, the tutors utilized various approaches to convey course details; for example, WhatsApp and Zoom are essential tools that are used for class sessions, and sharing recommended readings and homework are shared through emails. The success of this type of learning relies on a solid internet connection. However, despite governmental attempts to improve the speed and bandwidth of the nation's internet services, the teachers and students encountered connectivity problems during virtual classes (Mouchantaf, 2020). The teachers defined that the online learning procedure is devastating, but positive outcomes are attainable. Besides, compared to face-to-face instruction, the time required for curriculum preparation is longer.

Online Versus Face-to-Face Learning

The closure of higher learning institutions globally due to the COVID-19

outbreak caused a rapid shift from face-to-face to online instruction, which comes in two categories of association: synchronous and asynchronous (Alshaikh et al., 2021). Synchronous learning enhances the interaction between the tutors and the learners, facilitating students' participation and interactivity such as audio and videoconferencing and webchats (Khalil et al., 2020). Asynchronous education depends on technologies that require no real-time associations between the scholars and the teachers, such as emails, recorded videos, and discussion forums. Most online instruction promotes asynchronous tutoring that incorporates the flexible, functional learning procedure.

Digital media had improved instruction and learning experience for learners during the pandemic when in-person learning was suspended. Globally, the utilization of e-learning has significantly increased, with most governments availing financial assistance and establishing promotional programs. Moreover, e-learning has also expanded due to technological advancements and education management applications like Blackboard- and Moodle-based systems. Scholars recognize the value of e-learning due to its clear and consistent structure, flexibility, and varied forms of communication.

Although online and face-to-face techniques have their benefits and disadvantages, online registration rates have been increasing globally, especially in higher education. Mouchantaf (2020) highlighted that online instruction is becoming more viable in higher education. Besides, the approach provides 24-hours remote accessibility to classroom details. However, despite the various benefits of e-learning, the approach alone does not comprehensively address learners' requirements in comprehending and acquiring learning materials. According to Khalil et al. (2020), although online education has for a long time been identified as an effective learning tool, it can be challenging due to inadequate non-verbal communication. Additionally, Noori (2021) noted that the significant challenges of enacting online instruction during the COVID-19 pandemic were inadequate resources, retaining academic integrity, policy issues, unavailability of learners' self-discipline, technical problems, and lack of knowledge and confidence. Other elements like students' and tutors' interactions and time management can impact the perception of online education participants.

COVID-19 and Academic Achievement

During the global pandemic, the academic outcome of college learners was impacted by various elements like poor emotional proficiency and learning

readiness. According to Wang et al. (2022), online learning readiness positively relates to college students' academic results. Individuals who demonstrate a high willingness and ability to manage their online activities effectively had higher chances of recording more remarkable academic outcomes. While varied interruptions characterize distance learning, the capability to concentrate on learning is a vital determinant of success. Subsequently, high emotional proficiency lowers mental health concerns and leads to low academic performance in teenagers and young adults (Wang et al., 2022). Similarly, low emotional competency heightens mental health challenges, affecting academic results. Therefore, the college learners' Grade Point Average (GPA) during the pandemic varied depending on the level of preparedness and emotional consciousness.

Subsequently, the pandemic significantly impacted students' academic performance of most individuals (96.7%) to varying extents (Mahdy, 2020). In research conducted by Giusti et al. (2021), the authors measured academic accomplishment based on the learners' Grade Point Average (GPA). 30% of the learners recorded higher GPA, while an averagely of 40% had no variation in GPA, and approximately 30% registered lower GPA (Giusti et al., 2021). Moreover, around 60% of all the students highlighted that they failed to fulfill their curriculum goals (Giusti et al., 2021). These data indicate that the academic results of college students varied depending on the students. For instance, some individuals had consistent outcomes before and after the pandemic; others improved, while some had poor results.

Theory of Transformative Learning (TL)

The theory of TL highlights that learning starts when the students encounter a distressing situation (Noori, 2021). TL is the enlargement of conscience via self-adaptation to a varying situation. COVID-19 outbreak contributed to a dissonance in the education sector globally, and it caused a paradigm shift in higher education. Disorienting dilemma leads to modifications that result in cognitive differences and dramatic changes in education. This model is applicable in this current research because it focuses on students' experiences with learning incidence (Noori, 2021). When students encounter a situation that requires in-depth knowledge, they develop meaning, therefore, causing a revolution in their perceptions, characters, and understanding. As such, these elements affect the student's education and academic accomplishment. Subsequently, individuals face complex tasks during paradigm transformation hence the need to encourage them to reason critically and rationally to

examine their comprehension in the learning procedure. Although students may experience hardship accessing needed resources, especially in developing nations, this constraint is reasonable and highly impacts the learner's education results in higher education. Therefore, to improve students' learning during a cognitive dissonance, the teachers should utilize vital approaches and change the instruction process to a new norm. These transformations will develop a sense of control and self-awareness among the students, thus leading to innovation and revolution in the education system.

Methodology

The primary goal of this current study is to respond to the challenges of the COVID-19 pandemic on college learners' academic outcomes. In this methodology section, the steps undertaken to answer the set research questions will be considered. Particularly, the utilized study design, the subjects and sampling criteria, and data collection and analysis tools will be described. Moreover, in this chapter, the measures (including ethical standards) and processes considered when recruiting participants will be highlighted.

Research Design

A research design is crucial for defining the critical procedures observed to enhance data collection and analysis useful in responding to the set questions. Asenahabi (2019) defined a research design as a general strategy for linking the conceptual study issues to the appropriate and attainable empirical exploration. Both qualitative and quantitative designs will be utilized. A quantitative approach is used to produce quantifiable values, and it can be accomplished by applying closed-ended questions. Specifically, a survey study to deliver a numeric explanation opinion of a population by examining the sample of the particular populace will be employed. The survey method is beneficial in providing details on large numbers of people, using minimal effort and cost-effectively (Asenahabi, 2019). However, this technique is associated with varied drawbacks like difficulty managing against sample prejudice which may interfere with the generalization of outcomes, and greater reliance on the subjects, which determines the extent of result reliability. Subsequently, quantitative methods will be employed by allowing the participants to define their thoughts and beliefs about the impacts of COVID-19 on academic outcomes. The quantitative procedure will allow the gathering of comprehensive data concerning the subjects' actions and viewpoints. Besides, the method can be used to assess casual affiliations, which can be vital in

اتجاه | 9

examining the association between variables (Drummond & Murphy-Reyes, 2018). The qualitative and quantitative designs are specifically suitable for this study because it offers distinctive ways and abilities to obtain and analyze data appropriate to the study topic.

Settings and Respondents

The study setting is the physical, social, and cultural environments the research is conducted. The study areas will be Lebanon, and the focus will be on specific learning institutions and Lebanese college students to determine their performance before and after the pandemic. Therefore, the participants will be college learners from five Lebanese institutions.

A Simple Random Sampling (SRS) criterion will be employed to obtain the required learning facilities. According to Sharma (2017), in SRS, every populace member has an equal opportunity to be chosen as a participant. The requirement of using the SRS is that one must use an entire list of the population members. Thus, all available colleges will be gathered to enhance effective sampling. A sample of five colleges will be used. Subsequently, the students will be obtained using Snowball Sampling (SS). SS is a non-random sampling technique that utilizes a few cases to urge others to participate in the research. One student from each of the colleges will be identified, and each will be asked to encourage their schoolmates to join the research. A sample size of 100 will be obtained, with 20 from each identified institution.

Data Collection and Analysis

Prior to data collection, informed consent will be obtained from the participants. The respondents will be enlightened about the study's primary goal and the voluntary quality of the process. Besides, the role of the respondents will be clearly highlighted, and the specific data to be gathered will be defined. For confidentiality purposes, personal information will not be recorded, such as their name and their year of study. In addition, the individuals will be assigned a withdrawal document that defines that none is coerced to partake in the study, and they are free not to participate if they feel uncomfortable due to varied reasons.

Data will be obtained using a structured survey questionnaire containing a collection of consistent queries. According to Jedinger et al. (2018), the goal of surveys is to approximate particular populace constraints. The survey will consist of open and closed-ended questions allowing one to gather adequate

details concerning the topic. Moreover, the survey will be administered through email and WhatsApp based on the subjects' preferences. The individuals will be allowed adequate time to respond to the queries. Besides, the respondents will be allowed to submit written or recorded responses. The data collection tool is particularly appropriate for this study because it will allow the gathering of suitable information vital for the research, and it will support the study designs mentioned earlier. Furthermore, the collected surveys will be appropriately disposed of once the study is complete. Subsequently, data will be analyzed using excel and SPSS, whereby descriptive and inferential statistics will be obtained. Descriptive data will be presented in charts, figures, and tables. Inferential statistics used will be t-test to compare the results of the same course before and after COVID-19. Moreover, multiple regression analysis will be used to assess the association between the variables. The analysis will be critical in defining the variables contributing to the students' performance.

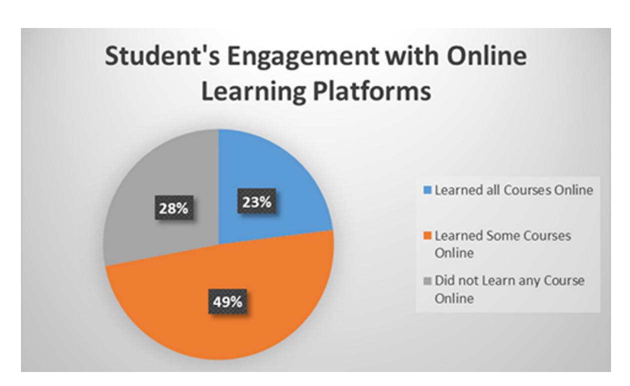
Data Analysis and Results

Student's Engagement with Online Learning Platforms

The initial step undertaken was to assess how students engaged in various learning activities using the technological equipment. Fundamentally, the learners were only asked to recount during the period when schools were fully closed after the outbreak of COVID-19. Besides, the students were asked not to consider the period when the government ordered for resumption of school-based learning. The findings indicate that only 23% of the college students interviewed acknowledged that they learned all the courses online during the pandemic. Subsequently, 49% of the participants indicated that they learned some courses online, and 28% of the respondents did not learn any courses online.

Figure 1

Response



The results affirm that most college students lost learning hours during the pandemic as they could not complete their learning sessions. A wide range of reasons was

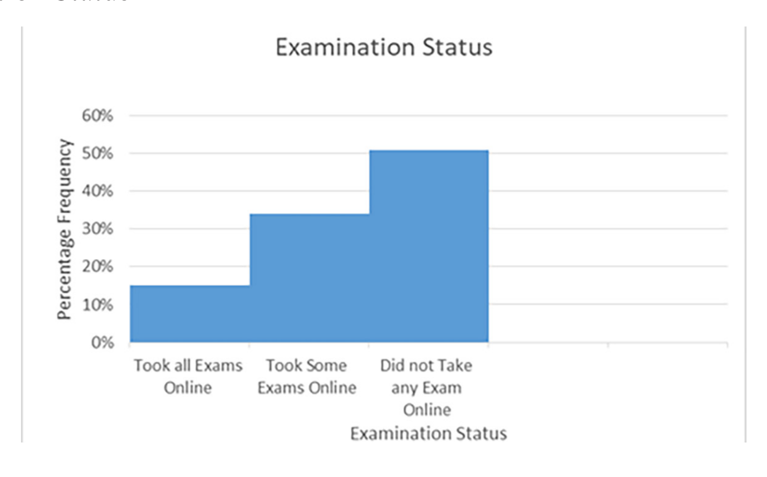
provided to explain why the learners could not participate in the learning process. For instance, some students indicated they did not have the necessary technological equipment such as smartphones, tablets, computers, and internet connectivity to support their learning process. Additionally, some respondents indicated that a slow internet connection was another problem that hindered them from accessing lessons delivered by their tutors on time. Furthermore, some practical courses such as Nursing, Medicine, and Engineering programs could not be delivered online. As a result, the students did not learn any of the courses. Another problem that the learners stated is that their teachers were not equipped with the skills to deliver the courses online.

Assessing Whether Students Took Exams Online during COVID-19

Examinations have been one of the traditional methods that have been used in the past to assess students' comprehension levels. Therefore, while evaluating the impact of COVID-19 on the performance of college learners across Lebanon, a question was designed to seek an understanding of the number of learners who did their exams during the pandemic. The findings of this study reveal that only 15% of the participants who were interviewed did all their exams online. Overall, similar reasons for not taking lessons online were cited as the reasons for not taking exams online. Subsequently, 34% of the participants took some exams online. In this case, the learners indicated that various examinations were not delivered on time, some could not access the exams through the student portal. Lastly, 51% of the participants indicated that they did not take any courses online.

Figure 2

Examination Status



The results of this study reveal that during the pandemic, the learners were not fully engaged in the assessment and evaluation by the teachers. Furthermore, during the interview, most participants indicated that before the onset of the pandemic, most learners from different colleges had long-standing policies that facilitated online examination. However, there were no clear responses on why the trend did not continue during the pandemic. Nonetheless, some people indicated that the number of courses previously offered online was few. Due to disruption caused by COVID-19, it made it challenging to ensure all examinations were delivered using the online platforms and the score posted through the student's respective portals.

Comparing the Performance of Learners before COVID-19 and After Resumption of Learning

The study's primary aim is to assess the impact of COVID-19 on the performance of college students across Lebanon. For this reason, the average performance of learners from different departments before the closure of schools due to COVID-19 and after the resumption of schools when the governments eased the restriction put in place to curb the spread of the virus was assessed. Generally, the average performance of each learner was recorded for all the courses done in the last semester before the closure of schools. Subsequently, the same set of students was taken, and the average results from the first semester after the resumption of schools were recorded. The main goal is to establish whether there is a significant difference in the performance of students.

Table 1

Comparing Performance of Learners

Timeline	N	Mean	SEM	T-Value (Calculated)	p-value	t-value at 0.05	DF	Sig.
Before COVID-19	100	76.21	11.65	2.98	0.57	1.96	198	0
After the Pandemic	100	67.48	11.34					

Based on the results produced in table 1 above, the value of t-statistics is 2.98, greater than the value of t-tabulated (1.96). Therefore, in this case, the null hypothesis was rejected and concluded that the COVID-19 pandemic negatively affected the performance of college student learners. While considering the average score for all the participants before and after the pandemic, the learners scored highly before the pandemic (76.21) compared to after the pandemic (67. 48). Generally, there was a significant drop in learners' performance due to the pandemic.

Coefficient of Regression Analysis on Variables that Contribute to Performance of Learners

The coefficient of regression analysis is a vital tool for understanding the relationship between the dependent variable (performance of learners) and the independent variables of study (training of teachers, academic program, Student's Commitment, Internet Connectivity and Availability technological devices for learning, and the institution where the learners belong). Unstandardized beta coefficients were used since numerous variables can lead to statistical bias when standardized coefficients are used.

Table 3

Coefficients of Regression Equation

Coefficients				
Model		Unstandardized Coefficients	Standardized Coefficients	Sig.
		B	Beta	
1	(Constant)	0.589		0.000
	Trained Teachers	0. 564	0.878	0.000
	Academic Program	0.453	0.198	0.000

	Student's Commitment	0.763	0.713	0.000
	Internet Connectivity and Technological Devices	1.351	0.442	0.000
	Learning Institutions	0.634	-0.765	0.000

From the table a multiple linear regression model derived
Y=0.589+0.564X1+0.453X2+0.763X3+1.351X4+0.634X5+ Error
From the model, while holding all factors constant, students' performance as attributed by the COVID-19 pandemic stands at 58.9%. Further interpretation reveals that a unit increase in the training of teachers on how to conduct lessons remotely, assess the comprehension of learners, and evaluate their exams will increase learners' performance by 0.564. Subsequently, the academic program undertaken by the student could also positively affect their overall performance by 0.453. Besides, a unit increase in students' commitment to remote learning through different approaches can increase their performance by 0.763. Additionally, a unit increase in the internet connectivity and availability of technological equipment such as smartphones, tablets, and computers can lead to a subsequent increase in performance by 1.351. Lastly, the institution where the student learned positively influenced their performance by 0.634.

Discussion of Results

Generally, the study was aimed to assess the impact of COVID-19 on students' academic performance in Lebanon. Due to certain challenges experienced, the snowball sampling technique was used to recruit participants across schools around Lebanon. The results of this study reveal that during the COVID-19 pandemic, there was a limited engagement in the learning by students from different schools. For instance, the statistics show that

28% of the students did not participate in any form of learning during the COVID-19 period when the schools were closed. Reduced direct learning had a significant impact on the performance of individual learners, especially those who only relied on traditional class notes that were not efficient for the continued learning process. Besides, the various institution decided to offer some courses online since it was not tenable to deliver certain contents remotely. Ultimately, only 23% of the students learned all the courses online, and they recorded positive results since they benefited from a continuous learning process. Due to inconsistent learning, the overall performance of the learners dropped significantly. Fundamentally, most learners did not do their exams, assignments, and continuous assessment tests (CATs) to evaluate their comprehension. As a result, their performances were negatively affected by a lack of tests on various courses aspects that they had learned. While comparing learners' performance before and after the COVID-19 pandemic, it can be established the pandemic led to lower performance by the college learners. From table 3, the results indicate the students score a lower average mean after the resumption of learning compared to before the closure of schools. Some of the factors contributing to a lower average performance of learners due to COVID-19 include the lack of strategic platforms for remote classrooms. In particular, there were limited platforms that could allow teachers to deliver lessons remotely. Besides, even though certain platforms such as zoom and google classroom could offer the requirements, some teachers lacked the technical ability to utilize the platforms to achieve the desired results. Lack of trained teachers, unreliable internet and technological resources, poor policies that do not support remote learning by different institutions, and lack of commitments from learners negatively affected students' performance.

Conclusion and Recommendation

Based on the research conducted, there was a significant difference in students' performance before and after the rise of the pandemic. Based on the t-test results, the learners' recorded a greater average score before than after COVID-19. This implies that the pandemic significantly impacted college learners' academic achievement. The possible reason for these variations in outcomes is the challenges associated with the pandemic, including unfavorable learning conditions such as lack of learning materials. During COVID-19, the students lacked technological resources like computers and laptops and reliable internet connectivity to facilitate their learning. These factors made it impossible for some students to access online learning sessions when at home.

Thus, the inconsistent engagement in education and the distress caused by COVID-19 led to the lower performance recorded after the global incidence. School administrators should create a system that allows students to explain the factors contributing to their poor performance. Subsequently, the relevant stakeholders, such as the government, should set appropriate measures to help students improve their academic performance. For example, schools should provide instructional resources, such as laptops and dependable internet, for learners to gain access to educational requirements. Besides, the education industry should plan actions to ensure that the students and lecturers are not substantially influenced by the occurrence of unexpected incidences. Such planning will ensure that students are equally engaged, and they all benefit from the services available.

References

Alshaikh, K., Maasher, S., Bayazed, A., Saleem, F., Badri, S., &Fakieh, B. (2021). Impact of COVID-19 on the educational process in Saudi Arabia: A technology–organization–Environment framework. Sustainability, 13(13). https://doi.org/10.3390/su13137103

Asenahabi, B. M. (2019). Basics of research design: A guide to selecting appropriate research design. International Journal of Contemporary Applied Research, 6(5), 76-89. http://www.ijcar.net/assets/pdf/Vol6-No5-May2019/07.-Basics-of-Research-Design-A-Guide-to-selecting-appropriate-research-design.pdf

Drummond, K., & Murphy-Reyes, A. (2018). Quantitative research designs: Experimental, quasi-experimental, and descriptive. In K. Drummond & A. Murphy-Reyes, Nutrition Research: Concepts and Applications (pp. 155-183). Jones and Bartlett publish. Retrieved 4 February 2022, from https://samples.jbpub.com/9781284101539/9781284101539_CH06_Drummond.pdf.

Giusti, L., Mammarella, S., Salza, A., Del Vecchio, S., Ussorio, D., Casacchia, M., &Roncone, R. (2021). Predictors of academic performance during the COVID-19 outbreak: Impact of distance education on mental health, social cognition, and memory abilities in an Italian university student sample. BMC Psychology, 9(1). https://doi.org/10.1186/s40359-021-00649-9

Gonzalez, T., De la Rubia, M., Hincz, K., Lopez, M. C., Subirats, L., Fort, S., & Sacha, G. M. (2020). Influence of COVID-19 confinement in students' performance in higher education. Plose One. https://doi.org/10.35542/osf.io/9zuac

Jedinger, A., Watteler, O., &Förster, A. (2018). Improving the quality of survey data documentation: A total survey error perspective. Data, 3(4), 1-10. https://doi.org/10.3390/data3040045

Khalil, R., Mansour, A. E., Fadda, W. A., Almisnid, K., Aldamegh, M., Al-Nafeesah, A., Alkhalifah, A., & Al-Wutayd, O. (2020). The sudden transition to synchronized online learning during the COVID-19 pandemic in Saudi Arabia: A qualitative study exploring medical students' perspectives. BMC Medical Education, 20(1). https://doi.org/10.1186/s12909-020-02208-z

Mahdy, M. A. (2020). The impact of COVID-19 pandemic on the academic performance

of veterinary medical students. Frontiers in Veterinary Science, 7. https://doi.org/10.3389/fvets.2020.594261
Mouchantaf, M. (2020). The COVID-19 pandemic: Challenges faced, and lessons learned regarding distance learning in Lebanese higher education institutions. Theory and Practice in Language Studies, 10(10). https://doi.org/10.17507/tpls.1010.11
Noori, A. Q. (2021). The impact of COVID-19 pandemic on student's learning in higher education in Afghanistan. Heliyon, 7(10). https://doi.org/10.1016/j.heliyon.2021.e08113
Sharma, G. (2017). Pros and cons of different sampling techniques. International Journal of Applied Research, 3(7), 749-752. https://www.allresearchjournal.com/archives/2017/vol3issue7/PartK/3-7-69-542.pdf
The World Bank. (n.d.). COVID-19 impact on tertiary education in the Middle East and North Africa (MENA). https://documents1.worldbank.org/curated/en/347151590785257483/COVID-19-Impact-on-Tertiary-Education-in-Middle-East-and-North-Africa.pdf
Wang, Y., Xia, M., Guo, W., Xu, F., & Zhao, Y. (2022). Academic performance under COVID-19: The role of online learning readiness and emotional competence. Current Psychology. https://doi.org/10.1007/s12144-022-02699-7

Sufi Poetry:
A Reflection of Identity

Amal Tawbe

Assistant professor
Lebanese University

Abstract

Sufi poetry or Sufi writing may not be unique or original in terms of language or narration, but it is certainly unique in form, adaptation, and purpose. It was narrated and composed in a way that reflects the Sufi's cultural, social, and religious identity. Each poem or story is a miniature of the Sufi vision. The composition and the interpretation of each story/poem is a symbolic journey from the external universe to the spiritual world. Imagery and symbolism represent the bridge or the means of crossing the path from the literal (the text) to the spiritual (inner meaning). The aim of this article is to show that Sufi writing is a natural product of the Sufi community that, in fact, reflects the Sufi identity. The Sufi author is enmeshed in a spiritual network, which plays an active role in poetic production. In the first part of the article, I examine how Sufi poetry was composed and why it was composed in such a manner. The second part sheds light on the function of images, symbols, and fables in the writings of Hallaj, Nizami, and Rumi

Keywords: Sufi, Hallaj, Nizami, Rumi, poetic production, identity, symbolism

I. The Production of Sufi Poetry

In order to understand how Sufi poetry was composed, we have to understand the Sufi identity. The Sufi poet was inspired by two main sources for his writings, the Qur'an and the Hadith. It was from these two sources that he chose the subject matter and the themes for his

writing. His life and the life of his audience (reader/listener) revolved around these two sources. Omaima Abu-Bakar (1992) asserts that "the Sufi principle of Quaranic exegesis shaped the way medieval Sufi poets composed their poetry and the way they expected it to be interpreted. More specifically, these principles also defined the poet's understanding and use of metaphor" (p. 40). The Qur'an and the Hadith molded these people's way of thinking, morals, and attitudes towards life. In fact, these two sources were the standard upon which every action was validated or falsified. The Qur'an and Hadith were simply society's ultimate and sole references. So, it is only natural to assume that the Sufi poet or author was not only inspired by the content of these two sources, but he was also inspired to compose his writing according to their narrative and poetical techniques.

The Qur'an, which is composed of highly complex 'Ayat', Quaranic verses, or signs/tokens within the universe must first be understood literally. After grasping the exterior meaning, the reader must then move on to the next level. In this level, the reader is expected to recognize the image or symbolism used in the verse/ prose. He, then, must interpret the imagery and understand the symbolic nature of the metaphor. The reader must recognize the inner spiritual meaning related by merging the literal text with metaphors and symbols. In other words, one must cross the bridge from the metaphorical world of poetry and symbolism to the world of ultimate and truthful meaning. Hence, the process becomes a certain mode of perceiving existence or as Abu-Bakar (1992) maintains, it is a "transmutation of everything visible into symbols" (p.40). All Sufi teachings, whether in oral or written form, are filled with quotations from the Qur'an and hadith. Although the exact source of a text is not always provided, especially in the case of hadith, there is a clear consciousness that the beliefs have firm textual authority.

Sufi poetry is instrumental: Sufis produce Sufi poetry in order to achieve spiritual goals. The production of poetry is not in itself a craft. The author loses his individuality when composing his poetry.The 'real' or 'actual' author becomes the Sufi social and spiritual reality. According to Sufi beliefs, the individual intellect is not the intellect capable of production: it is only the receiver or the medium through which the Divine dictates his orders and teachings. The process of interpreting the Quran/Hadith and the text follows the same process of interpreting the inner or spiritual meaning. To a Sufi, the universe speaks in the language of symbols, and everything in it has symbolic significance. The Sufi interprets these symbols in order to reach the reality or the spiritual essence. Here, we can say that Sufi writing mirrored Sufi beliefs

and perceptions of the meaning of life. The poem or narrative is devised, composed, and interpreted according to the same standard. It is a natural product of their interpretation of life. The symbol is the cipher of the mystery that must be deciphered in the Quran, the text, or the universe.

The word of God is expressed in metaphorical verse which Muslims understand from a very early age as a vehicle for spiritual guidance. The concept of metaphor is familiar to Muslims, even those who are not educated because daily oral recitation of the Quran or of prayers makes recited poetry an integral part of a Muslim's spiritual life. Poetry and therefore metaphor is a familiar part of Islamic life for the uneducated as well as for the scholarly (Schimmel and Ernst, 2011). Hadith indicates that all creation is full of God's signs. In a Sufi culture, poetry is not a literary form separate from one's life, but central to the core of one's religious and social identity, regardless of one's social level and literacy. Frishkopf (2003) believes that "the social role of Sufi poetry is not to communicate, but to reawaken mystical knowledge and feeling, to cause the reader or listener to remember" (p.88). If this is the case, then originality and creativity would hinder the role of Sufi poetry. Rumi complains that his own narrative are long and tedious and that his purpose has grown obscure, even that madness is overtaking him. He often he expresses his dislike for the poetic process: "Let a torrent take away these rhymes and specious words!" Rumi maintains that "They are skin! They are skin! Fitting only for the brains of poets! . . . Take this poetry and tear it up… meanings transcend words and wind" (King, 1989, p.280). Poetry was only the means to an end.

II. The Role of Imagery and Symbolism in Sufi Poetry

The symbol is the cipher of the key story that must be deciphered in order to arrive at the real meaning. Sufi poets utilized their stock of prior knowledge and their audience's heritage to preach their vision of life through their writing. Through imagery and symbolism, they were able to convey the Sufi path. Teaching the Sufi doctrine was the ultimate aim.

According to Frishkopf, (2003) "most Sufi poetry draws on a common stock of symbols, images, descriptors, phrases, and themes, constantly recycled" (p.92). The poet's mission could not be accomplished through originality and creativity. Perhaps, one of the oldest metaphorical images that has become a symbol of mystical belief is the moth image. This image was first used by Hallaj (d. 310/922): "The moth flies around the flame, not satisfied with light and heat so it throws itself on the Truth of Truths and becomes annihilated, humbled and scattered remaining without form or body or name or mark" (

Hallaj &Smith, 2013, p.116). In this verse, it is not enough to understand the literal meaning of the words. The moth's journey into flame represents the soul's journey to the Divine.

To Hallaj and his disciples and audience, the moth's unique self-destructive behavior is linked to the mystical belief in the possibility of union with God. The journey of the Sufi's soul is symbolically represented by a moth's journey into flame. The moth is not satisfied with light and heat which are manifestations of the Divine, but the moth, like Hallaj, seeks the truth, The Divine himself. What happens when the moth or the Sufi's soul is united with God? It loses its individual attributes and becomes one with The Divine. Therefore, the moth imagery becomes a symbol of the state of annihilation, the possibility of union with God. The moth image is used as a bridge from the external to the internal. The moth's self-destructive behavior is the annihilation which all Sufis seek in order to unite with The Divine. Hallaj used the moth imagery to describe the path of the Sufi's soul into union with The Divine. He did not seek originality or creativity.

Rumi (d. 672/1273) also utilizes the moth image in his writing: "O lover, do not be less than a moth, when would a lover avoid the flame?" (Schimmel, 1980, p.111). Rumi and Hallaj are not obliged to explain to their readers/listeners the actions of the moth. The readers are already familiar with the image. The aim is to urge the reader to be like the moth. The flame is to be sought by the lover in order to become annihilated or united. The constant use of images and symbols allows the meaning of the writing to be penetrated, not for the sake of its own meaning, but to allow the deciphering of the truth. This idea is stressed by Rumi in the "Gnat and the Wind" in The Mathnawi – Book 1.34 : "Although union with God is life on life, yet at first that life consists in dying to self" (Nicholson, 1925, p.81). The Sufi understands that to be united with God, one must first be ready to lose individuality.

Nizami Ganjavi (1141–1209) in The Story of Layla and Majnun also makes use of this moth imagery. He exclaims: "Do not torture the moth fluttering around you" (Nizami & Galpke, 1997, p.12). He also claims: "He is the moth fluttering around the lamp" (p. 104). Majnun begs Layla not to torture him as if he is pleading with the Divine. Sufis believed that the Divine was in control. He was the active party and it was up to him alone to take action. The 'you', addressed to Layla, gives Layla a divine attribute. She is the light or the lamp that a Sufi seeks or is attracted to. In classical Sufism, God was the 'Beloved' whose presence was sought, in whom one hoped to achieve the annihilation of one's separate identity (fana') and permanent endowment with the Divine.

Hallaj, Rumi, and Nizami use the metaphor as a bridge to cross from the image to the symbol in order to interpret the spiritual meaning of the reality they sought to uncover. Some Sufi imagery and symbolism are sometimes not so easily deciphered because of their paradoxical nature. The sun image can often withstand more than one interpretation or meaning. Hence, more effort is needed to reveal the essence or the meaning the author intends to convey. Rumi used the sun as a symbol representing the beauty and magnificence of God. In the "Ecstasy of Bayazid" in The Mathnawi – Book 1.34, Rumi recites: God is the Sun. How can the shadow resist the Sun. But only the sun displays the light of life. In the world there is naught so wondrous as the sun. But the sun of the soul sets not and has no yesterday. Though the material sun is unique and single, we can conceive similar suns like to it. If the beloved were exposed to outward view neither wouldst you endure, nor embrace, nor form. Press thy suit, yet with moderation. A blade of grass cannot pierce a mountain. If the sun that illuminates the world were to draw nigher, the world would be consumed. (p.169)

To Rumi, the sun illuminates life. He differentiates between the two suns. The sun of the soul and the material sun – so that it becomes clear that his sun is the Divine. The sun gives life and light, yet he also mentions other qualities. The external sun can not be seen without a veil. It will burn anyone who tries to 'embrace' it. It would consume if it is too near, and since it gives life, its withdrawal would also consume life. Here, the reader might become confused since the material sun has the same quality: the sun gives life and its withdrawal would cause death.

Nizami (1997) in the Story of Layla and Majnun likens the movement of the sun to Joseph's coming out of his pit (p.6). He also compares Layla to the Sun. On another occasion the sun "opens the veins of the Judas tree, full of blood like wine" (p.42). Later, Majnun calls out: "I am the moon which looks at you from afar to receive your light, my Sun" (p.9). The sun as an image has the power to illuminate the world, to ripen the fruit, to give life to roses and trees and even to purify and renew. However, the sun is not attainable. It is impossible to reach the sun or even look at it directly. It will burn anyone who tries to enter it. So, the image becomes a symbol of many meanings. Through this metaphorical imagery and its symbolism, the Sufi poet is able to convey the inner meaning to his disciples, and that is precisely the aim of his poetry. The Sun is God. God can not be seen without a veil. To reach this sun, one must, like Hallaj's moth, be scattered, remaining without, form, name, or mark. Despite the paradoxical nature of the sun image, the Sufi reader

has little trouble in deciphering the meaning because it is closely linked and molded in his identity. In other words, despite the difficulty of crossing the bridge, it was still accessible to many, if not to all.

Perhaps the most intriguing symbol in Sufi writing is the veil. The veil image is used as a symbol of the barrier between humans and true Reality, God. Overcoming this barrier or seeing past it is the aim of a Sufi. Rumi writes in The Mathnawi Book 1.34: "The beloved is all, the lover just a veil, the beloved is living, the lover is a dead thing". Sufis believed that humans are but veils obscuring the face of the Divine. If God withdraws, then humans fade into nothingness. To Rumi, the veil is the outside layer which alone has no meaning. However, the veil is essential as a cover for the essence.

Nizami also makes use of the veil image frequently in the story of Layla and Majnun (1997). When asked why he tore Layla's name from the paper and kept his own name, Majnun answers: "Because one can see the shell, but not the Kernel. Do you not understand? The name is only the outer shell and I am this shell. I am the veil. The face underneath is hers" (p.104). So even Majnun believed that the truth, or as he names it, the "Kernel", is veiled. Interestingly, Majnun kept the veil because even Majnun believed that the veil or the outer appearance is crucial for the Sufi doctrine. Perhaps he, like Rumi, felt that it was too dangerous to unveil the truth or at least to have it revealed to all. Sufis believed that "there is no love, but for the First Friend whose naked glory you hide under hundreds of veils" (Schimmel, 1997, p.270).

However, it was Hallaj who was tortured most by the veil. In fact, Hallaj spent his whole life trying to overcome this veil or barrier between God and himself. Actually, when he did lift that veil, he had to be executed. In the twelfth century , Sufi commentator, Rashid al-Din Maybudi wrote a treatise entitled "The Unveiling of the Mysteries" (Symbolism, 2021) in which he enumerates seven veils : reason , knowledge , the heart , the self , senses , desire and will. Hallaj was obsessed with removing the veil of his whole identity or self so that he can unite with God. Hallaj (Massignon, 2001) cries out: "Where then is your essence, apart from me that I may see you clearly/Between me and you (there lingers) an "I" which torments me/So lift your "I" from between us both" (P.90). To Hallaj, the main veil or barrier was his own individuality. He urges God to tear down the veil, the 'I' so he could perceive clearly. He also claims that it is this 'I'which torments him. He pleads with the Divine to lift the 'I'from between himself and the Divine. Hallaj also perceived that reason and eyesight were useless when it came to beholding the Divine. He had no means of unveiling reality except by the eye of the heart. Hallaj (Massignon, 2001) exclaims:

Ah! Is it I or Thou? That would constitute two Gods /Far from me! Far be it from me to affirm two gods! /Thou hast a "He-ness" which is contained in my "no" for ever, /My whole, in all things, is clothed with a dual aspect. /Where then is Thy essence, outside me, where I may gaze upon it? /My essence has become apparent where there is no "where" /Where is Thy visage, object of my searches: /In the regard of the heart, or in the regard of the eye? /Between Thee and me there is an "I" which oppresses me; /Then take away by Thy "Thou" the "I" which is between us.(pp. 90-91).

When Hallaj did see God, or when he tried to remove the veil, he was burned to death. He became as his moth, scattered, with no form. He was accused of madness and infidelity and put to death. It is fatal to directly experience the divine presence. In the story, Layla and Majnun, Majnun faints when he merely glimpses Layla's shadow. He is unable bear even the reflection of her Divine presence.

Despite the fact that Sufis aimed at lifting the symbolic veil between the heart of the believer and God, that veil had great significance. In fact, it is as necessary as the essence itself. Perhaps, this is because even though the universe, including humans, is not God, God is nonetheless present in everything. As Rumi declares: "If you plant only the kernel of an apricot pit, it will not grow; /but if you plant it together with its shell, it will grow" (The Mathnawi, 1925, p.149).

The veil image and its symbolic function had infinite meanings in Sufi perception. First, it is a protective shield. It protects humans from losing their minds as a result of being exposed to 'The Reality', which is too complex to be fathomed by normal perception. Since humans are seeking that which is unimaginable and of which only traces are to be found in their souls, they will not be able to bear the magnificence of God. Direct exposure would consume them. The veil also acts as a shield protecting the Divine. Sufis believed that not all people are expected to understand or perceive this inner reality. As Hallaj asserts in The Tawasin : "Those who are ignorant of our expressions are not from us" (Hallaj & Smith, 2013). Even those who are allowed to perceive this inner reality are expected to pass certain stages. Hallaj claims that union is an act of God. He himself, had to become annihilated, but it was up to God to cause the union.

In Sufi writing, imagery and symbolism become the veil. Sufis used these poetical techniques to veil their doctrine socially and politically. In The Mystics of Islam, Nicholson (2000) writes:

It has been said that the Sufis invented this figurative style as a mask for

mysteries which they desired to keep secret. That desire was natural in those who proudly claimed to possess an esoteric doctrine known only to themselves. Moreover, a plain statement of what they believed might have endangered their liberties, if not their lives. (p.34)

Nicholson's claim seems to be in place because it did endanger their lives. Even with the veil, Hallaj was misunderstood. When he cried 'I am the truth' he was accused of blasphemy. In fact, even the Sufi community blamed him for his outburst and some of them disclaimed him as a Sufi. The secret of unity should have been veiled, just as God himself veils his reality, and just as the Quran veils the inner truth with imagery and symbolism.

Blocking or veiling the inner meaning with figurative language also had other advantages. This technique teaches and delights. Rumi writes: "Cease looking for flowers, there blooms a Garden in your own home. While you look for trinkets, The treasure house awaits you in your own being" (p. 182). Rumi is not telling his reader to stop searching for flowers and trinkets, but he is veiling his true message, the inner truth or the essence of his writing. This verse offers something to all readers: some understand this poetry on the literal level while others grasp the inner meaning. As the Italian poet and author of the tales in the Decameron, Giovani Boccaccio (1313-1375) claims: "Who shall read them [i.e., the stories], may derive both pleasure from the entertaining matters set forth therein, and also good counsel, in that they may learn what to shun, and likewise what to pursue" (Andrei, 2018, p.12). In other words the poet is able to reach all readers even if to different degrees. Each would understand it according to his own perception and gnosis. By using figurative language, Rumi is also giving pleasure to his readers.

Boccaccio also insisted that veiling poetry renders it more pleasurable to the reader and defends those poets who veil the truth. Boccaccio explains that "surely no one can believe that poets invidiously veil the truth with fiction, either to deprive the reader of the hidden sense, or to appear the more clever; but rather to make truths which would otherwise cheapen by exposure the object of strong intellectual effort and various interpretation, that in ultimate discovery they shall be more precious"(Andrei, 2018, P.50). So, by using figurative language, the reader will receive more pleasure because he will make the effort to decipher the meaning of the image and its symbolism. Adonis, too, seems to agree with Boccaccio on this issue. Adonis claims that "the stronger the image appears, the more delight it arouses in the soul" (Adonis & Cobham, 2013, p.46). The effort to understand is what underlines the process

of appreciation. Rumi advises his readers to “listen to presence inside poems and let them take you where they will” (Nicholson, 1925, p.48).
Metaphorical imagery and symbolism were also utilized in Sufi poetry because the experience itself required such figurative language. Images and metaphors serve many functions in Sufi poetry other than acting as a bridge to the inner meaning of the word. They also shape the veil which protects the text, the author, the doctrine, and perhaps the inner spiritual world and the Divine himself. The symbol contains different meanings and the literal meaning hides the figurative meaning, but at the same time it also seems to disclose it because the figurative meaning can not be fathomed except through the literal meaning.

III. The Tales of Rumi

Other than imagery and symbolism, Rumi in his writing utilizes tales, fables, and allegory to preach his message. This narrative style was also an imitation of the Sufi religious beliefs. Like metaphors and symbols, the fable also had its tradition in the Quran and Hadith. In fact, the circumstances of the composition were approximately the same. The poet recited the verses or the fable, which were in turn written down by other disciples. In the Story of Hilal, Rumi instructs Chelebi to copy his (Rumi’s) verses: “Since thou hast written part of the story of (Hilal) , put into words the tale of the full moon” (The Mathnawi, Book 1, 1925). In the Islamic tradition, to which Rumi belonged, there was an existing model of such a scheme. The Quran was communicated by the angel Gabriel to the Prophet Mohammad, who recited the verses as he received revelations. Muslims of later generations were the compilers of this text.
As for the tales themselves, they at first seem to lack narrative sequence. They appear as unconnected and disjoined tales. One story is often interrupted by another story, an incomplete poem, or a sermon. Throughout his writing, Rumi seems to have one goal in mind, to preach various percepts of Sufism. He, himself, announces this aim in the following verse in the opening section of Book1 of The Mathnawi, Rumi asks his audience to listen to the story: “ Reflect upon this story, my dear friends, /its meaning is the essence of our state” (1.35).
Rumi aimed to remind or convince his audience by creating such a poetic form that constantly reinforces the nature of his subject matter, the Sufi doctrine or vision. He found techniques of communication that rely on a

moral level of persuading his readers to action. He found that allegory would be most effective. Rumi was a product of his society. He knew his audience and understood their needs. Boccaccio explains the advantages of allegory: "They produce fables rather than some other covering, because their beauty attracts those whom neither philosophical demonstrations nor persuasions would have been able to allure. What else do the words of our savior in the gospels come to if not a sermon that does not signify what it appears to? It is what we call -to use a well known term -allegory" (Andrei, 2018, p.211). Allegories serve Rumi's goal in various ways: they shelter or veil his poetry and at the same time they charm and persuade his readers, especially those who are not so scholarly.

The following tale, "Joseph and His Guest" from the book of The Mathnawi (Nicholson, 1925) illustrates the importance of the narrative or the tale in Sufi culture. Despite its brevity, this tale encompasses multi-messages to a Sufi reader and even to a common reader. From the title, the reader is given a hint that the main character, Joseph, is a pious religious figure. Rumi does not have to explain it to his reader/ listener because as was previously indicted, the story is part of their religious identity. We also soon learn that the guest is "a loving friend". To further clarify this characteristic of the guest, he is referred to as "Joseph the Truthful". In the same tale, Joseph responds :"That was the chain and I was the lion". These two metaphors must be bridged to come to the inner meaning. The chain seems to refer to God's decree. So, here is the first lesson: we must accept God's decree. Social customs also play a part in the tale, uniting the story and revealing its unique Sufi identity. A visitor or a guest usually brings a present, a gift worthy of the friend. In the tale, the visitor exclaims: "How should I bring a grain of gold to the mine"(p.56). Here, he is reinforcing the quality of Joseph. Joseph is a mine of gold, so "how should I bring a drop of water to the sea? (P.57).

Social and even geographical messages can be read in the tale despite its brevity. The guest again asks: "How should I bring a drop of water to the sea? I should only bring cumin to Kerman" (p.57). Kerman is a place famous for cumin . Again, his audience require no explanation. By the end of tale, Joseph ascends in status from a religious figure to God himself: "There is no grain in his barn except thy incomparable beauty" (p.57). Sufis believed that God exists in everything and they also understood that the beauty of the spirit

can not be compared to anything in the outer world. The image of the mirror is also a well- known image in Sufi writing. Joseph is described as having the inward light of a pure heart. Sufis believed the simile of the sun and the metaphor of the lamp of heaven are also in need of no explanation to a Sufi. God sees himself in man.

The mutual acknowledgement of signs, symbols and figurative language signals a bond between the audience and the poet. Whether alluding to the unspeakable or to the sacred, the story's multiple meanings are clear to a community whose life revolves around them. What matters to Rumi is not the story, but the lesson behind the story. Rumi wrote with the aim of unveiling: "Whoever is parted from one who speaks his language becomes dumb though he have a hundred songs"(The Mathnawi 1, 6:28). He did not seek originality and therefore had no need for creativity. The whole concept of poetry revolved around the deciphering of signs:

The Sufi said: "You say they're "signs"? Those "signs" /Are in the heart. This is your gluttony! /What's outside merely are the "signs of signs". /This garden and this greenery you see /Reside within soul's deepest essence, yet Outside, like water in a flowing brook /The garden's likeness is reflected there. It's but a garden's phantom that you see /Cascading by grace of the water there. / There're gardens in the heart and orchards there /All full of fruit. Their images are what's /Reflected on this water, earth, and air". (Lewisohn, 2018, p.18)

IV. Conclusion

To conclude, Sufi poets and authors might not be geniuses of originality and creativity, but they were certainly masters in utilizing and molding already existing forms to suit their purposes. Each poem and tale told a story, taught a lesson, related an experience, but above all, revealed the Sufi identity. Each utterance contained a world of meaning, meanings that can only be deciphered through love. Every letter and each word was a part, struggling to unite with the whole, trying to become meaningful as it merges with the original source, the poem, the text, and the utterance. As Frishkopf maintains: "Poetry is Sufism's most important expressive medium, language's closest approach to the subtle fragrances, the ineffable flashes characterizing the Sufi's mystical life. Qur'an and Hadith constitute the textual core of the Sufi's spiritual life" (2003, p.88). The richness of Sufi poetry is that it refuses a fixed meaning and so Sufi poetry negates Roland Barthes' claim that "to refuse to fix meaning is, in the end, to refuse God" (The Death of the Author, p. 147 as cited in Frishkopf, 2003). On the contrary, the Sufi's refusal of a fixed meaning becomes the means to reach God and preach the Sufi doctrine.

Reference

Abou-Bakr, O., & 1992) .أبو بكرأميمة). The Symbolic Function of Metaphor in Medieval Sufi Poetry: The Case of Shushtari / الوظيفة الرمزية للمجاز في شعر العصور الوسطى الصوفي: دراسة في الششتري. Alif: Journal of Comparative Poetics, 12, 40–57. https://doi.org/10.2307/521635

Adonis.,& Cobham. C. (2013). An Introduction to Arab poetics.London: Saqi Books.

Andrei, F. (2018). Boccaccio The Philosopher. Italy: Palgrave Macmillan.

Frishkopf, M., & 2003) .فريشكوبفمايكل). Authorship in Sufi Poetry / مفهوم المؤلف في الشعر الصوفي. Alif: Journal of Comparative Poetics, 23, 78–108. https://doi.org/10.2307/1350077

Hāllāj, H. M., & Smith, P. (2013). The Tawasin: (book of the purity of the glory of the One).

King, J. R. (1989). Narrative Disjunction and Conjunction in Rumi's "Mathnawi." The Journal of Narrative Technique, 19(3), 276–286. http://www.jstor.org/stable/30225257

Lewisohn, L. (2018). From Rumi's Mathnawī: The Garden of the Heart. Mawlana Rumi Review, 9, 18–18. https://www.jstor.org/stable/26949915

Massignon,L. (2001). Diwan al Hallaj.Yogyakarta: Purta; Langit.

Nicholson, R. A. (1925). The Mathnawi: 1. Leiden; London: Brill; Luzac.

Nicholson, R. (2000). The mystics of Islam. London: Routledge.

Nizāmî, G., & Gelpke, R. (1997). The story of Layla and Majnun. New Lebanon, N.Y: Omega Publications.

Schimmel, A. (1980). The Triumphal Sun. London: East West Publication.

Schimmel, A. (1997). Nightingales under the snow. New York: Khaniqahi Nimatullahi Publications.

Schimmel, A. & Ernst, C., (2011). Mystical Dimensions in Islam, Chapel Hill: The University of North Carolina Press.

Symbolism. (2021). Retrieved 21 December 2021, from https://www.patheos.com/library/sufism/ritual-worship-devotion-symbolism/symbolism?